
ومزّقتُ
قناعي
مقالات
صلاح بن هندي

إهداء ٢٠١٠

الأستاذ / صلاح بن عبد الله بن هندي
المملكة العربية السعودية

ومزّقت قناعي

صلاح بن عبدالله بن هندي



© صلاح بن عبدالله بن علي بن هندي، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
بن هندي؛ صلاح بن عبدالله
ومزقت قناعي. / صلاح بن عبدالله بن هندي بن هندي - الهفوف
- ١٤٣١هـ
..ص ، .. سم
ردمك: ٥-٤٨٩١-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١ - المقالات العربية– السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١ ، ١٤٣١/٣١٢٥

رقم الإيداع : ١٤٣١/٣١٢٥
ردمك: ٥-٤٨٩١-٠٠-٦٠٣-٩٧٨



دار الكفاح للنشر و التوزيع — AL - KIFAH PUBUSHING HOUSE

الإدارة العامة : — General Administration :
الدمام شارع الملك خالد حي الربيع — Dammam - King Khalid St. - Rabie Area
تلفون : ٠٣٨٣٣٠٥٠٧ فاكس : ٠٣٨٣٤٣٦٣٣ — Tel.: 03 8330507 - Fax : 03 8343633
E-mail : publishing@kifahprint.com

تصميم الغلاف والاشراف الفني
مركز الكفاح لخدمات المؤلفين
تصميم الغلاف: فدوى إبراهيم يوسف

الصف الضوئي : — Text Typesetting :
مطابع الكفاح — Al-Kifah Printing Press
التنفيذ الطباعي — Printing Finishing
مطابع الكفاح — Al-Kifah Printing Press


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى عقد الثمانينات من القرن العشرين ، تلك السنوات التي بدأت فيها خطواتي الأولى في طريق المعرفة .

❖ ❖ ❖ ❖

مجرد تساؤل

حينما نُمْسِكُ بالقلم هل نحن مَنْ يَكْتُب ، أم نحن مَنْ يُكْتَبْ ؟!

هل الكتابة وسيلة للتعبير عما نريد ، أم نحن الوسيلة للتعبير عما تريد هي ؟!

هل القلم هو مَنْ وقع في شِراكنا ، أم نحن الذين وقعنا في شِراكه معشر الكتّاب ؟!

صلاح بن هندي

هكذا نشأتُ

لم أكن الابن (دوماس) كي يكون والدي (الكسندر دوماس) صاحب الرواية الخالدة (الفرسان الثلاثة) .

و لم أكن (إحسان عبد القدوس) كي تكون والدتي (فاطمة اليوسف) صاحبة المجلة المشهورة (روز اليوسف) .

و لم أكن (جان بول سارتر) كي يكون جدي سارتر شوايتزر ذلك المثقف الذي ترك لحفيده سارتر مكتبة ضخمة نهل منها المعرفة .

و لم تكن جدتي تجلس على كرسي متأرجح تصنع من خيوط التريكو قبعة لحفيدها وهي تستمع إلى (السيمفونية التاسعة) لـ (بيتهوفن) ! .

إنما كنت طفلاً بسيطًا نشأ وترعرع في أسرة أُميّة ، ليس في بيتنا الصغير مجلة أدبية كـ (الرسالة) ، ولا فنية كـ (الكواكب) ، وليس في ركن من أركان بيتنا الصغير مكتبة تزخر بالكتب الكثيرة ، كي يتسنى لي بعد ذلك قراءة (توم سوير) و (أوليفرتويست) و (روبنسون كروزو) و (جزيرة الكنز) أو (ألف ليلة وليلة) و (كليلة ودمنة) و (سيرة عنترة) .

لقد نشأت في بيتنا الصغير و لم أر والدي يقرأ الجريدة وهو يحتسي قهوة الصباح ؛ لأنه كان رجلاً أميًا لا يقرأ ولا يكتب .

و لم أر جدي (رحمه الله تعالى) يقرأ كتابًا في التاريخ كالطبري أو غيره .

لم يكن في بيتنا الصغير نافذة تُطلُّ على عالم الثقافة والفنون سوى جهاز الراديو ، وقبله كانت (البشتختة) أو (الجرامفون) ، فمن خلالهما استمع أفراد أسرتي إلى أصوات المطربين أمثال : محمد بن فارس ، ناظم الغزالي ، زهور حسين ، محمد عبد الوهاب ، أم كلثوم ، نجاة الصغير ، شريفة فاضل ، وحضيري بوعزيز .

كانت البيئة التي نشأتُ فيها بسيطة في ثقافتها ، كانت لقمة العيش والبحث عنها هو الشغل الشاغل ، حتى شارعنا الصغير (شارع كرم) لم يكن كشارع

(عماد الدين) في مصر ، أو شارع (الرشيد) في العراق ، أو شارع (الحمراء) في بيروت يضجّ بالمقاهي والمحلاّت التجارية ، إنما كان شارعًا بسيطًا توجد به بقالة أو بقالتان ! .

لكن حين أدخلني أبي مدرسة بلاط الشهداء الابتدائية تعرّفت من خلالها على أبجديات المعرفة ، فعرفت القراءة والكتابة ، فكنت أشتري جريدة اليوم وعمري تسع سنوات ، وكذلك مجلة (غراندايزر) للأطفال ، فلما كبرت وصارت سنّي (١٠ سنوات) افتتحت مكتبة ضخمة في حيّنا الصغير اسمها (مكتبة القيروان) .

من هذه المكتبة بدأت أنهل من مياه المعرفة الشيء الكثير ، فكنت أشتري المجلات الفنية والرياضية ، وبعدما كبرت وصار عمري (١٨ سنة) صرت أشتري منها الكتب الدينية والأدبية ، وفي سن الخامسة والعشرين صرت أقتني منها كتب : العقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، وفي عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م تعرّفت على أحدية الشيخ أحمد بن علي آل مبارك ، فكانت انطلاقة كبيرة في حياتي .

وبعد ذلك انطلقت أجمع الكتب من معارض الكتب داخل المملكة وخارجها ، وانفتحتُ على معارف وعلوم أخرى ، فقرأت كتبًا فلسفية كثيرة ، كما قرأت في علم النفس وأكثرت من كتب (سيجموند فرويد) و (إيرك فروم) ، وكتب يوسف ميخائيل أسعد .

وقرأت في علم الاجتماع ، وتأثّرت كثيرًا بكتب (علي الوردي) عالم الاجتماع العراقي ، وقرأت في الأنثروبولوجيا ولا سيما كتب (جيمس فريزر) و (كلود ليفي شتراوس) .

وقبل ذلك قرأت للشعراء الجاهليين والإسلاميين والأندلسيين وشعراء المهجر والشعراء التموزيين ، أمثال : بدر شاكر السيّاب ، البياتي ، صلاح عبد الصبور ، نازك الملائكة .

وقرأت نزار قبّاني ، وخليل حاوي ، وأمل دنقل ، وعمر أبو ريشة ، والجواهري ،

والرصافي ، وأحمد شوقي ، وإبراهيم ناجي ، وغيرهم كثير .

وصدر لي ديوانا شعر ، هما :

- على استحياء ١٤٢٤هـ .
- رقصة الفستان ١٤٢٨هـ .

وفي مكتبة القيروان قلت أبياتًا أصف فيها شعوري حين دخلتها وعمري (٣٤ سنة) وقد تغيّرت معالمها وملامحها :

أتذكريني ، وقد طال الزمان بنا ... أتذكريني ؟ كثيرًا ما أتيت هنا

أنا الصبي الذي بالأمس أدهشه ... فيك الجمال فشدَّ الروح والبدنا

أنا الصبي الذي ما زال يأسره ... حبُّ الكتاب ، وما لي عن هواه غنى

أتيتك اليوم كهلاً شاب مفرقه ... وضاع منّي صبيٌّ قيل عنه (أنا)

يا قيروان الهوى ، ما زال يُسعدني ... أنَّ الثقافة حبٌّ كان يجمعنا

وها هو - عزيزي القارئ - كتابي الأول ، في النثر ، أجعله بين يديك ، فأرجو أن ترى فيه شيئًا يستحق القراءة في زمنٍ قلَّ فيه القرَّاء ، ونَدُرَ فيه الكتّاب ! .

صلاح بن هندي

❖ ❖ ❖ ❖

طه حسين . . تألَّم فتعلَّم

١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م

ذات يوم قال (فيخته) : أن تكون حرًّا هذا لا شيء ، أما أن تصبح حرًّا فهذه هي الجنة بعينها ا.هـــ .

أما توفيق الحكيم فيخبرنا في روايته (عصفور من الشرق) أن (محسن) رأى هذه العبارة منحوتة على قاعدة تمثال الشاعر الفرنسي (الفرد دي موســـيه) العبـــارة تقول : لا شيء يجعلنا عظماء ، غير ألم عظيم .

حينما ننظر إلى الحياة نرى بعض الناس توهب لهم النِّعم في بدايات حياتهم دون أي جهد ، فتكون معهم كأعضائهم التي ألفوها منذ أن وعوا الحياة .

وهناك أناس يولدون معطلين من النِّعم ، فتكون حياتهم قلقة ومضطربة ؛ لا يهـــدأ لهم بال أبدًا .

فهم دائمًا يبحثون عن ذواتهم ، يقضون حياتهم في طلبها والبحث عنها ، حـــتى إذا ما وجدوها كانوا هم الناس .

أولئك الذين احترقت حياتهم فأشرقت ، أولئك الذين أخذوا الدنيا غلابًا . الألم هو السر الخفي ، والجلي ، في صناعة العظماء ، الألم هو الباعث على تحقيق اللـــذة ، فلذّة الحرية لاحت لعنترة العبسي يوم أن ذاق ألم العبودية ، فناضل في سبيلها همّة عالية :

إن كنت في عـــدد العبيـــد فهمّـــتي   فوق الثريّـــا والـــسماك الأعـــزل

وهذا خطيب (أثينا) الشهير (ديموستين) لما آلمته سياط تلعثمه ناضل حتى صـــار خطيب أثينا بلا منازع .

وقل مثل ذلك عن (العقاد) حينما لم تسعفه الشهادات العليا بوصلها ، ناضـــل حتى سما بعلمه عن حضيضها !! .

ومن قرأ كتاب (الأيام) لطه حسين ، علم ورأى ما عاناه هذا الأديب الكبير من ألم وحزن ، واضطهاد وصراع مع الحياة ، كل الحياة .

لكنه ظل صامدًا أمام الريح المعاكسة لآماله ، والتي حاولت اقتلاع إرادته من جذورها لكنه أثبت لكل الدنيا أنه (قاهر الظلام) بحق .

فأبصرت أجيالٌ وأجيال بكتاباته البصيرة في مختلف أنواع المعرفة .

فهو كـ (هوميروس) الأغريقي ، كان أعمى ، لكنه ترك للبشرية (الإلياذة) و (الأوديسة) لتصبحا عينين يبصر بهما المبصرون ، عالم الإبداع والخيال والفن ! .

يقول الدكتور (زكي نجيب محمود) عن طه حسين : « وأما طه حسين فقد كان هو الذي ملأ خيالي في تلك الأعوام ، ليست المسألة هنا متعلقة بالمادة المكتوبة نفسها ، وإلا فلست أظن أن طه حسين بما كان ينشره عندئذٍ أغزر فكرًا من سواه ، لا بل ربما كان العقاد أو سلامة موسى أو الدكتور محمد حسين هيكل أوفر محصولاً من محصوله ، لكنَّ المسألة متوقفة على الروح التي يبثها في النفوس » [١] .

أما الأستاذ (أنيس منصور) وهو تلميذٌ وفيٌّ للعقاد آنذاك ، وكتب عنه كتابه الرائع (في صالون العقاد كانت لنا أيام) فيقول عن طه حسين : وطه حسين مثل (سقراط) يبحث معنا ويناقشنا ، ويسحق أفكارنا القديمة ، ثم تتولد المعاني الجديدة من الحوار معنا [٢] .

أما الدكتور عبد الرحمن بدوي (أستاذ أنيس منصور) فيقول عن طه حسين في مقدمة كتابه (سيرة حياتي) : لقد كنت بعد قراءة فصل أو كتاب لطه حسين أشعر بحرارة تسري في مشاعري ، وحماسة للخلق الفني المبكر تزداد كل يوم أوارًا

---

(١) قصة نفس ص (٩٥) .

(٢) في تلك السنة هؤلاء العظماء ولدوا معًا ص (٢٢) .

وتعاطف وجداني وفكري يخيل إليّ أن طريقه هو طريقي المقبل (١) .

ألا ما أعظم الإنسان يوم أن يجعل من العقبات عتبات إلى تحقيق ذاته وطموحه .

طه حسين أثبت للناس حقًا أنه (لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس) .

هاهو يقول في مقدمة كتابه (الأيام) : والحمد لله على أن هذا الصبي لم يستسلم للحزن و لم تدفعه ظروفه إلى اليأس ، وإنما مضى في طريقه كما استطاع أن يمضي ، محاولاً الخير لنفسه وللناس ، ما أتيح له أن يحاول من الخير ا.هـ .

وطه حسين إنسان متفائل ، لم يعرف التشاؤم طريقًا إلى نفسه ، بل إنه نعى على أبي العلاء المعرّي تشاؤمه وانعزاله ، ورآه ظالمًا لنفسه بهذه النظرة السوداء للحياة .

يقول الدكتور طه حسين في كتابه (مع أبي العلاء في سجنه) : وأنا شديد الإشفاق على أبي العلاء من نفسه قبل كل شيء وقبل كل إنسان .

فلم يظلمه أحدٌ قط كما ظلم نفسه ، و لم يكلفه أحدٌ قط من الجهد والعناء ومن المشقة والمكروه مثل نفسه نحو خمسين عامًا .

و لم يفتنّ أبو العلاء في شيء كما افتنَّ في ظلم نفسه وتحميلها ما تطيق وما لا تطيق وأخذها بالمكروه في حياتها العملية والعقلية أيضًا (٢) .

بهذه الروح المقبلة على الحياة وأهلها استطاع طه حسين أن يتزوج الحياة لا أن يطلقها - كما فعل المعرّي - ، فطه حسين تزوج وأنجب ؛ لأنه يرى الزواج والنسل واجبًا من واجبات الإنسان في هذه الحياة ، في حين رأى المعري الزواج والنسل جناية جناها عليه أبوه ، و لم يجنها هو على أحد ! .

لقد أبصر طه حسين في ألم الحياة لذّة ، ورأى في قبحها جمالاً ، فدلَّ المبصرين على روعة الحياة وجمالها فهو فيلسوف متفائل ، ويندر في الفلاسفة المتفائلون ! .

هذا هو (طه حسين) إنسانٌ أنصف الحياة بعدما ظلمته ، وحنَ على أهلها بعدما

---

(١) سيرة حياتي (١/٢٨) .

(٢) مع أبي العلاء المعري في سجنه ص (٣٢) .

قسوا عليه ، فكان معتدلاً في مزاجه وردّة أفعاله ؛ لأنه كان ينظر للأشياء ببصيرته لا ببصره ، فرحمه الله تعالى .

ويطيب لي أن أختم حديثي عن عميد الأدب العربي بهذه السطور التي قالتها فيه تلميذته الوفية الدكتورة سهير القلماوي : إن قليلاً من الأدباء والمفكرين يصمدون للزمن مثلما يصمد طه حسين ، بل لعل طه حسين أن يكون الأديب الوحيد الذي لا تزيد العودة إلى آثاره إلا رسوخًا وامتدادًا في نفس قارئه ، وإثارةً للإكبار المتجدد حتى إن الباحث ليحار في أي الجوانب من حياة طه حسين وآثاره أحفل بالعجب والإثارة [1] .



---

(١) فاروق شوشه (مواجهة ثقافية) ص (١٣٤) .

الدموع في حياة (العقّاد)

١٨٨٩ - ١٩٦٤م

عباس محمود العقاد نجمٌ لمع في سماء الفكر العربي ، وسحابة سقت الفكر والأدب عذب مائها ، فأضحى الجدب خصبًا ، والهشيمُ خُضْرةً نديّة .

عاش الحياة مكافحًا ومناضلاً من أجل تحقيق الذات ، والذبّ عن الحق والكرامة ، كره الظلم وأهله ، فرشقهم بسهامه التي لا يندمل لها جرح ، خاض من المعارك الأدبية والسياسية الشيء الكثير ، فكان صعب المراس ، قوي الشكيمة ، يهزأ من كل متحذلق يلبس ثوبًا غير ثوبه . وتعثّر في ميادين العشق ، وغاص بحاره فذاق عذبها وأجاجها ! فبان ذلك في شعره ونثره .

كان صالونه الأدبي جامعةً أدبية وفكرية ، يقصدها الدكاترة قبل التلاميذ ! .

وقد أحسن كثيرًا الأستاذ (أنيس منصور) يوم أن صوّر لنا لحظات ذلك الصالون في كتابه المشوِّق (في صالون العقاد كانت لنا أيام) .

وأنا في هذه العجالة سألقي الضوء على جانب ربما كان غامضًا في حياة العقاد ، ألا وهو تلك اللحظات التي فقد فيها العقاد تجلده وجسارته ، فذرف الدموع ، وأطلق الآهات .

لقد عرف عن العقاد أنه رجل حاد الطباع ، شحيح دمع العين ، لا تعرف الرّقة طريقًا إلى قلبه .

والحقيقة أنه عكس ذلك تمامًا ، فهو رجل رحيم القلب ، مرهف الحسّ ، يغلبه البكاء في أحايين كثيرة ، فإن كان أبو فراس الحمداني يقول - وهو في سجنه لدى الروم - لتلك الحمامة :

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلةً ... ولكن دمعي في الحوادث غالي

وإن كان إيلياء أبو ماضي يقول عن كبريائه :

وتأبى كبريائي أن يراني ... فتى مغرورقًا بالدمع جفني

فإن عباس محمود العقاد يقول : « يبكي الإنسان لغير ما يضحك له ، يبكي حين يظهر به النقص والعجز ظهورًا لا سبيل (للمداجاة) فيه .

يبكي في المواضع التي يشعر لديها بالقهر التام ، ويتحقق له تجرده عن الحول والقوة حيالها . . . » ثم يعيب على أولئك الناس الذين يتكلفون التحلّد والسكون فيقول : « فإن أصحاب المظاهر والأبهة من يترفّع عن البكاء ويتكلّف الجَلَدَ والسكون حتى في الفجائع الفادحة ، كأنهم يأبون الإقرار بالانقهار على كل حال » ا.هـ .

ويقول عنه الأديب (طاهر الطناحي) في مقدمة كتاب العقاد (أنا) : « . . . ولكن العقاد كان شديد الحساسية ، سريع البكاء ، وقد أثبتت المراجع العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والبكاء » [1] .

وتعال – عزيزي القارئ – نلمس هذه الحساسية الشديدة في شعر العقاد .

هاهو يحب فتاة اسمها (أليس) – يقال أنها هي سارة التي كتب عنها الرواية المعروفة – فيتعلق قلبه بها ، حتى جاء ذلك اليوم الذي شكّ فيه العقاد بهذه الفتاة ، فما كان منه إلا أن أنهى العلاقة بينه وبينها ، وأرجع رسائلها إليها .

يقول عامر العقاد عن تلك الحادثة : خلال تلك الأيام نظم العقاد قصيدة (يوم الظنون) ، صوّر فيها حاله وحال الشك في صاحبته ، ذلك الشك الذي كاد أن يقضي عليه :

يومَ الظنونِ ، فقدتُ فيك تجلّدي ... وحملت فيك الضيم مغلول اليد

وبكيتُ كالطفل الذليل ، أنا الذي ... ما لان في صعب الحوادث مقودي

وغصصت بالماء الذي أعددته ... للريّ في قفر الحياة المُجْهِد

قلت (بن هندي) :

---

(١) كتاب (أنا) ص (١٥) .

وإنني والله ما إن أشرق بالماء في لحظة من اللحظات إلا وأترحَّم على العقاد ، وألهج بهذا البيت الأخير ! .

يقول عامر العقاد : ثم نراه يكتب قصيدة أُخرى لا تقل عن سابقتها في تصوير الحالة التي عاشها ذلك الشاعر المحب ، وهي بعنوان : (نفثة) يقول فيها :

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا   عذب الشراب ولا الأنداء ترويني

حيرانُ حيران لا نجم السماء ولا   معالم الأرض في الغمَّاء تهديني (١)

إلى أن قال وهو يصف تعسّر الدمع من شدة الحزن :

شعري دموعي وما بالشعر من عوضٍ   عن الدموع نفاها جفن محزونِ

يا سوء ما أبقت الدنيا لمغتبط   على المدامع أجفان المساكين

هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم   وما استرحت بحزن فيّ مدفون (٢)

وساعة البين هي أولى وأحق الساعات التي يذرف فيها المحبون دموع اللوعة والحسرة ، فقد بكى فيها (ابن زيدون) (ولادة) ، وبكى فيها (ابن زريق) زوجته عندما ودّعها بحثًا عن الرزق ، والشاعر (ذو القرنين ابن حمدان) يقول عن ساعة الوداع :

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا   ورأيت كيف نكرر التوديعا

لعلمت أن من الدموع محدّثًا   وعلمت أنَ من الحديث دموعا

إذًا فالعقاد ليس بدعًا عندما يذرف دموعه ويقول :

فما كل حين يغلب الحبّ ربه   ولا الصبر في كل المواطن يغلب

لتظمأ ليال كان دمعي شرابها   فحسب الليالي دمع مَنْ لم يجربوا

ولعل العقاد انتبه مؤخرًا إلى أن البكاء من أجل (أليس) أمر لا فائدة منه ، فأخذ

---

(١) غراميات العقاد ص (١٣٨) .

(٢) المرجع السابق ص (١٣٩) .

على نفسه ألا يبكي فتاة قط فهاهو يصرخ :

غفر الذنب من بكائي عليك إنني لا أعود ما عشت أبكي

لا يساوي وقد تعلمت منك نسل حوائكن دمعة شك

بعد هذا التصريح بعدم البكاء على فتاة قط ، هل انتهى مشهد الدموع في حياة العقاد ؟ أم أن للدموع أسبابًا أخرى ؟ عندما مات زعيم مصر آنذاك (سعد زغلول) رثاه العقاد بقصيدة قال فيها :

لست أنسى في وصيف (سامرًا) لك كالطير أظلتها الوكون

إذ تلاقينا على مهد الرضى والأحاديث مع الليل شجون

ويموت له صديق اسمه حسين الحكيم فيقول في رثائه :

رفيق الصبا المعسول أبكيك والصِّبا وما كان أغلى ما بكيت وأطيبا

وتحدث بينه وبين شخص عزيز عليه مفارقة ، وكان الثاني قد تجنّى على العقاد ، فيقول في قصيدة يعتذر له على خيانته بأن الحياة قد سلبته منه قسرًا ، لذا حُقّ للعقاد - المسلوب - أن يبكي صاحبه المسلوب منه :

وقالوا خؤونٌ ، قلت مهلاً فإنما بكائي عليه وافيًا لعجيبُ

لقد سلبتنيه الخيانة راغمًا وإنّ جديرًا أن ينوح سليبُ

هذا هو العقاد ، رحيم القلب ، شفّاف الحس ، سريع الدمع ، يبكي حينما يصدم في حبه وعشقه ، يبكي حينما يفارقه عزيز إلى دار الآخرة ، يبكي عندما يتنكّر له الأصدقاء .

وما صلابة العقاد إلا أنها نابعة من فرط الرقة والرحمة ، فهو إنسان نزيه ورجلٌ وفيّ ، يزعجه الغدر في الحياة ، وتؤلمه الطعنة إذا جاءت من القريب .



زكي مبارك . . . ظُلِمَ فظَلَم
١٨٩١ ـ ١٩٥٢م

قديمًا قال عنترة العبسي :

وإذا بُليـــت بظـــالم كـــن ظالمًـــا وإذا لقيت ذوي الجهالـــة فاجهـــلِ

ولعل هذا البيت يلخّص الكثير من حياة الأديب الراحل : (زكي مبارك) .

فإنه كالطفل الذي يكسِّر الأواني ، كي يلفت إليه أنظار الكبار .

والدكاترة زكي مبارك عندما لم يلتفت إليه الكبار من الأدباء والمفكرين في وقتــه راح يكسّر على رؤوسهم أواني الكلمات اللاّذعة ، فكان يلقّــب طــه حــسين بالغراب ، ويقول عن توفيق الحكيم : الظريف الضعيف ، ويقول عن عباس محمود العقاد : « ولكن العقاد تعاوده آفة بغيضة هي حب النفس » ، ولعــل عبــارة : (زكي مبارك سليط اللسان إلى درجة لا تعقل) .

هذه الصورة فقط هي التي وضعت – للأسف – في ألبوم ذاكرة المثقف العربي .

وأُهملت أو استبعدت باقي الصور المشرقة ، لكن الذي يقرأ كتب هــذا الأديــب الجامح ، ويقرأ ما كُتب عنه من قبل المنصفين – وما أقلّهم – الصادقين ، يعلم أن زكي مبارك أديب رائع ، وإنسان رقيق المشاعر .

فهو إذا كتب عن الحب والعواطف يكاد يسرق قلبك من بين جنبيك ، وإذا كتب في البحث الأدبي تشعر أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا ملحــوظ في كتابه (النثر الفني في القرن الرابع) ، وكتاب (مدامع العــشاق) . وزكــي مبارك له عقلية فذّة في التحليل ، وربط أشتات المعرفة ، وله أسلوب المستــشرقين الألمان الذين عرفوا بدقة كتاباتهم مثل (يوهان فِك) ، و (شــاخت) . وأروع كتب زكي مبارك في نظري هو (التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق) ، فقد حلّل التصوفّ ونفسية الصوفي ، وكيف أن الصوفية رغم إعراضهم عن الفنون إلا أنهم هم سادة الفنون ! ، وتكلّم عن أثر الأضرحة الصوفية في الفن والدين ، وأنهــا

تفوق في أثرها التماثيل التي نصبها الإنسان الغربي لعظمائه وقادته ومفكريه .

يقول الدكتور زكي مبارك عن طبعه وأُسلوبه في الكتابة : فإني في كل ما أكتب وما أقول ، محاربٌ لا يرى الحياة إلا حومة القتال ، وليس الأدب عندي مزاحًا أتلهى به في الأسمار والأحاديث ، وإنما هو عراك في ميادين الفكر والعقل والخيال ا.هـ .

نعم هكذا هو زكي مبارك حينما يكتب ، فهو (دون كيشوت) في حلبة الأدب ، لكنه لا يحارب الطواحين ، إنما يحارب كبار الأدباء والمفكرين .

فيه من النرجسية ما يجعله يرى الورقة أمامه مرآة مصقولة ، يرى فيها وجهه الجميل ، والقلم في يده مشطًا عاجيًا يسرّح به شعره .

إنه رجل حالم يرى نفسه جميلاً - وهو كذلك - وما يكتبه رائعًا - وهو كذلك - وكثيرًا ما تحدّث عن كتابه (النثر الفني) وباها به أدباء عصره .

زكي مبارك لو لم يجد الشخص الذي يتيه عليه ، راح يتيه ويزهو على نفسه ، فهو كما يقول الشاعر :

أتيه على إنس البلاد وجنّها وإن لم أجد شخصًا أتيه على نفسي

وقد دخل في معارك كثيرة مع أدباء عصره ، لكن معركته مع الأستاذ أحمد أمين ، والدكتور طه حسين - حين فصله من الجامعة - هي أشهر معاركه ، وعرف عن زكي مبارك مجاهرته بهفواته وسقطاته ، وكان يسمع الناس يرمونه بالإلحاد والزندقة لكنه كان مكابرًا لا يلتفت إلى شيء من ذلك ، بل وصل به الكبر والازدراء لمناوئه أن جعل هذه العبارة توقيعًا لمقدمة كتابه (مدامع العشاق) : (الملحد الفاجر فيما يزعمون : زكي مبارك) . وكان مثل أبي نواس يقدّم الرجاء بالله تعالى على الخوف منه ، فيقول الدكتور زكي عن غربته : وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا برٌّ عند الفجّار ، وفاجرٌ عند الأبرار ، فإني في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب ا.هـ .

إن الدكتور زكي مبارك يذكّرني بذلك الأديب الذي ذكره الراغب الأصفهاني في (محاضرات الأدباء) ، حيث يقول : التقى رجلٌ بآخر فسأله : كيف أصبحت ؟ فردّ عليه الآخر : أصبحت آدب الناس وأشعرهم . فقال له الأول :لا تقل ذلك ، حتى يقوله الناس ، فقال : أنا منذ ثلاثين سنة أنتظر الناس يقولون ولا ويقولون ! .
وهكذا هو زكي مبارك فإنه لم يسمع أحدًا يقول عنه إلا أنه متغطرس وسليط لسان .
ولما لم ير أحدًا يصفّق له ، ظلّ يصفّق لنفسه ، فهو كـ (البحتري) حين يعجب من الناس عندما ينشد شعرًا ، لماذا لا يقولون : أحسنت ، فيقول هو لنفسه : أحسنت ! . وزكي مبارك تجرأ وكتب عن نفسه كتابًا سمّاه (زكي مبارك ناقدًا) ومن يقرأ نفسية العالم الكبير (جلال الدين السيوطي) يجدها قريبة من نفسية الدكتور زكي مبارك ، ولا غرو ، فكلاهما شرب من النيل ! .
وكنت أيضًا أرى أن شخصية أبي حيان التوحيدي تشبه إلى حدّ كبير شخصية الدكتور زكي مبارك ، فكلاهما عظيم همّشه أدباء عصره ، لكنني لما قرأت كتاب (النثر الفني في القرن الرابع) وجدت الدكتور زكي مبارك يصمه بالطمع والجشع .
كان الدكتور زكي مبارك يرى أن حرب الناس له ابتلاء ابتلاه الله به ، وهو راضٍ بهذا الابتلاء ، فهاهو يقول في إيمان عظيم ورقة متناهية في مقدمة كتابه : (التصوف الإسلامي) : « . . . هل كان من هواي أن تخلو حياتي من الهدوء والطمأنينة ، فلا أصبح ولا أمسي إلا في عراك وكفاح ؟
هل كان من هواي أن أنتهي إلى ما انتهيت إليه ، فلا يكون لي من نعيم الحياة إلا ما أصوّره بلقمي ، من حين إلى حين لأوهم نفسي أنّي أعايش الأحياء .
تباركت يا ربي وتعاليت ، فلولا لطفك وتوفيقك لما استطعت بفضل الجدّ أن ألقى أهل زماني بالاستطالة والكبرياء .

ومن هم أهل زماني ؟

هم الكسالى الظرفاء ، الذين حرمهم الله نعمة البلاء ، بإقذاء العيون ، تحت أضواء المصابيح [1] .

وبعد هذه التطوافة التي طوّفت بها حول أدب وشخصية زكي مبارك هل أستطيع أن أكتم حبي وإعجابي بهذه الشخصية التي ظلمت في حياتها وبعد موتها ؟ هل أستطيع نسيان تلك اللحظات الجميلة التي كنت أقرأ فيها سطور كتابه (العشاق الثلاثة) .

هل أقدر أن أتناسى تعبي وسفري من أجل البحث عن كتابيه (مدامع العشاق) و (ليلى المريضة في العراق) حتى أنني وجدت الكتاب الأخير في مكتبة - في مملكة البحرين - قديمة عندما كنت أبحث في كتبها الصفراء عن كتاب جورجي زيدان (تاريخ التمدن الإسلامي) ، وإذا بي أرى كتاب (ليلى المريضة . . .) أمامي فكان عندي كعودة يوسف إلى يعقوب (عليهما السلام) فقد ارتدَّ يعقوب أملي بصيرًا بعدما أعماه اليأس والقنوط ؟ هل باستطاعتي تناسي ذلك كله ؟

إن قراءة أدب زكي مبارك متعةٌ من متع الحياة ؛ لأن فيها جموح الشباب وعنفوانه ، وفيها حكمة الشيخ وبعد نظره ، وفيها نزوة المراهق وعشقه للنساء ؛ لأن فيها الكفاح من أجل إثبات الذات ، وإطالة القامة في زمنٍ لا يعترف إلا بالكبار أمثال : طه حسين والعقاد والحكيم وسلامة موسى والرافعي وحسب .

زكي مبارك علّمني كيف أكون إنسانًا وأديبًا يعرف حجم نفسه ؛ لأننا - للأسف - تربينا في مجتمعات لا تقدّر إلا من شاب شعره ، ورقّ عظمه ، وصار قاب قوسين من الموت ، حتى في الثقافة والكتابة لا يشفع لك إبداعك بأن تكون كبيرًا ، حتى يشيب شعرك !! .

هكذا هي الحياة التي قست على إبداع زكي مبارك كما قست على من قبله

---

(1) التصوف الإسلامي ، زكي مبارك ص (٩) .

وتقسوا على من بعده .



سلامة موسى . . ديناميت الفكر العربي
١٨٨٨ - ١٩٥٨م

لا يشدني في كتابات (سلامة موسى) دعوته إلى التغريب ولا دعوته إلى العلمانية ، ولا إعجابه الغريب بنظرية (داروين) التطوّر والارتقاء في بداياته الفكرية ، كل ذلك يعتبر في نظري مراهقة فكرية مرّ بها الفكر العربي برمّته ، و (سلامة موسى) أحد المفكرين العرب الذين تحمسوا لهذه الأفكار البدائية آنذاك .

و (سلامة موسى) اشتط كثيرًا في طروحاته حول الانبهار بالغرب وحضارته ، وكان ينظر شزرًا لكل ما هو شرقي وإسلامي على وجه الخصوص .

وكتابه (اليوم والغد) فيه الكثير من هذا الشطط ، لكن ما يعجبني في تجربة (سلامة موسى) هو الجوّ الثقافي الذي يصوّره - ويعيشه بلا شك - في كتاباته ، فيجعل المتلقي ينبهر بهذه الصور وهذه المكانة التي يجب أن تكون للمثقف .

سلامة موسى ينظر إلى المثقف على أنه مخلّص لهذه البشرية من عمايات الجهل والتخلّف .

والذي يعجبني في كتابات سلامة موسى حضه وحثه على الاستقلال ، فالمثقف شخص مستقل بآرائه ، وإن كان سلامة موسى لا يضع لهذه الاستقلال حدًا ، فإنني أرى أن استقلال المثقف لا يكون مطلقًا ، فالواقعية مطلوبة ؛ لأن المعرفة تغلب عليها النسبية .

استمع إليه وهو يقول عن أثر المؤلف على المتلقي : والمؤلف العظيم الذي يُعَلّمنا ، هو الذي يستنبط من المعارف موقفًا فلسفيًا جديدًا ، أو خطة واتجاهًا جديدين للفكر البشري ، والكاتب هو الذي يوجهنا أو يغيرنا ، وأحيانًا يتغير القارئ ؛ لأنه انساق في موجة جديدة قد أحدثها كاتب عظيم قد لا يعرفه هذا القارئ ولكن الموجة التي مسّت غيره قد انتهت إليه فأثرت فيه وأحدثت وقعًا جديدًا في نفسه

وعقله (١) .

وتأثير سلامة موسى في الأجيال الثقافية كان قويًا لا سيما إبّان المدّ الاشتراكي الذي حاول صبغ الثقافة العربية بالنظرة الماركسية .

وكانت كتاباته الفكرية والأدبية وجبة شهية للمثقفين في الخليج العربي أيام الستينات الميلادية من القرن المنصرم .

وكانت كتبه (التثقيف الذاتي) و (حرية الفكر) و (المرأة ليست لعبة الرجل) و (الاشتراكية) و (اليوم والغد) و (هؤلاء علموني) وغيرها ، متداولة بين المثقفين في الخليج العربي وخاصة في مملكة البحرين ، ولأن أسلوب سلامة موسى سهل ومباشر فقد استوعبته الأجيال – بمختلف شرائحها – ، وتفاعلت مع طروحاته ولم يخف على سلامة موسى أن أسلوبه سهل بسيط ؛ لأنه كان يقصد ذلك فهو يقول في كتابه : (هؤلاء علموني) ومع أني احترفت الأدب والعلم والثقافة ، فإن هذه جميعها هي عندي حياة وكفاح أكثر مما هي حرفة ، ولذلك أنا لا أبالي ما يقال عن أسلوب الكتابة ، ولكني أبالي بأسلوب الحياة ، ولا أعبأ ببلاغة العبارة ولكني أعنى بأن تكون الحياة بليغة بحيث نحيا متعمقين متوسعين ، ومع أني ألّفت نحو خمسة وثلاثين كتابًا فإن كتابي الأول الذي عنيت بتأليفه هو حياتي . . .) (٢) .

بهذه الكلمات البسيطة والصريحة استطاع سلامة موسى أن يتغلغل في قلوب الشباب من المثقفين ، وسلامة موسى مع أنه تجاوز الستين في وقته إلا أنه كان لا يزال متمسكًا بثورية الشباب ، وتطرفهم في الآراء ، لذا وجد صدى واسعًا عند قرّائه ، والعبارة عند سلامة موسى مشحونة بالتمرّد .

فهول مثل (نيتشه) حينما يكتب ، كأنّ حبر قلمه مستمدّ من البارود ! وقد قال

---

(١) هؤلاء علموني ص (١٨) .

(٢) المرجع السابق ص (١١) .

هو عن نيتشه « فقد كان هذا المؤلف رمزًا لحياتي الكفاحية » [1] .
ولذلك كان أثر سلامة موسى على أديب نوبل (نجيب محفوظ) واضحًا ، وقد ظل نجيب محفوظ معجبًا به حتى فارق الحياة ، وقد رمز إليه في (الثلاثية) باسم (عدلي كريم) .
وسلامة موسى كان ينظر إلى الأدب نظرة اللا مبالاة ، في حين كان يرى العلم هو السيد وهو الأجدر بالاهتمام ، وعندما كتب مقالاً بعنوان : (رجل العلم ورجل الأدب) وقصد برجل العلم (دافنشي) ورجل الأدب (ارازموس) قال في نهاية المطاف : هذان طرازان بارزان لرجال النهضة : أحدهما : رجل الأدب والكتب والتاريخ والسمر والقصص والوعظ والنظر إلى الماضي ، والآخر رجل العلم الذي لا يقرأ إلا قليلاً ، ولا ينظر إلاّ إلى المستقبل ، وهو دائب في الاختراع .
والعالم بالطبع في حاجة إلى الاثنين ، وإن كان أبناء المستقبل سيبالون رجل العلم أكثر جدًا مما يبالون رجل الأدب [2] .
وهذه النظرة أخذها وآمن بها نجيب محفوظ ، فهو يقدِّر العلم ويؤمن به إيمانًا لا يخالجه شك .
ولعل كتاب سلامة موسى (برناردشو) من أفضل كتبه التي قرأها له ، فقد أعطى القارئ العربي فكرة واسعة عن الرجل وعالمه ، وأحصى بعض عباراته الخالدة ، ولأن برناردشو متأثر بالاشتراكية حرص سلامة موسى على إبرازه كمثال أعلى للمثقفين العرب ، ولأن سلامة موسى كان يظهر نفسه دائمًا بوصفه مأزومًا من الوضع الراهن الذي عليه العرب في وقته ، من تأخر وتدنٍ ، في حين يستطيل الغرب في حضارته وتطوره التقني والعسكري .
وكان ينظر إلى طروحات أُدباء عصره نظرة شزر ؛ لأنها لا تحاكي الواقع المخترق

(١) التثقيف الذاتي ص (٢٣٧) .

(٢) ما هي النهضة ص (٤٩) .

بمشكلاته ومآسيه .

فهاهو يغمز العقاد وتوفيق الحكيم فيقول :

إن إسرائيل تصنع الهيدروجين النظير الذي يعدّ أساسًا للقنبلة الهيدروجينية أو جزءًا فيها .

فهل نجمد بعد هذا أو نرفض التطور ونؤلف عن أبي نواس ؟ أو هل يرضينا أن نؤلف عن الأساطير القديمة مثل أهل الكهف ونسمي هذا التأليف فنًا راقيًا ؟ (١) .

ولك بعد ذلك أن تتخيل ما يحدثه هذا العاصف من القول في نفوس الشبيبة المتحمسة آنذاك .

شبيبة الشعارات والأحلام الوردية ؟

رغم ذلك لم ينس (سلامة موسى) ولع الشباب بالحب والغرام ، فألف كتابًا رائعًا هو (الحبّ في التاريخ) قال في ختام مقدمته : ولكن الحب هو السعادة ، أو هو أقرب شيء إلى السعادة ، وفيه تتبلور أخلاقنا ، وتبدو في جوهرها الأصيل ، وهو – أي الحب – يُربينا ويستنبط منا أسمى ما في أخلاقنا ، ولذلك حين نروي قصة عن الحب إنما نروي أيضًا أحسن ما في الطبيعة البشرية من خلال تحملنا جميعًا على الإعجاب وعلى الإحساس بالسعادة (٢) .

وتحدث في هذا الكتاب عن : لماذا يتشابه المحبّان ؟ ورأي العرب في الحب ، ورأي الإفرنج في الحب .

ثم كتب عن عشّاق العرب والغرب ، وختم كتابه بـ (قصة كارل ماركس) مع عشيقته التي تزوجها بعد ذلك (برتا) .

ولعل أبرز الكتب التي تناقلها الشبّان المثقفين في دول الخليج بسلامة موسى هو كتاب (التثقيف الذاتي) ؛ لأن هذا الكتاب يستفيد منه المثقف بغض النظر عن

---

(١) سلامة موسى (برناردشو) ص (٧) .

(٢) الحب في التاريخ ص (٧ – ٨) .

انتمائه الفكري .

وإن كان سلامة موسى في الكتاب قد وجّه الناشئة إلى الاشتراكية والتغريب وقلّل من شأن التراث وكتب التراث ، فهو مثلاً يقول عن كتاب (رأس المال) لكارل ماركس ولا أذكر كتاب (رأس المال) لكارل ماركس (يقصد أنه لا يعده من الكتب البذرية) فإنه الخميرة التي تحرّك المجتمعات الأوروبية في دفق التطور أو عنف الحروب .

ولما نصل إلى نهاية الاختمار ، ولكن ثق أيها القارئ أن الرجل الذي يجهل هذا الكتاب هو رجل غير متعلم ، أي أنه يجهل حتى فهم الجريدة اليومية التي تروي له الأخبار [1] .

وسلامة موسى دخل في معارك كثيرة مع أُدباء عصره ، وكان يراهم أدباء سلطة وملوكية ، أما هو فهو مفكر الشعب والعامة ، وقد دخل مع العقاد في معارك كثيرة ، وكان سلامة هو البادئ دائمًا ، وقد ردّ عليه العقاد في كل هذه المعارك ، وربما أوجعه ، فكان سلامة موسى يتألم من ردّ العقاد .

فالعقاد معروف بتهكمه وسخريته ، لكن بعد وفاة سلامة موسى (١٩٥٨م) كتب العقاد مقالاً في تأبين سلامة موسى قال فيه : « . . . كانت له – أي سلامة موسى – رسالة أداها في نشر الثقافة العلمية وتبسيطها ، وكان رائدًا متقدمًا في أداء هذه الرسالة ؛ لأنه كان يتجه إلى حرية الفكر يوم كانت حرية التفكير جرأة ، لا يقدر عليها كثيرون ، وكان مع اتجاهه إلى الحرية الفكرية موهوبًا في صياغة أفكاره ، وابتداع مصطلحاته ، فقلما استعار مصطلحًا من السابقين له في تبسيط العلم ونشره ، إلا أن يكون ذلك المصطلح قد عمّ وشاع ، وأصبح في عداد (الملكيات العامة) [2] .

---

(١) التثقيف الذاتي ص (٢٣٤) .

(٢) معارك العقاد الأدبية ، عامر العقاد ص (١٠٦) .

ولعل وصف العقاد لسلامة موسى بأنه كان (موهوبًا في صياغة أفكاره ، وابتداع مصطلحاته) هو السر في تأثير كتابات سلامة موسى ، والسر الآخر هو أنه مهووس ومفتون بذكر الكيفية التي تثقّف بها وذكر الكُتّاب والكتب التي تأثر بها ، وهذا له أثر عظيم على قارئ - بل قرّاء - (سلامة موسى) ، فقد ألّف كتابًا سماه (مختارات سلامة موسى) ، وكتابًا آخر سماه (تربية سلامة موسى) ، وكتابه الشهير (هؤلاء علّموني) ، وفي كتابه (التثقيف الذاتي) كتب عن (بذور ثقافتي) وقال في هذا المقال (وكثير ممن يعرفونني يعجبون لسعة ثقافتي ولهم الحق في هذا . . . » .

ومتى ما تنازل الكاتب عن أبراجه العاجية ، وخاطب قرّاءه بكل تلقائية ، أثمرت أفكاره ، وراجت كتبه ، وهذا ما حدث مع سلامة موسى في وقته ، رغم بعض أفكاره الهدامة التي روّج لها آنذاك .

لكن الحق ورجاله لا يغمطون الناس حقوقهم ، فالضابط الإيطالي أعطى التحية لعمر المختار وهو مدلى في حبل المشنقة الإيطالية .

وفي الختام أقول : إن كتب (سلامة موسى) سوف تظل كتبًا مقروءة لعشرات السنين - إن لم يكن أكثر - أتدرون لماذا ؟ لأن سلامة موسى اهتم في كتاباته بالإنسان حتى كاد أن يجعله إلهًا يُعْبد ! فهو مثل نيتشه حين قال بموت الإله ، وحياة السوبرمان أو الإنسان المتفوق . والعالم اليوم يتجه إلى المادية وسحق الإنسان ، وسيأتيه يوم يفكر في الإنسان بجدّ ، لذا سيحتاج إلى كتابات (سلامة موسى) ! .

يقول سلامة موسى عن اهتمامه بالإنسان في مقدمة كتابه (كتاب الثورات) : وهو أيضًا مذهبي الذي عشت به في السرّ أحيانًا ، وفي العلن أحيانًا ، وهو الإيمان بالإنسان ، هذا الإنسان الذي يخترع الخرافات ، ويقيم العرش ، ويقيّد بها نفسه ، ثم يفيق فإذا به يحمل المعاول ويحطمها ، ويعرف عندئذٍ أنه ليس في هذه الدنيا ما

هو أغلى من الحياة سوى الحياة الحرّة » [1] .

هكذا هو سلامة موسى ، وهكذا أسلوبه السهل الممتنع ، والذي جعل شيخًا أزهريًا مثل محمود الشرقاوي يتأثر به فينزع العمامة ، ويلبس الطربوش ، ثمّ يؤلف كتابًا عن سلامة موسى يبدي إعجابه به ، هذا الكتاب هو (سلامة موسى المفكر والإنسان) .



(١) كتاب الثورات ص (٨) .

عبد الرحمن بدوي (دون كيخوته) الفلسفة العربية
١٩١٧ ـ ٢٠٠٢م

عندما اطلعت على كتب عبد الرحمن بدوي لأول مرّة ، عجبتُ - كغيري وهم كثيرون - من هذا العقل الجبّار ، والعزيمة التي لا تعرف التعب .
عجبت لهذا الفيلسوف الذي تنوّعت معارفه ، وصار فيها قطبًا ، له مريدوه في كل بلد من البلدان العربية ، عناوين كتبه تثقيف ومعرفة فضلاً عن قراءتها والمطالعة فيها ، أخلصَ للمعرفة كما أخلص قيس لـ (ليلى العامرية) ، كان يمسي ويصبح ولا همّ له إلا الكتب والمخطوطات ، ومناقشة المستشرقين والكتابة عنهم ، وقد عشق الفلسفة وجعل طلاّبه وقرّاءه يعشقونها أيضًا ، حتى إنها استحوذت عليه ، فصارت هي حياته لا غير .
يقول عنه تلميذه الرائع (أنيس منصور) :
ولكن الفلسفة قد كانت جنايتها واضحة عليه أكثر مما على تلامذته . . فالبحث المستمر ، والانصراف للقراءة والكتابة والحياة في المكتبات العامة ، أدى إلى العزلة ونفوره من الناس كل أنواع الناس ، فهو ليس اجتماعيًّا ولا يريد ، ولذلك فمفردات العلاقات الاجتماعية عنده نادرة أو لا وجود لها [1] .
وللأسف فقد فجع الكثيرون بكتاب عبد الرحمن بدوي (سيرة حياتي) فما كانوا يتصورون أن يكون الكتاب بهذا الشكل وهذا المستوى من النرجسية ، وفتح النادر على أعلام عصره ، حتى غدا الكتاب عبارة عن اتهامات لا مذكرات ، وعبد الرحمن بدوي علمنا حبَّ العمق والتحليل ، لقد كان كتابه أشبه ما يكون بأدب رحلات ساذج ومقالات سياسية نارية .
أكثر منه سيرة ذاتية لفيلسوف يعتبر (أقيانوس) فلسفة لكثير من فلاسفة الثقافة العربية ، وقد شهد له عميد الأدب العربي (طه حسين) أنه أول فيلسوف

---

(١) أنيس منصور (كائنات فوق) ص (٤٣) .

مصري ، وكنت أتساءل وأنا أقرأ الكتاب بجزأيه : هل هذا حقًا عبد الرحمن بدوي ، صاحب كتاب (الزمان الوجودي) ، وكتاب (شخصيات قلقة في الإسلام) ، وكتاب (مذاهب الإسلاميين) ، وكتاب (موسوعة المستشرقين) ، و (موسوعة الفلسفة) ، و (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ، و (أفلوطين عند العرب) وغيرها من الكتب ؟ .

وعندما قرأت الكتاب تأكّد عندي أن عبد الرحمن بدوي فيلسوف منطق أكثر منه فيلسوف حياة أو رؤية !! .

نعم ، هكذا أراه ، أو هكذا رأيته ، فهو يميل إلى الفلسفة العلمية أكثر من الفلسفة التأملية (وكان الأولى أن تكون الكتابة عن السيرة الذاتية رؤية للحياة التي عاشها حتى بلغ سن الثمانين) ، فأغلب مؤلفاته تتقوقع حول الترجمات والتحقيقات للمخطوطات الكثيرة ، لذا تكثر حواشي كتبه أو أغلب كتبه .

يقول حسن حنفي عن مشروع بدوي العلمي : « كان الهدف من النشر العلمي للترجمات العربية القديمة للتراث اليوناني والروماني والفارسي هدفًا علميًا خالصًا كما هو الحال عند المستشرقين . . . » [1] .

والذي يقرأ كتاب (بدوي) سيرة حياتي ، يلاحظ أن المؤلف رغم تجاوزه السبعين إلا أن حنكة الشيوخ ، ونضج الفلاسفة غائبان تمامًا عن سطور كتابه ، فهو لا يزال مراهقًا في نظرته للحياة ، حيث طغيان النرجسية ، وإنكار جهود الآخرين ، وما أضافوه للحقل المعرفي والفلسفي على وجه الخصوص ، وإن كنت لا أُثرّب على صاحب النرجسية الذي يتلمس فيها وجودية الفرد بوصفه إنسانًا .

وقد كتب حسن حنفي عن تجاهل (بدوي) لأقرانه الذين ساهموا معه في المشروع النهضوي العربي فقال : لم يشر ابن الثمانين ربيعًا إلى أحد من أقرانه الذين ساهموا معه في نفس المشروع النهضوي الجماعي مثل : إبراهيم بيومي مدكور في محاولته

---

(١) دراسات عربية حول عبد الرحمن بدوي ، حسن حنفي (الفيلسوف الشامل) ص (٣٩) .

إعادة دراسة الفلسفة الإسلامية ، وعثمان أمين في محاولته تحديد بؤرة للإصلاح سمّاها (الجوّانية) في التصوف . . . » [1] .

وكان (بدوي) يرى أغلب الناس حقودين عليه ، فقد ذكر في كتابه (سيرة حياتي) أن أحمد أمين كان « . . . رجلاً حقودًا ضيّق الأفق تأكل قلبه الغيرة من كل متفوّق ، ومن كل متقن للغات أجنبية ؛ لأنه كان لا يعرف لغة أجنبية فيما عدا قشورًا تافهة من أوليات اللغة الإنجليزية » [2] .

أما) عبد الوهاب عزام) فيقول (بدوي) عنه : وكما هو متوقع أوغر هذا النجاح العظيم (أصداء محاضراته في لبنان) صدور الحاقدين في كلية الآداب وعلى رأسهم عميد الكلية عبد الوهاب عزام . . . [3] .

أما فيلسوف الوجودية سارتر فقال عنه : « ومنذ قراءتي له لم أشعر نحو سارتر بأي تقدير من الناحية الفلسفية ، وعددته مجرد أديب ، وباحث نفساني يستند إلى منهج الظاهريات .

ولم أعتبره أبدًا فيلسوفًا وجوديًا ، قد أسهم بأي إسهام في تكوين المذهب الوجودي [4] . وقول (بدوي) أن (سارتر) لم يسهم بأي إسهام في تكوين المذهب الوجودي لا شك أنه كلام مبالغ فيه ، ولم يتوقف صاحب الاتهام على هؤلاء الثلاثة بل قال عن الإنسان المصري : والمصري بطبعه لا يتمعن من أي شيء يقرأه أو يسمعه ، بل يصدق أي شيء ما دام الأمر لا يتعلّق بمصلحته الشخصية ، والعجيب في أمره أنه إذا وقر في ذهنه أي شيء ، حتى أكذب الأكاذيب ، فإنه لا يتخلّى عنه بعد ذلك مهما أتيت إليه على عكسه بألف دليل

---

(١) دراسات عربية حول عبد الرحمن بدوي ، حسن حنفي (الفيلسوف الشامل) ص (١٧) .

(٢) سيرة حياتي (١٥٣/١) .

(٣) المصدر السابق (١٥٨/١) .

(٤) المرجع السابق (١٨٤/١) .

ودليل [1] .

هكذا نظر (عبد الرحمن بدوي) إلى الإنسان المصري الذي ينتمي إليه هو .

فهل كان (بدوي) متعسّفًا في أدائه ، متطرّفًا في أحكامه ، أم أن جزءًا من الحقيقة كان يراه عين الحقيقة ؟

عبد الرحمن بدوي كان لا يرى وجودًا في الوجود ، إلا وجوده ، فهو الجوهر وغيره أعراض .

هاهو يقول عن نفسه حينما ترجم عنها في كتابه موسوعة الفلسفة : « . . . وقد أسهم في تكوين الوجودية بكتابه (الزمان الوجودي) الذي ألّفه في سنة ١٩٤٣م » [2] .

إلى أن قال عن نفسه : « وقد أحاط علمًا بكل تاريخ الفلسفة وتعمّق في مذاهب الفلاسفة المختلفين والألمان منهم خاصة ، لكن أقوى تأثير في تطوّره الفلسفي إنما يرجع إلى اثنين هما هيدجر ونيتشه » [3] .

فهل يعقل أن يقول فيلسوف - يؤمن بالنسبية - عن نفسه « وقد أحاط علمًا بكل تاريخ الفلسفة » .

هل هذا التعميم والوثوقية نابعة من تعقّل أم من (دون كيخوتية) مريضة ؟ [لا سيما أنه مترجم رائعة ثربانتس دون كيخوته !] .

وهل (سارتر) هو الذي لم (يسهم بأي إسهام في تكوين المذهب الوجودي) .

أما عبد الرحمن بدوي فقد « أسهم بكتابه الزمان الوجودي في تكوين المذهب الوجودي) .

لا شك أن (بدوي) كان حالمًا أكثر منه ، عالمًا حين قال ما قال .

---

(١) سيرة حياتي (١٨٤/١) .

(٢) موسوعة الفلسفة (٢٩٥/١) .

(٣) المصدر السابق (٢٩٥/١) .

أخيرًا يقول حسن حنفي عن عبد الرحمن بدوي : وقف الطود الشامخ بمفرده مثل دون كيخوته يحارب وحده ، ورافضًا فروسية الآخرين ، لذلك كان من ترجماتــه واختياراته ضمن الروائع المائة ، وتوحّد مع أبطاله الأسطوريين ، فالواقع أسطورة ، والأسطورة واقع ، ملائكةً كانوا أو شياطين ، ولا يحيل إلى أحد من أقرانه الــذين درسوا قبله أو معه الفكر الأوروبي في ينابيعه ، أو في مساره ، إلى أن قال حنفــي عن كبرياء وزهو الدكتور (بدوي) : فهو وحيد عصره ، لم يكتب أحدٌ قبله ولا معه ، وربما لن يكتب أحــدٌ بعــده ، لا فيلــسوف في الغــرب ولا باحــث في الشرق [1] .

والدكتور (حنفي) يقول هذا الكلام من منطلق تعجبــه مــن شخــصية هــذا الفيلسوف الشامل الذي يعيش عالم النرجسية .

لكن هل يستطيع شخصٌ ما ، أن يتجاهل عبد الرحمن بدوي ، كما تجاهل بدوي غيره ؟ .

أعتقد لا أحد يستطيع ذلك ، فعبد الرحمن بدوي رجلٌ صادق في حماسه وزهــوه وغروره ، وله التاريخ الحافل ، والأعمال الجبارة التي تشفع له ذلك الزهو وذلــك الغرور .

فإن كان بدوي (دون كيخوته) فالحياة لا تحفل إلا بهؤلاء الأصناف .

أما أصناف (سانشيز) فهم يسكنون في غياهب التاريخ ، وذيل الحياة .



(١) دراسات عن عبد الرحمن بدوي ورقة الدكتور حسن حنفي (الفيلسوف الشامل) ص (١٨) .

توفيق الحكيم . . . ومأساوية الحياة
١٨٩٩ - ١٩٨٧م

كثيرون هم الفلاسفة الذين عبّروا عن الحياة بعبارة خالدة ظلت تتناقلها الأجيال .

وكثيرون هم الأُدباء والمفكرون الذين نظروا إلى الحياة نظرة أخيرة ، فكانت هي خلاصتهم في الحكم عليها .

فـ (مايكوفسكي) قال عن الحياة بأنها علامة تعجّب تنتهي برصاصة ! .

والعجيب أنه مات منتحرًا بطلقة رصاص ! .

والشاعر التهامي قال عن الحياة :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوًا من الأقذاء والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

والشاعر الفرنسي (أراغون) يقول : حينما يفتح الإنسان ذراعيه للحياة ترسم خلفه علامة صليب ! .

وكلٌ ينظر إلى الحياة من وجهة نظره هو ، ونحن مع الحياة كما كانت (إلكتر) مع أُمها (كليمنسترا) عندما قالت لها أُمها : إنك مخلوقة وقحة ، إن مكاني منك وحديثي إليك وسيرتي معك كل ذلك يغريك بالإسراف في القول . فردّت عليها ابنتها : إنما أنت التي تتحدث بفمي لا أنا ، أنتِ تعملين ، وأعمالك تنطقني بما أقول [١] . وهكذا كل شخص عاش ويعيش الحياة .

والأديب المصري توفيق الحكيم له رؤية ثاقبة للحياة ، لم أرها عند غيره من أدباء العرب .

فهو شخص حسّاس ، وإذا وصف شيئًا يكاد لا يترك لواصف بعده مزيدًا ! .

---

(١) طه حسين ، الأدب التمثيلي ص (٢٦) .

و (الحكيم) من الأدباء الذين عمّروا طويلاً ، فعاصـر مستغيرات الحياة على المستويين المحلي والعالمي ، ولأنه كان يرى طبع الإنسان سجنًا له ، قال في مقدمة كتابه (حياتي) أو (سجن العمر) : « أملي أكبر من جهدي ، وجهدي أكبر من موهبتي . . . وموهبتي سجينة طبعي . . . ولكني أقاوم . . . » .

وقال أيضًا عن كتابه الآنف الذكر : « وهذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة . . . إنها تعليل وتفسير لحياة . . . [1] .

وساعة الميلاد هي من أفظع وأروع لحظات الإنسان ، لكنه – للأسف – يعيشها فاقدًا الوعي .

يقول عنها الحكيم بكل حكمة وفلسفة : ولست أعرف شيئًا بالطبع عن اللحظة التي ولدت فيها . . . وهذا من سوء حظي ؛ بل من سوء حظ البشر جميعًا أن نولد في غيبوبة تامة من عقولنا . . . فكل عضو من أعضائنا يتحدث حين نولد ، إلا ذلك الجزء منّا الذي ندرك به الحياة التي هبطنا إليها . . . ترى ماذا كان يحدث لو أننا واجهنا الحياة بعقول مدركة منذ اللحظة الأولى ؟ . . كان يحدث العجب . . كنا نفقد عقولنا للفور من هول الأعجوبة ، أعجوبة الحياة في انكشافها المفاجئ أمام القادم من عالم الظلام والعدم ! .

ولكن الحياة تتكشّف لنا على مهل سترًا بعد ستر ، وحجابًا بعد حجاب ، وتتمزّق من حولنا الأغلفة ، غلافًا بعد غلاف . . .

فنعتاد الحياة ، ونغفل عن الأعجوبة فيها . . . [2] .

في هذه السطور تتبدّى صدمة الميلاد بفلسفتها عند توفيق الحكيم . وساعة الميلاد عظيمة وإن كان المولود غير عظيم ! كذلك هي ساعة الوفاة . هاتان الساعتان هما أعظم لحظات المرء ، لحظة ميلاده حين يكون عددًا في عالم الأحياء ، ولحظة موته

---

(١) توفيق الحكيم ، حياتي ص (٥) .

(٢) حياتي ص (٨) .

حين يكون عددًا في عالم الأموات ! ويا لها من لحظتين ما أمرّهما وما أعظمهما !.

جاء في حكمة (الإغريق) أن من الأفضل للإنسان أن لا يولد في هذه الحياة ، وإن ولد فالأفضل له أن يموت صبيًّا ! .

وكان عمر بن الخطاب يقول : « **ليت أمي لم تلدني** » . ولا يدرك خطورة الميلاد إلا شخصٌ حكيم .

لذا حنّ العقلاء إلى زمن الصِّبا ؛ لما له من بريق ، ولما فيه من أمن وسرور .

يقول الشاعر العربي عن روعة أيام الصبا :

أيـــام أعطيـــتُ الجهالـــة مقـــودي   تمـــرّ الليـــالي والـــسنون ولا أدري

ويقول قيس بن الملوّح في مرارة العاشق :

صغيرين نرعى البهم يا ليــت أننــا   إلى اليوم لم نكبر ولم تكــبر البـــهم

وهل شقي الإنسان إلا يوم أن درى ، وصار يميّز بين الأيام والليالي والسنين ؟

ولأننا نكون فاقدي الوعي في ساعة الميلاد وساعة الموت ، لذا ينسج الناس حولنـــا الأساطير والحكايات الغريبة .

يقول توفيق الحكيم عن هاتين الساعتين : ساعتان يلعب فيهما خيال الآخـــرين ؛ لأنهما ليستا في حوزتنا [1] .

وبالفعل ، فقد قيل عن ساعة ميلاد الحجاج بن يوسف الثقفـــي إنـــه لم يـــشرب الحليب – حليب أمه – فلما قدّم له الدم شربه ! .

وبهذا يكون الحجاج (دراكولا) الزمن الغابر ! .

وقيل عن (بيكاسو) إنه سقط من بطن أُمّه و لم يصرخ ، فجاء خالـــه ونفـــث في وجهه دخان السيجارة فصاح باكيًا . كذلك (يوهان غوتيه) لم يبـــك ســـاعة ولادته ، وحيكت عن كثير من الذين ماتوا ، قصصًا وحكايات تنبئ عن صلاحهم

---

(١) حياتي ص (٩ – ١٠) .

وتقواهم ، علمًا أن بعضهم لم يكن صالحًا أثناء الحياة !! .

لكن ؛ لأن لحظة الميلاد والموت مقدّستان ، قيل عنهما ما قيل ، ويكفي أنهما من لحظات ضعف الإنسان ! ، وكم هو مؤلم أن يُرى الإنسان ضعيفًا ، علمًا أنه خلق كذلك ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة النساء] .

لكن لأنه سيّد الحياة وعامرها ، صَعُب على الحياة بأسرها أن تراه في حالة ضعف !! .

وتوفيق الحكيم تتبدى حكمه الكثيرة في رائعته (أهل الكهف) ، فهي فلسفة في فكرها ، فلسفة في حوارها ، فلسفة في نهايتها .

وإليك هذا الحوار الذي دار بين (مشلينيا) و (بريسكا) الحفيدة التي كان مشلينا يعشق جدها ، هاهي تدعوه كي يأخذها في أحضانه كما كان يحتضن جدها قبل ثلاثمائة سنة ! .

بريسكا : (تشير إلى جسدها) نعم . . . هذا الجسد! انظر يا حبيب جدتي . . . ألا تعرف كم عمره ؟ عشرون ربيعًا فقط .

مشلينيا : (يخفي وجهه براحتيه) يا لفظاعة ما تقولين .

بريسكا : أرأيت ؟! ما دمنا في عالم القلب فلن نرى إلا نورًا . . . ذلك هو النور الذي تحكى عنه . . .

مشلينيا : نعم . . . نعم . . .

بريسكا : وكان ينبغي أن تذكر الجسد المادي لننزل إلى عالم العقل فنرى الفظاعة والهول والشقاء الآدمي الذي ينتظرنا . . .

مشلينيا : نعم . . . نعم . . . الوداع ! يا . . . يا . . . لست أجسر ! الآن أرى مصيبتي وأحسّ عظم ما نزل بي . لا مرنوش ولا يمليخا رُزئا بمثل هذا . . . إن بيني وبينك خطوة . . . بيني وبينك شبه ليلة . . . فإذا الخطوة بحار لا نهاية لها ، وإذا الليلة أجيال . . . أجيال . . . وأمدّ يدي إليك وأنا أراك حية جميلة أمامي .

فيحول بيننا كائن هائل جبّار هو التاريخ ! .

نعم ، صدق مرنوش . . . لقد فات زماننا ونحن الآن ملك التاريخ . . . ولقد أردنا العودة إلى الزمن ولكن التاريخ ينتقم . . . الوداع ! [1] .

هذا الحوار التراجيدي الرائع يستبطن في جُوَّانيته رموزًا ولا شك ، لكن كم هو مؤثر وأخّاذ ؟ كم هو يعكس جدلية ما زالت حاضرة ، جدلية الأصالة والمعاصرة . لكن هكذا هو توفيق الحكيم ، فيلسوفٌ هادئ ، لا يحب الضجيج والصخب .

وفي لحظات الموت يُفجع توفيق الحكيم من شبح النهاية ، فالتفلسف شيء ، ومعايشة الموت شيء آخر ، ربما ما كان يظن (توفيق الحكيم) أن الدنيا بهذه البساطة ، وربما لم يكن يصدّق أن الحياة التي استقبلته ذات يوم بالأحضان – في ساعة الميلاد – تركته الآن ليخرج من عالمها وأهلها ! .

ولعل الأستاذ (أنيس منصور) كان أمينًا في نقل أحداث اللحظات الأخيرة لتوفيق الحكيم عندما زاره في المستشفى فتوفيق الحكيم يصرّح بصغر عقله أمام هذا الكون الهائل « . . . إنني سوف أدخل الجنة . . . فالله أعطاني عقلاً صغيرًا ، وعمرًا قصيرًا وكونًا هائلاً ، فكيف أفهم كل هذا الكون بهذا العقل الصغير والعمر القصير . . لا بد أن أغلط . . . والغلط سببه عجزي عن الفهم . . . وأعتقد أن هذا سبب كاف لأن أدخل الجنة » [2] .

وقبل ذلك كان الحكيم يقول في كتابه التعادلية في الإسلام : « ولا يخطئ العقل إلا إذا وصل إلى الطغيان وظن أنه يعرف قدر الله بعقله وحسب أن في إمكانه أن يسبر غور المحيط بأصبعه » [3] .

إذا كان العقل – وما يزال – وظيفة للعيش في الحياة وليس في فهمها وإدراكها ،

---

(١) أهل الكهف ص (٨٩ – ٩٠) .

(٢) أنيس منصور ، زي الفل ص (١٠٣) .

(٣) التعادلية في الإسلام ص (١٥٧) .

يقول علي الوردي : « إن وظيفة العقل كوظيفة الخرطوم بالنسبة للفيل ، لا تتعدى هذا القدر » .

ويخبرنا أنيس منصور أن توفيق الحكيم أعطاه نسخة من الجزء الثالث لمسرحية (جيته) وقال له : هذا كتاب نادر أنت وحدك الذي تستطيع أن تدرك قيمته .

وقال أنيس منصور عن هذا الجزء : « ومن الصعب نشر الجزء الثالث لما فيه من إلحاد صارخ » (1) .

وهكذا هي مأساة الفلاسفة والكتاب من المفكرين فإنهم يُعملون العقل الصغير في فهم الكون الكبير ، فتكون النتيجة الإلحاد أو قريبًا منه .

والأساطير اليونانية حذّرت كثيرًا من مغبّة فهم الكون بهذا العقل الصغير ، وأعطت نهايات مأساوية لكل شخص حاول العبقرية ، فهذا (سيزيف) وصخرته ، وهذا (بروميثيوس) ونسره الذي يأكل من كبده ، وهذا (أوديب) الذكي الذي حلّ لغز (سفنكس) وكيف كانت نهايته ؟ وقل مثل ذلك عن كثيرين حاولوا فهم الكون والحياة ، فكان الضياع والتيه هما النهاية المحتّمة .

وعن العقل يقول (غوتيه) [أو (جيته) كما سمّاه أنيس منصور] مخاطبًا الله جل وعلا :

« إن حاله (يقصد الإنسان) قد تَحْسُن ،
وعيشه قد يطيب ، لولا
أنك منحته ذلك الشعاع
من النور السَّماوي الذي سمّاه
العقل » (2) .

---

(1) أنيس منصور ، زي الفل ص (١٠١) .

(2) غوته ، فاوست ص (٣) نقلاً عن كتاب في الأدب الفلسفي للدكتور محمد شفيق شيّا ص (١٧٨) .

وهكذا هم أغلب الفلاسفة ، يفخرون بالعقل ، ويُعْلُون من شأنه في البداية ، فإذا تبيّن لهم عجزه وعجزهم عن فهم هذا الكون الفسيح ، والحياة الأُعجوبة كفروا به ولعنوه ! ورأوه صنمًا أضاعوا حياتهم في الركوع والسجود له ! كما فعل (الحكيم) وغير الحكيم .

ويطيب لي أن أختم بهذه الأبيات التي قلتها في حالة توهان فلسفي :

منذ اصطليتُ من التفكير بالشُّعل ... ما زال فكري مشغولاً بلا شُغُل

ما زال في شكّه طيرًا ، تحاصره ... قضبان فلسفة الميلاد والأجل

ما زال شكيَ في عقلي مغامرةً ... و (سندباد) يقيني ، باء بالفشل

أبني اليقين على شطآن ذاكرتي ... فيغرق الشكّ ما أبنيه بالوشل

حتى وجودي الذي أحيا حقيقته ... غدا مجازًا من الكلمات والجُمَل

أطوى الزمان ، وعقلي رهن أسئلة ... كالسوس ، تنخر في عقلي على مهل

كل الإجابات خجلى في خنادقها ... تدرَّعت – ويحها – بالصمت والوجل

بقيت أعزل في أهوال معركة ... يقودها الشك ، يعلو صهوة الجدل

لو كان (سيزيف) يدري عن نهايته ... ما أسرج العقل بالتفكير والحيل

حتى (بروميثيوس) في (قوقاز) محنته ... تنصّلت نفسه من همّة البطل



نجيب محفوظ . . . الترميم لأجل التحطيم !

العَالَم الروائي لنجيب محفوظ ، يبدو عالمًا بسيطًا في شكله وأبعاده ، فهو يغري المتلقي بالاقتراب منه ، وقضاء المتعة على شواطئ حروفه وكلماته ، والاستئناس بحاراته وأزقته ، وأصوات الباعة ، ومناظر أصحاب العاهات ، وما يجري في المقهى من لعب الورق ، وتدخين النرجيلة ، وصوت المعلم والقهوجي ، وما ينسجه نجيب محفوظ من عوالم رومانسية توشّيها عبارات العشق والغرام ، ومغامرة الفتيات في التمرد على العادات والتقاليد ، وغير ذلك ، لكن هذا العالم على بساطته وسطحيته الظاهرة ، يحمل في جّوانيته عوالم تضطرم ، وأبعادًا تتعب العقل والفكر ، وتمردات تُحيّر عقل الناسك ، وأسئلةً تطرح نفسها بقوة ، وتدق باب العقل بشدة تطلب الأجوبة المختبئة خلف الجدران ، فعالم (نجيب محفوظ الروائي) كالصوفي الذي يلبس البسيط من الثياب ، وبداخله عوالم ميتافيزيقية تحار عندها الألباب .

و (نجيب محفوظ) درس الفلسفة ، وكتب المقالات الفلسفية في بداية مشواره الثقافي ، لكنه رأى المقالات لا تفي بالغرض المطلوب ، فلجأ إلى صبِّ الأسئلة الفلسفية في قالب الرواية ، كي يقترب من المتلقي العربي ؛ لأن عنده حساسية مفرطة تجاه الفلسفة وأصحابها فـ (نجيب محفوظ) هرَّب هذه (المنبِّهات) لا (المخدِّرات) ، من موظف الجمارك في الذهنية العربية ، وقد نجح .

ولعل أبرز مسألة فلسفية ركز عليها (نجيب محفوظ) هي مسألة (القدر) ، فإنها هي المحور الرئيس الذي تدور عليه أغلب رواياته ، فالإنسان يحاول تغيير قدره ، لكن القدر يغلبه في النهاية ويحطمه .

والمتتبع لكثير من روايات (محفوظ) يجده يعمد إلى الإنسان المحطم فيرممه ترميمًا جيدًا ثم يدخله جنة السعادة ، لكن ما إن يفرح هذا الإنسان بهذه النقلة في حياته حتى يأتيه ما يحطه تحطيمًا أشد وأنكى من التحطيم السابق ، ولو أخذنا رواية

(زقاق المدق) نموذجًا لذلك ، لوجدنا الحال كما وصفت فـ (حميـدة) فتـاة برمت من الزقاق العفن ، وضاقت بأهله ، لذا فهي تريد أن تتخلص من هذا القدر المأزوم ، و (عباس الحلو) كذلك ، يريد الزواج من (حميدة) ، والخروج مـن هذا الزقاق ، لذا بعدما خطبها ، ذهب يعمل مع الإنجليز رجـاء أن يغـير قـدره وحاله ، وبالفعل غير كل منهما قدره وحاله ، وشعر بالسعادة ، فحميدة رضـيت بعالم (فرج إبراهيم) الذي وفّر لها الأضواء والأموال ، وعباس قنع بالحالة الجيـدة مع الإنجليز واستطاع أن يشتري لخطيبته التي هربت من الزقاق مع (فرج إبراهيم) ذهبًا كي يكون هدية لها ، لكن المأساة لا تقف عند هذا الحد ، إنما تتجاوزه ليرى عباس الحلو (حميدة) وهي في أحضان الإنجليز فيضربها بزجاجة الكونياك ويثـور الدم من رأسها ، فيضربه الإنجليز حتى الموت ، هذه هي قمة المأساة يوم أن يُقْتـل المحبوب على يد حبيبة ، أو بسبب حبيبه ، فحميدة قتلت عباس الحلـو ، يـوم أن عرضته للانتقام من (فرج إبراهيم) ، ويوم أن رآهـا في أحـضان الإنجليـزي . وعباس قتل حميدة يوم أن ضربها بالزجاجة ، هذه المأساة الأشقى والأشد ، وهـي الضربة القاضية التي يعمد إليها نجيب محفوظ – متمثلاً في القدر – ؛ للتخلص مـن أبطال رواياته ، فهو يغرقهم بالزوارق التي أردوا النجاة بهـا . فحميـدة رأت في (فرج إبراهيم) زورق نجاة يخلصها من امواج (الزقاق) المتلاطمة لكنها غرقـت به ، وماتت على يده ، وهكذا يفعل نجيب محفوظ بأبطاله .

فهو يذكرنا بالمآسي الإغريقية التي تبدأ بمأساة ثم تنفرج لتأتي مأساةٌ أعظـم منـها وأشد ، كما في أسطورة (أوديب) مثلاً ، فقد بدأت مأساته بأن رماه أبوه الملك خارج القصر ؛ لأنه أخبر من قبل كاهن (طيبة) أنه سيموت على يد ابـنٍ لـه يقتله ، وهذه مأساة عاناها أوديب ، لكن سرعان ما انفرجت يوم أن أصبح ملكًا على عرش (طيبة) لكن هذه السعادة لم تتم فقد اكتشف أن العجوز الذي قتلـه يوم أن اعترض له في الطريق ما هو إلا أبوه الملك ، وأنه يوم تزوج بزوجة الملـك

فإنه قد تزوج أمه وزنى بها ، يا لها من مأساة أعظم من المأساة السابقة . ويزيد المأساة ألمًا نهاية (أوديب) المفجعة ، يوم أن يفقأ عينيه ويسير في الصحاري هائمًا على وجهه .

إذًا (نجيب محفوظ) يصدم المتلقي العربي الذي تعوَّد على أن تبدأ القصة بالشقاء وتنتهي بالسعادة ، ليتحقق المفهوم الإسلامي (الفرج بعد الشدة) أو (شدة وتزول) ، لكن ذلك ما لا يريده نجيب محفظ ، فهو يأتي برؤيا فلسفية تقول : ما بعد الشدة إلا أشد منها ، وهذه نظرة فلسفية يونانية متشائمة من الحياة .

والنظرة اليونانية القديمة ترى أن الأفضل للإنسان أن لا يولد في الحياة ، وإذا ولد فالأفضل أن يموت صغيرًا ، هكذا يكون القدر بطلاً متواريًا في روايات (نجيب محفوظ) ، وقل مثل هذا عن نهاية (محجوب) في رواية (القاهرة الجديدة) وعن بطل (السراب) وغيرهما من الروايات المحفوظية .



مَنْ يقرأ نيتشه ؟
١٨٤٤ - ١٩٠٠م

هناك أسماء خالدة ، سكنت الذاكرة البشرية ، وظلت تؤثّر في مسيرة العقل البشري ، إما سلبًا وإما إيجابًا .

ومن هذه الأسماء اسم (فردريك نيتشه) هذا الفيلسوف الألماني الرّهيب ، الـذي أشعل عود ثقاب في قش الفكر البشري ، وراحت ألسنة لهب فكره تأكل الأخضر واليابس ، فاستضاء بنار فكره كثيرون ، واحترق بها كثيرون أيضًا .

أعجب به فريق ، وسخر منه فريق ، كعادة العظماء دائمًا .

وحين أقول : إن نيتشه عظيم ، فعظمته تأتي من جسارته الفكرية الـتي قادتـه إلى التمرّد على كل مقدَّس ومن ثم إلى الجنون .

هذه النهاية المأساوية جعلت من (نيتشه) بطلاً أسـطوريًا ، يـذكّرنا بالأبطـال الأسطوريين عند الإغريـق مثـل (أيـاس) و (أُوديـب) و (بروميثيـوس) و (سيزيف) ، وظلت الأجيال تقرأ فيلسوف إرادة القوّة ، وصـاحب نظريـة (السوبرمان) وأكثر الذين تأثروا به وطبقوا هذه النظرية هو الفوهرر (أدولـف هتلر) الذي قاد جيوش النازية لاحتلال العالم ! .

ومن أعظم كتب نيتشه التي تلقفتها الأجيال (هكذا تكلّم زرادشت) ونيتشه يعده أعظم هدية تلقّتها البشرية جمعاء ! .

في مقدمة هذا الكتاب وضع نيتشه هذه العبارة : (كتابي هذا للبـشرية ، ولـيس ملكًا لفرد واحد) . هكذا كتب نيتشه ، وكأنه يقدِّم نفسه بوصفه نبيًا لا كاتبًا أو فيلسوفًا .

ولا أنسى لحظة فرحي برؤية هذا الكتاب في مكتبة قديمة في مملكة البحرين ، داخل السوق الشعبي ، فالطبعة التي وجدتها كانت طبعة المكتب العـالمي لعـام ١٩٧٩م وكنت كثيرًا ما أقرأ عن هذا الفيلسوف الإشكالي وكتابه هذا بالذات .

وكنت أتساءل : لماذا يقرأ الناس نيتشه ؟ ولماذا يبدأ كبار الكتاب والمفكرين بقراءته والكتابة عنه ؟ فحتى سيجموند فرويد تأثر بنظريات نيتشه ، وقد اعترف فرويد بذلك في رسالة بعثها (ارنست جونز) [1] .

وسلامة موسى كان أول ما كتب كان عن نيتشه ، وكذلك عبد الرحمن بدوي عام ١٩٣٩م كتب عن نيتشه والعقاد (يرحمه الله) يقول في كتابه (رجال عرفتهم) : » . . . في ذلك العهد كنت أناهز الخامسة والعشرين ، وكانت قراءاتي المفضلة في فلسفة الحياة موزّعة بين فكرتين ، تجتمع حولهما جملة الأفكار عن المثل الأعلى للشباب الناظر إلى مكانه من الدنيا ومن الناس : وهما فكرة (السوبرمان للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه ، وفكرة البطولة لتوماس كارليل . . . « [2] .

إذًا حتى العقاد كان متأثرًا – في بدايته – بـ (نيتشه) فيلسوف (إرادة القوة) .

إذًا كان نيتشه مقروءًا لأنه نادى بإرادة القوة ، والعجيب أنه غيّب العقل ، وكأنه يريد من الإنسان أن يكون حيوانًا مفترسًا له قوّة تقوم مقام عقله ، فالقوة كانت عند نيتشه أهم من العقل ، فعبد الرحمن بدوي يذكر أن نيتشه قال : إن العقل في حياة الإنسان لا حاجة إليه ، وهو خطر وغير ممكن ، فلا حاجة إلى العقل في حياة الإنسان ؛ « لأن عدم معقولية شيء من الأشياء ليست حجة ضد وجوده بل بالأحرى إنما شرط لوجود هذا الشيء » ؛ لأن الوجود يتناقض مع العقل ويتنافى مع المعرفة العقلية ، كما أن العقل خطر ؛ لأنه يدّعي معرفة كل شيء [3] .

وما دام نيتشه قد أعلى من جانب القوة وقلل من شأن العقل ، كان طبيعيًا أن تنال هذه الفلسفة المتطرفة المكانة العليا في نفوس وعقول فئة الشباب ، فطبيعة الشباب

---

(١) موسوعة علماء النفس والتربية ، د . فيصل عباس ص (٢٣٦) .

(٢) رجال عرفتهم ، عباس العقاد ص (٤٧) .

(٣) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي (٥١٣/٢) .

التطرف وكما قال العقاد : « أنت شاب ، إذًا أنت متطرّف » .

ولذا ذكر (العقاد) أن تأثره بنيتشه كان في سن الخامسة والعشرين ، وهي سن الشباب .

وعندما تقرأ كتاب (هؤلاء علموني) لـ (سلامة موسى) نجده حين ترجم لنيتشه جعل له هذا العنون (نيتشه فتنة الشباب) قال في مقدمة المقال : اثنان انخدعت بهما سنوات كثيرة ، فذكر الأول وهو (فيسمان) ثم قال عن الثاني : أما الثاني فهو نيتشه الذي خدعني فافتتنت به سنوات قبل أن تخلصت منه ، وإحساسي نحوه هو الحب [1] .

إلى أن قال عنه محدّدًا السن التي تأثر فيها بنيتشه [بعدما أورد بعض كلماته] : كلمات رائعة كان وقعها في نفسي وأنا حوالي العشرين وحيًا أو كشفًا فتعلقت به ، وكتبت عنه مقالاً في مجلة المقتطف في ١٩٠٩م بعنوان : (نيتشه وابن الإنسان) [2] .

ثم يقول أخيرًا عن نيتشه : « كثيرًا ما أعود إلى قراءة نيتشه لا لأنني مقتنع بمنطقه ولكن لأني أجد سحرًا على الدوام في تعبيره ، وأحيانًا في تفكيره . . . » [3] .

من هنا نخلص أن الأعجاب والانبهار بكتابات نيتشه هي (مراهقة فكرية) يمرّ بها القارئ والمفكر ، لكن سرعان ما يتجاوزها إذا تجاوز سن الشباب ، الذي يرى القوّة هي كل شيء في الحياة ، فبعد هذه السن يأتي النضوج وهو سن العقل والتفكير .

ومن كلمات نيتشه التي يطرب لها الشباب أكثر من الشيوخ :

- . . . وإني لأفضل أن أكون مهرّجًا على أن أكون قدّيسًا .

---

(١) هؤلاء علموني ص (٨١) .

(٢) المرجع السابق ص (٨٢) .

(٣) المرجع السابق .

- إن آخر ما يمكن أن أعد به هو (إصلاح البشرية) .
- أنا لا أُفنّد المُثُل ، بل أكتفي بوضع القفاز عند تناولها .
- (أتطلع إلى كل ممنوع) تحت هذه العلامة سيكتب النصر لفلسفتي ذات يوم .
- من بين كل أعمالي يحتل زرادشتي موقعًا خاصًا ؛ عبره تقـــدمت إلى البـــشرية بأكبر هدية لم يسبق لها أن نالت مثلها إلى حد الآن .
- إنه لا ينبغي على الإنسان العارف أن يحبّ أعداءه فحسب ، بل عليه كـــذلك أن يكون قادرًا على كره أصدقائه .
- والآن أطالبكم بأن تضيعوني ، وأن تجدوا أنفسكم ، وإني لن أعود إلـــيكم إلا عندما تكونون قد أنكرتموني جميعًا [1] .



(١) اختيارات من مقدمة كتاب نيتشه ، هذا هو الإنسان ، ترجمة : علي مصباح .

من هو (علي الوردي) ؟
١٩١٣ - ١٩٩٥م

في عام ٢٠٠١م كنتُ أتجوّل في كشك (الطليعة) في عمّان ، أبحث عن كتب الفكر والفلسفة والأدب .

عندما سألت صاحب الكشك عن كتب (الجابري) و (حسن حنفي) و (فهمي جدعان) وغيرهم ، قال لي : هل قرأت لعلي الوردي ؟ قلت : لا ، ولا أعرف هذا الاسم ؟! فأشار ناحية كتب خمسة أو أربعة فقال : هذه كتب علي الوردي ، نظرت إلى الكتب وإذا بي أقرأ العناوين التالية :

- مهزلة العقل البشري .
- وعّاظ السلاطين .
- خوارق اللا شعور .
- أسطورة الأدب الرفيع .

ولأنني لا أعرف هذا الكاتب من قبل ، تصفّحت كتابه (مهزلة العقل البشري) فأعجبني واشتريته .

خرجت وصديقي سمير الضامر من كشك الطليعة وركبنا (السرفيس) قاصدين (مؤتة) ، وأنا أقرأ في الكتاب ، أدهشني هذا المنطق ، وأسرني هذا الوضوح والجرأة ، ولا أكتمكم سرًّا إن قلت : أسرتني هذه السخرية المضحكة التي يطلقها علي الوردي على فلاسفة اليونان وغيرهم من علماء الدين والمثقفين في العراق وغير العراق .

وإليك هذه السطور التي جعلها إهداءً للكتاب :

أهدي هذا الكتاب إلى القرّاء الذين يفهمون ما يقرأون ، أما أولئك الذين يقرأون في الكتاب ما هو مسطورٌ في أدمغتهم فالعياذ بالله منهم .

إني أخشى أن يفعلوا بهذا الكتاب ما فعلوا بأخيه (وعاظ السلاطين) من قبل ، إذ

اقتطفوا منه فقرات معينة وفسروها حسب أهوائهم ثم ساروا بها في الأسواق صارخين . . .

لقد آن لهم أن يعلموا أن زمان الصراخ قد ولّى وحلّ محله زمان التروي ، والبحث الدقيق [1] .

لقد أسرني هذا الكتاب كثيرًا ، ولا أستنكف من أن أقول غيّر الكثير من أفكاري وقناعاتي !! وصار نقطة تحوّل في فكري ! .

وصرت بعد ذلك أتحدّث في المجالس الثقافية عن هذه الشخصية التي اكتشفتها متأخرًا .

ولولا الله سبحانه ثم صاحب كشك الطليعة – الذي أشكره كثيرًا – ما كنت لأعرف من هو علي الوردي ؟

بعد ذلك حرصت على اقتناء كتب هذا العالم الاجتماعي المغمور عند الكثيرين .

وبفضل حديثي عن (علي الوردي) تأثر كثيرون به وبكتاباته ، وكم من شخص اقتنى كتبه منّي ثم صار يبحث عنها بعد ذلك .

عندما أُقدِّم هذه المقدمة أريد أن أثبت أن أبا حسّان رغم شهرته إلا أنه ما يزال مغمورًا ، وما تزال كتبه عليها نير التهميش .

يقول الدكتور محمد جابر الأنصاري المفكر البحريني المعروف في حوار أجرته معه (مجلة العلوم الاجتماعية) الكويتية ، المجلد ٣٠ العدد ٢ سنة ٢٠٠٢م :

« لقد عانى عالم الاجتماع العربي المرحوم علي الوردي بكل ما عرف عنه من استقلال فكري في دراسة الخصوصيات العربية الأمرّين مع الشيوعيين العراقيين واليسار العربي بصفة عامة . . . » . ثم ذكر مشكلة الوردي مع الشيوعيين حول تشابه النظام العشائري في العراق مع النظام الإقطاعي في أوروبا ، إلى أن قال : « ولم تكن مشكلة الوردي مع أولئك فقط ، فقد منعت كتبه في العراق في

---

(١) مهزلة العقل البشري ص (٥) .

السنوات الأخيرة من حياته ، وأصبحت الآن تنشر خارج وطنه ، وصار كـــثيرون يتساءلون من هو علي الوردي ؟ [1] .

ومن القدر أن أكتشف كتابات (علي الوردي) في الأردن هذا البلـــد الجميـــل ، الذي تعالج فيه الوردي عام ١٩٩٥م ، متأثرًا بالمرض الذي لازمه ، يقول (إبراهيم الحيدري) عن كتاب الوردي (وعاظ السلاطين) : « يعتبر كتـــاب (وعـــاظ السلاطين) الذي صدر قبل أكثر من أربعين عامًا من أكثر الكتب التي صدرت في العراق إثارة للجدل والنقاش والهجوم الذي وصل إلى حد التهديد بالقتل » [2] .

وأردت من عرض هذه الكلمة عن كتاب (وعاظ السلاطين) أن أبـــرهن مـــدى البؤس الذي يعانيه المثقف في البلاد العربية حينما يقول كلامًا يخالف فيه مـــا هـــو سائد عند الناس .

وعلي الوردي كان أكثر من شجاع حينما كتب كتبه وجعلها كالخبز الحـــار في أيدي القرّاء .

فالوضوح والجرأة هما ما يميز كتابات الدكتور (علي الوردي) .

كانت نظرته للتاريخ معقولة إلى حدٍّ ما ، وكانت رؤيته للمستقبل صائبة ، وكـــان تشخيصه لحاضره دقيقًا جدًا ، لكن خصومه وقفوا له بالمرصاد .

من أفضل كتب الوردي التي قرأتها كتاب (مهزلة العقل البشري) ، هذا الكتاب علّمني أن المعرفة نسبية ، وأن (السفسطائيين) كانوا أكثر دقة من المناطقة ، يقول الدكتور الوردي : « من محاسن السفسطة أنها غير منافقة ، فهي تـــؤمن بالحقيقـــة النسبية قولاً وفعلاً ، أما أصحاب المنطق القديم فهم يؤمنون بالحقيقة المطلقة نظريًـــا ويخالفونها عمليًا » [3] .

---

(١) مجلة العلوم الاجتماعية ص (٣٨٦) .

(٢) إبراهيم الحيدري (علي الوردي) ص (٢٢١) .

(٣) مهزلة العقل البشري ص (١٥٣) .

إلى أن قال وهو يردّ على الأستاذ (مرتضى العسكري) : « . . . واتهمني الأستاذ العسكري بأني أميل إلى السفسطة وأدعو لها ، وأدافع عنها ، ولعلّه ظن أني سأمتعض من هذه التهمة أو أحاول أن أبرئ نفسي منها ، وما درى أني أفتخر بأن أكون (سوفسطائيًا) وعندي أن هذه السفسطة خير من هذه الخزعبلات المنطقية التي يتمشدق بها أصحاب المنطق القديم » [١] .

والدكتور علي الوردي كانت رسالته في الدكتوراه في علم الاجتماعي ، يقول عن هذه الرسالة : (وقد جعلت لابن خلدون القسط الأوفى في الرسالة التي نلت بها شهادة الدكتوراه من جامعة تكساس عام ١٩٥٠م) [٢] .

ومن إسهامات (الوردي) الجليلة تحليله للشخصية العراقية ، وكتابه (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) يبرهن على جرأة علي الوردي وسعة ثقافته ودقة تحليله ، حيث حلّل الجغرافيا العراقية وكيف أن المنطقة الصحراوية هي منطقة حرب والسلم فيها طارئ .

ومعلومٌ أن هذا التحليل كان للعراق أيام الحكم العثماني ، لكن أيضًا لا يستغنى عن دراسة (الوردي) هذه ؛ لأنها واكبت المستقبل في كثير من التنقلات ، لا سيما عندما تحدث عن الحضارة والبداوة وعن أتباع الإنسان لنظرة مجتمعه أكثر من اتباع ما يمليه عليه العقل المجرّد .

وكتاب الدكتور (الوردي) (الأحلام بين العلم والعقيدة) من أروع كتبه ، ولم أقرأ كتابًا في هذا الشأن يفوق كتاب (الوردي) من حيث شمولية المعرفة ، وسهولة الأسلوب ، ودقة التحليل ، لا سيما المقدمة التي تعدُّ - بحق - فتحًا عظيمًا في علاقة الأحلام بالعقائد والمذاهب ، ويطيب لي أن أقتطف هذه السطور من شجرة الكتاب : أستطيع أن أقول بأننا من أكثر الأمم تأثرًا بالأحلام من الناحية

(١) علي الوردي ، مهزلة العقل البشري ص (١٥٣) .

(٢) منطق ابن خلدون ص (١٢) .

الاجتماعية ، فكثيرٌ من عقائدنا وعاداتنا نشأة فينا ونمت من جرّاء ما نسبغ على أحلامنا من صبغة قدسية ، وبعض رجال الدين عندنا يعتقدون بأن الأحلام تنطق أحيانًا بالوحي الذي لا يجوز الشك فيه . . . » [1] .

أما كتابه (أسطورة الأدب الرفيع) فقد سلّط الضوء على المعاني الفاسدة في الأدب العربي من الناحية الخلقية والفكرية .

وحين أكتب عن (علي الوردي) أشعر بأنني أقدّم شخصية رائعة وجديرة بأن يهتم بها القارئ العربي ، علمًا أنه معروف عند كثيرين أيضًا ، وعلي الوردي مثله مثل أي كاتب يعتريه الخطأ والوثوقية أحيانًا ، ويكون في بعض أفكاره وقناعاته متأثرًا بأيديلوجية هو ينتمي إليها ، لكن مع ذلك حاول علي الوردي كثيرًا في أن يكون حياديًا وعقلانيًا ، وأظنه نجح كثيرًا فلنقرأ (علي الوردي) لنتعرف على سعة تفكيره ، وملامسته لواقع حياتنا العربية فهو من أفضل من كتب عن الشخصية العربية والإسلامية في أفكارها وقيمها ونوازعها .



(١) علي الوردي (الأحلام بين العلم والعقيدة) ص (٨) .

الرياضة في عيون الأدباء

عرف الإنسان الرياضة قديمًا ، ومارسها بوصفها وسيلة لتقوية عضلاته ، من أجل خوض غمار الحروب التي كثيرًا ما تحدث آنذاك .

فاليونانيون قد عرفوا الملاكمة قديمًا واشتهر بينهم الملاكم (ميلو) والذي كان يتدرب كل يوم على حمل عجل صغير ، حتى كبر العجل وصار ثورًا ضخمًا .

وعرفوا أيضًا لعبة الشطرنج وركوب الخيل والسباحة ولعبة الهوكي ومصارعة الثيران والسباق وغيرها من الرياضات .

وكان للرياضة – أيام اليونانيين – من الحضور والاهتمام ما يوازي الحضور والاهتمام اللذين تحظى بهما الرياضة اليوم . فقد كان الشعب اليوناني يحب مشاهدة مباريات الألعاب الأولمبية ، ويعشق اللاعبين المميزين عشقًا جعل الفلاسفة في ذلك الوقت يحسدون الرياضيين على هذه المكانة ، كما هو شأن المثقفين مع الرياضيين اليوم .

يقول (ول ديورانت) في كتابه الممتع (قصة الحضارة) : « لقد كانت مدن كثيرة تمنح الظافرين جوائز مالية كبيرة بعد أن يعودوا من الألعاب الأولمبية ، وكان بعضها – أي بعض المدن – يعينهم قوادًا لجيوشه ، وكانت الجماهير تقدسهم تقديسًا يحسدهم عليه الفلاسفة ويشكون منه » [١] .

إذًا كان الرياضيون منذ القديم وهو يتربعون على قلوب الناس بشكل يصل إلى التقديس ، وهذا ما نراه اليوم واضحًا للعيان .

وكان الشعراء في اليونان يحتفون ببعض اللاعبين ويكتبون فيهم القصائد ، بل كان بعض اللاعبين يأتي بالشعراء في الملعب كي يشاهدوا لعبه وينظموا فيه قصائد المديح والثناء .

---

(١) قصة الحضارة (٦/٣٩٤) .

وفي أوائل القرن العشرين تفاعل الشعراء والأدباء – في الشرق والغرب – مع الرياضة والرياضيين ، فنظموا القصائد ، وكتبوا الروايات التي ذكر فيها الاحتفاء بهذه اللعبة القديمة الجديدة .

فهذا الشاعر الكبير أحمد شوقي (١٨٦٨ – ١٩٣٢م) يكتب قصيدة في البطل العالمي في حمل الأثقال السيد نصير عام ١٩٣٠م في حفل تكريم أقيم للبطل قال فيها :

شرفًا نصير ارفع جبينك عاليًا　　　وتلق من أوطانك الإكليلا

يا قاهر الغرب العتيد ملأته　　　بثناء مصر على الشفاه جميلا

إن الذي خلق الحديد وبأسه　　　جعل الحديد لساعديك ذليلا

زحزحته فتخاذلت أجلاده　　　وطرحته أرضًا فصلَّ صليلاً

قل لي نصير وأنت برّ صادق　　　أحملت إنسانًا عليك ثقيلاً

أحملت دينًا في حياتك مرةً　　　أحملت يومًا في الضلوع غليلا ؟

أما الشاعر العراقي معروف الرصافي (١٨٧٥ – ١٩٤٥م) فقد كتب قصيدة عنوانها : (في ملعب كرة القدم) قال فيها :

قصدوا الرياضة لاعبين وبينهم　　　كرة تراض بلعبها الأجسام

وقفوا لها متشمرين فألقيت　　　فتعاورتها منهم الأقدام

يتراكضون وراءها في ساحة　　　للسوق معترك بها وصدام

رفسًا بأرجلهم تساق وضربها　　　بالكف عند اللاعبين حرام

ومعروف الرصافي من الشعراء الذين تفاعلوا مع كل ما هو جديد ومبتكر من التكنولوجيا في ذلك الزمان .

أما الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري (١٩٠٠ – ١٩٩٧م) فقد أشاد بالملاكم العالمي (محمد علي كلاي) في قصيدة طويلة نقتطع منها هذه الأبيات :

يــــا ســــالبًا بجمــــاع راحتــــه أغـــنى الغـــنى وأعـــز مـــسلوب

مــــا الـــــشعر ؟ مــــا الآداب ما بدعٌ للفكر ؟ ما ومضات أسلوب

يــا ســـيد اللكمـــات يـــسحرها ذهبًــا بـــذهن منـــه مـــشبوب

أمحمـــــد والـــــدهر ملحمــــة من غاصـــبٍ عـــاتٍ ومغـــصوب

وعلى مستوى النثر نجد الروائي الغربي قد اهتم بالرياضة والرياضيين في رواياتـــه ، وجعل بعض أبطال أعماله من الرياضيين ، لا سيما أن الإنسان الغـــربي رياضـــي بطبعه ويجد في الرياضة حياة جميلة ، لذلك يمارسها حتى آخر حياته .

(همنغواي) والرياضة :

الروائي الأمريكي أرنست همنغواي « من الـــروائيين الـــذين أولعـــوا بالأبطـــال الرياضيين ؛ لأنه كان يمارس رياضة الملاكمة ، وقد حقق فيها بطولات ، لـــذلك نجده يجعل بطل روايته (سوف تشرق الشمس) بطلاً في الملاكمة ، فهـــو يبـــدأ الرواية بهذه السطور : كان (روبرت كون) في وقت ما بطلاً للملاكمة في الوزن المتوسط ، بجامعة (برنستون) ولا تظنوا أنني مخدوع في قيمة هذا اللقب ، ولكنـــه كان يعني الشيء الكثير في نظر (كون) .

وفي روايته الشهيرة (العجوز والبحر) نراه يعلمنا أن الولـــد الـــذي كـــان مـــع (سنتياغو) العجوز يلعب لعبة (البيسبول) ، وأن العجوز نفسه كان يلعبها أيضًا وكان يحدث الولد عن أندية البيسبول الأمريكية ، وعن بعض اللاعبين المشهورين فيها .

وهمنغواي قد فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٤م ، لكنه في آخر حياته انتحـــر بواسطة بندقية صيد كان يحملها معه أثناء الصيد .

ومن الروائيين الذين كتبوا عن الرياضة : الروائي (بيتر هاندكة) ١٩٤٢م وهـــو روائي نمساوي ، وأول رواية له هي (الزبابير) ، هذا الروائي له روايـــة اسمهـــا : (خوف حارس المرمى عند ضربة الجزاء) ، قال في بداية الرواية تعريفًا بالبطـــل :

تلقى عامل التركيبات (يوزف بلوخ) الذي كان في السابق حارس مرمى معروفًا ، عند وصوله إلى عمله قبل الظهيرة خبر فصله .

والرواية تنتهي بأن يحضر (بلوخ) مباراة في كرة القدم وينظر إلى ضربة جزاء احتسبت آخر دقائق المباراة ، فينظر إلى اللاعب الذي سينفذ الضربة ، وينظر إلى حارس المرمى الذي يرتدي سترة صفراء ، وحين يسدد اللاعب يكون الحارس هادئًا في مكانه فتأتي الكرة في يديه .

والروائي التشيكوسلوفاكي (ميلان كونديرا) نراه في روايته (الخلود) يبدأ بهذه السطور : ربما ناهزت السيدة الستين أو الخامسة والستين من العمر ، رحت انظر إليها من كرسي الطويل وأنا ممدد مقابل مسبح ناد رياضي في الطابق الأخير من مبنى حديث تشاهد منه باريس بأكملها عبر كوى ضخمة مزججة .

أما الأديب الكبير توفيق الحكيم فقد ألّف في أواخر حياته كتابًا سمّاه (الوقت الضائع) قال في مقدمته : سمحت لنفسي بأن أستعير من قاموس لغة (الكرة الشائعة) اليوم هذه المباراة : (في الوقت الضائع) ، فالشوط الأخير من حياتي قد انتهى (بدون أهداف) ، وكان المنطق يقضي بعد هذا المرض الطويل وهذه السن المتأخرة أن أتصرف مغادرًا (الملعب) ولكن مشيئة الله تعالى أرادت لي مدّ هذه الفترة قليلاً لحكمة .

وللأسف فإننا نلاحظ اليوم أن أغلب الأدباء والشعراء ينظرون إلى الرياضة والرياضيين على أنها شيء تافه ، علمًا أن الرياضة كانت وما زالت هي التي تصنع ذهنية المجتمعات وتؤثر على عواطفهم وانتماءاتهم بشكل واضح . لقد أصبحت الرياضة خطابًا جديدًا يمارس سلطته على العقول والسلوكيات .

وربما كانت الرياضة جسور تواصل بين الدول والعرقيات ، في حين فشلت الثقافة في أن تكون كذلك .

لقد أصبح اللاعب المشهور هو من يصنع الحياة عند فئات الشباب ، وما

عاد الشاب كما كان قبل خمسين سنة – يتأثر بكتابات (طه حسين أو العقــاد) أو (توفيق الحكيم) بــل صــار يتــأثر بأهــداف (لامبــارد) و (راؤول) و (رونالدينهو) وما عادت الكتب هي التي تأسره ، بل صارت المباريات العالمية هي شغله الشاغل .



محمد الفايز - والألم المفلسف

كان (لوركا) يقول : يا له من ألم ألا يكون لك ألم ! و (غاندي) قال ذات يوم : ما سما امرؤ إلا وقد مرّ على نار الألم .

أما (صلاح عبد الصبور) فيقول : لستُ شاعرًا حزينًا ولكنّي شاعرٌ متألم .

الألم دليل على أن صاحبه من الأحياء ، فقديمًا قالت أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنهما) لابنها البطل عبد الله بن الزبير : « **إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح** » .

هناك الألم الطبيعي الذي يحسُّ به جميع الناس ، وهناك ألم فلسفي ، لا يشعر به ولا يحسّه إلا الفلاسفة الذين تعمقوا في فهم الحياة ، وسبروا أغوار الوجود الإنساني ، ولمسوا مأساوية الحياة ، هؤلاء هم الذين يرون ما وراء الحزن من لذّة ، وما وراء الفرح من شقاء ! .

ومحمد الفايز من هؤلاء الناس ، ولا أدلّ على ذلك إلا اختياره اسم (سيزيف) ليكون اسمًا مستعارًا له في بدايات كتاباته ، وأسطورة (سيزيف) تحكي مصير الإنسان الذكي والمفكّر حين تغضب عليه الآلة الإغريقة ، المتمثلة في (زيوس) فيأمر (ثاناتوس) – إله الموت – كي يأخذ روح سيزيف إلى مملكة (هادس) تحت الأرض أي الجحيم ، لكن سيزيف يخدع (هادس) ويعود إلى الأرض من جديد ، فيحكم عليه (زيوس) بأن ينقل الصخرة إلى أعلى الجبل وكلما اقترب من القمة عادت إلى السفح ، ويستمر هذا الأمر إلى ما لا نهاية ، فيتعب بذلك سيزيف حسيًا ومعنويًا ، وهي غاية العذاب البشري ، يوم أن يرى الإنسان جهده يذهب سدى ، ويكون مجرد عبث مؤلم يعيشه في هذه الحياة ، وهكذا كان (محمد الفايز) ينظر إلى نفسه وعمله والحياة . فرغم ما قدَّمه الفايز من شعر وقصة ورؤيا رائعة لأهوال البحر والحب والحرب ، إلا أنه ظل مُهَمّشًا حتى بعد موته ! ، وكأنه كان متكهنًا بمستقبله يوم أن لقّب نفسه في البدايات بـ (سيزيف) فكان إبداعه

هو صخرته التي حاول أن يوصلها القمّة لكنها تتدحرج إلى السفح من جرّاء تنكّر الآخرين له .

الألم عند الفايز إحساسٌ صادق ، وليس إحساسًا مستعارًا فقد عمل (تبابًا) – وهو في سن الخامسة عشرة – في سفن البحّارة ، والتباب هو الصبي الصغير الذي يقوم بخدمة البحّارة ، وفي عام ١٩٥٠م عمل محاسبًا لتجار البحر من (الطواويش) و (النواخذة) ، لذلك جاءت عبارته صادقة في وصف البحر وأهواله ونفسية البحّار المتأزمة المتألمة ، استمع إليه وهو يقول :

البحر أجمل ما يكون

لولا شعوري بالضياع

لولا هروبي من جفاف مدينتي الظمأى

وخوفي أن أموت !

عريان في الأعماق أو في بطن حوت

إني أحاذر أن أموت

لما أفكر أن لي بيتًا ولي فيه عيال

لما أحس بأن في الدنيا جمال

في هذه المقطوعة من (المذكرة العاشرة) لمذكرات بحار يصف لنا (الفايز) نفسية البحّار وهو يتأرجح بين جمال البحر وقبحه :

البحر أجمل ما يكون

لولا شعوري بالضياع

فالبحر هنا جميل وقبيح في الوقت نفسه ، هذا التضاد يجعل الإنسان الواعي يشعر بالمفارقة والتضاد الذي يكتنز البحر ، بل والحياة كلها ، فهو ليس كالحمامة التي ترى الحبّة وتغفل عن المصيدة أو الفخ .

ألم (الفايز) في أنه يرى الطُّعم والفخَّ معًا فيأسره الطعم ؛ لأنه بحاجة إليه ، ويخيفه

الفخ ؛ لأنه بحاجة إلى الحياة ، فالطعم والحياة هما حاجة الإنسان لكن يقف الفخ حاجزًا بينهما ، وربما ذقت الطعم وربما لم تذقه ، فهي مغامرة ، والبحر أكبر وأخطر مكان للمغامرة ، لكن الإنسان رغم ذلك يصارع البحر والحياة ولا ينهزم كما قال (همنغواي) على لسان (سنتياغو) العجوز : « لكن الإنسان لم يخلق ليهزم ، بالإمكان تحطيم الإنسان ، ولكن ليس هزيمته » .

وهذا ما حدث - بالفعل - مع الفايز فإنه تحطّم لكنه لم يهزم .

يا الله ما أروع قول الفايز :

إني أحاذر أن أموت

لما أفكر أن لي بيتًا ولي فيه عيال

لما أحسُّ بأن في الدنيا جمال .

في هذا المقطع تتشظى نفسية المتلقي حين يدرك ما أدركه الفايز ، من جمال الحياة والعيال ، لذا هو يحذر الموت ؛ لأنه سيغيبه عن العيال والجمال ، ولكن كما قال المتنبي :

ومن لم يعشق الدنيا قديمًا ولكن لا سبيل إلى الوصال

وهنا المأساة يوم أن يتعلق الإنسان بالحياة ، ويعشقها ويعشق أهلها وطبيعتها ، ثم يُنْتزع منها غير مأسوفٍ عليه .

لذا أجد صاحب (إيلياء أبو ماضي) صادقًا في قوله :

قال : البشاشة ليس تسعد كائنًا يأتي إلى الدنيا ، ويذهب مرغما

مهما ضحك الإنسان واستبشر بالحياة ، فلحظة الموت تنسي كل متعة تلبّسناها في الحياة ، والموت وداع أخير لهذه الحياة الجميلة ، وأرى أن الشاعر الشعبي (محمد بن لعبون) كان رائعًا ومؤلمًا حين قال :

ضحكتي بينهم وانا رضيع ما سوت بكيتي يوم الوداع

و (الفايز) عندما يستحضر الموت في هذه المقطوعة هذا ؛ لأن ذاكرة البحّار مليئة

بصور الآباء والأجداد والأصدقاء ، وهم يدرجون في الأكفان ثم يُرْمــون لقمــة سائغة للأسماك والحيتان .

والموت في البحر يأخذ شكلاً أشدّ مأساوية من الموت على اليابسة ، فربما مــات البحار عريانًا تحت الأعماق ، وهو يبحث عن اللؤلؤ ، وربما ألقي في بطن حوت :

لولا هروبي من جفاف مدينتي الظمأى وخوفي أن أموت

عريان في الأعماق أو في بطن !

(محمد الفايز) شاعرٌ رومانسي يتلذذ بالألم ، ويوصله إلى القارئ حادًا مرعبًا .

وعندما نعاود قراءة (مذكرات بحّار) نحس بالفايز فيلسوفًا وجوديًا يتأسى علــى الإنسان في أمله وأمانيه ، ويندب حظ الإنسان في هذه الحياة وخاصة أولئك الناس البسطاء الذين يكدحون الليل والنهار ، يقتاتون على موائد الأمل ، ويــصارعون الألم بنفس المتأمل في المستقبل خيرًا ، لكن جهد هؤلاء سوف يجني ثماره غيرهم من الوادعين اللاهين :

أمسكت (مفلقة) المحار

في الفجر مرتجفًا لتكتمل القلادة

في عنق جارية تنام على وسادة

ريشيّةً في حضن سيدها . . .

وحين يصف (الفايز) مأساوية مدينته القديمة ، يشعرك وكأنه يــصف نفــسيته المحطّمة ، وهكذا هو (الرومانسي) عندما يسقط آلامه على الطبيعة ، ويتمــاهى معها ، فيراها في نفسه ، ويرى نفسه فيها ، يقول (الفايز) عــن هــذه المدينــة الطللية :

ما زلت أذكر كل شيء عن مدينتنا القديمة

عن حاريّ الرملية الصفراء ، والمقل الحزينة

لما تحدّق في السماء على السطوح

نضبت جرار الماء ، والغدران مثل يد البخيل

محلت فأمست كالقبور

مخسوفة سوداء تملأها الصخور

وعلى الضفاف الغارقات ، بالشمس والرمل المندّى والضباب

وقف الصحاب ، يترقبون سفينة الماء التي قالوا : تعود ، بالماء من نهر الشمال

فالأرض رملٌ والسما بيضاء صافية كنهر من جليد

وعلى ظهور جمالنا الظمأى تحجرت القراب ، سوداء فارغة يغطيها التراب

كبطوننا تحت الشراع ، صلّي إذن فالموت أقرب ما يكون

وحسب هذه المدينة مأساة أن تغدوا غُدران مائها كيد البخيل ، أو كالقبور المقفرة التي خسفت فبدت سوداء تملأها الصخور .

وأن تتحجر القرب على ظهور الجمال .

إنها مدينة من حجارة ، تذكرنا بتلك المدينة المتحجرة التي في (ألف ليلة وليلة) وكأن هذه المدينة وقعت عليها نظرات (ميدوزا) فأحالتها حجرًا لا حياة فيه ، إنها قمة المأساوية يوم أن تتحجر الحياة وتغدو فاقدة للماء والنداوة والخضرة .

والمأساة أيضًا تبدّت في قوله :

فالأرض رملٌ ، والسما بيضاء صافية كنهر من جليد

إذًا لا عشب ولا زرع في هذه المدينة ، ولا هناك غيوم تؤمِّل أهل المدينة بالمطر ، إنما الدنيا جرداء أرضها وسماؤها ، فهل هناك مجال للحياة ؟ وحينما يصف الشاعر (محمد الفايز) مدينته القديمة بهذا الوصف التراجيدي ، فإنه يجعل منها مأساة إغريقية ، حيث يتطلع الإنسان إلى المستقبل الجميل ، فيدهمه الضياع والشتات ، فيتحطم على صخرة القدر تمامًا كما فُعل بـ (أياس) و (أوديب) .

إذًا (الفايز) هنا (سفوكليس) شعري يمسرح الحياة ، ويجعل من مدينته القديمة بطلاً مأساويًا يذرع خشبة المسرح بحثًا عن خلاص وأمل ، لكن لا جدوى كعادة

نهايات المآسي الإغريقية التي تحطّم الإنسان لتجعله يبكي على نفسه وطموحه وآماله .



ميخائيل نعيمة... الأديب الصوفي

عظيمة هي النفوس ، حين ترتفع لتُشرق على غيرها بالضوء والدفء .
وعظيمة هي الكلمات حين تغدو سنابل قمح ، ﴿ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦١] من الحكم والرؤى الفلسفية .
كثيرون من يحملون الأقلام ، وكثيرون من يكتبون وينشرون لكن كما أن في عالم الطيور نسور وبغاث ، وفي عالم الحجارة حصى ويواقيت ، كذلك في عالم الكتّاب فلاسفة وسفهاء ! .
و (ميخائيل نعيمة) من أولئك الفلاسفة الذين جعلوا من الفكر مجهرًا ينظر من خلاله إلى دقائق الأشياء والمعاني .
(ميخائيل نعيمة) فيلسوفٌ دخل عالم الأدب ، فكان كالمعرّي في نظرته ، إلا أن نعيمة أكثر تفاؤلاً وطمأنينة من أبي العلاء ، لكن الزهد والعزلة والتفكير المستمر ، والنظرة المغايرة عن أنظار الناس ، كل هذه الأمور قواسم مشتركة بين المعرّي و (نعيمة) .
والزهد في الدنيا سمة بارزة في الدين النصراني ، لذا كان نعيمة متدينًا بهذه السّمة ، ويراها أعظم عبادة للإنسان ، فهو راهبٌ في فلسفته ، ولأن (نعيمة) عاش في روسيا ، وأمريكا أيضًا كان للحضارة المدنية أثرها السيء على نفسيته ، لذلك هجر الناس واتخذ له كوخًا صغيرًا في مكان ناء سمّاه : (الفُلك) ؛ تفاؤلاً بفلك نوح عليه السلام .
وكان هذا القرار الذي اتخذه قد جاء بعد عودته من أمريكا ، يقول نعيمة عن هذه الرحلة :
« . . . ولعلّ ذلك ما حدا بمجلة (الهلال) بعد سنين أن تطلب إليّ الكتابة في موضوع (لماذا اعتزلت الناس) ، وإليك بعض ما قلته في ذلك المقال :

عدت من (أميركا) وفي أذنيّ ضجيج مدنيّات لا تحصى ، وفي رأسي براكين من الأفكار ، وفي قلبي حنين إلى عزلة أستطيع أن أطهّر فيها من الضجيج ، وأفرّج عن رأسي مما فيه من براكين ، وأُبرّد بعض ما في قلبي من الشوق والحنين . . . » [1].

ويقول عن ذلك الكوخ الصغير / الفلك الذي جعل منه عالمًا آخر يعيشه لوحده ، مبتعدًا عن ضوضاء المدنية وصخب الناس .

والغريب في أمر تلك الصومعة أنّني عندما سئلتُ أن أُعطيها اسمًا كان أول ما تبادر إلى ذهني (الفلك) ، فلك نوح ، فقد رحت أشعر وأنا في قلب تلك الصخرة ، أنّ أمواج العالم الصاخبة تنكسر وترتدّ أمواج الطوفان عن فلك نوح .

وأمواج العالم هي شهواته [2] .

ميخائيل نعيمة تأثر بكثيرين ممن زهدوا في الحياة ، واعتزلوا الناس ، فتأثر بـ (بوذا) و (لاوتسو) الصيني ، وكتب عنهما في كتابه (المراحل) وأبدى إعجابه بهما وبفلسفتهما ، وكان يرى تشابهًا كبيرًا بين العقيدة الهندية عند البوذيين وعقيدة (الطاو) عند لاوتسو الصيني ، والمسيحية فيقول :

وأوغلت بعدئذٍ في درس التعاليم الباطنية منذ أقدم العصور ، وفي درس الديانات السماوية وغير السماوية ، فأدهشني ما فيها من تقارب في الهدف والوسيلة على بعد الشقة في الزمان والمكان ، فلا (الفيدا) . . . ببعيدة عن أسرار (هرمس) ولا (الطاو) عند (لاوتسو) بغريب عن (الأب) عند يسوع [3] .

وهو بهذا الكلام يرى أن مصدر الأديان واحد ، وأن الإنسان وإن اختلفت مذاهبه وأديانه إلا أنه يرى هدفًا واحدًا ، وهو البحث عن الحقيقة المطلقة ، وعبادة الله جل وعلا .

---

(١) (سبعون) المرحلة الثالثة ص (٦٦) .

(٢) سبعون (١٢٩/٣) .

(٣) فلسفة ميخائيل نعيمة ، محمد شفيق شُيا ص (٣١٨) .

و (نعيمة) ارتضى وحدة الوجود عقيدة ورؤية له ، فتساوى عنده الخير والشر ، والألم واللذة ، وقصيدته (الآن) تومئ إلى ذلك ، فهو يقول :

غدًا أُعيد بقايا الطين للطين   وأطلق الروح من سجن التخامين

وأترك الموت للموتى ومن ولدوا   والخير والشر للدنيا وللدين

وألبس العري درعًا لا تحطمه   أيدي الملائك أو أيدي الشياطين

فلا تُروِّعني نار الجحيم ولا   مجالس الحور في الفردوس تغريني

إنه بهذا الشعور لا يحفل أبدًا بخير أو شر ، بنعيم أو جحيم ، بملاك أو شيطان ، هو لا يحفل بكل الثنائيات في الدنيا والآخرة ، فهو لا تروعه نار الجحيم ، ولا تغريه مجالس الحور .

إذًا هو في عالم آخر وهو عالم الفناء ، الذي قالت عنه رابعة العدوية :

والله ما عبدته خوفًا من ناره ، ولا رغبة في جنته ولكن شوقًا إليه ! .

اسمع إلى (نعيمة) ماذا يقول عن لحظة الفناء :

غدًا أجوز حدود السمع والبصر   فادرك المبتدأ المكنون في خبري

فلا كواكب إلا كان لي سُبُل   فيها ، ولا تربة إلا بها أثري

... غدًا ؟ ولا أمس لي حتى أقول غدًا   فلتمحها (الآن) من نطقي ومن فكري[1]

وميخائيل نعيمة جعل أعظم ملاحظاته ونظراته في النفس البشرية ، فجوّانية الإنسان هي العالم وهي اللغز الخطير ، كما يقول الشاعر :

وتزعم أنك جرمٌ صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر ؟

والمتصوفة على مختلف أديانهم وعقائدهم ، متفقون أن التأمل داخل النفس هو طريق إلى الفناء والاتحاد ، فكل ، وجُلّ ، هم الصوفي أن يخرج اللاهوت من الناسوت ، وأن يتحد بالمطلق .

---

(١) همس الجفون ص (١٠٩) .

وقد تأثر (نعيمة) بفلسفة (بوذا) ودعوته إلى نبذ المتع الدنيوية والزهد في الدنيا وأهلها .

يقول (نعيمة) في خشوع ورجاء مخاطبًا (بوذا) :

غوتاما بوذا ، غوتاما بوذا ! ألا نزعت الغشاوة عن عينيّ لأبصر الحكمة في عينيك ؟

ألا أعرتني عينيك لأرى وأُدرك سرّ هذه الطمأنينة السرمدية المرتسمة على وجهك ؟

بماذا عساني أُشبهها وقطّ لم أر ، لا في يقظتي ولا في منامي ، ما يشبهها [1] .

ولا شك أن أسباب لجوء ميخائيل نعيمة إلى الاعتزال والتأمل والتصوّف هي أولاً في طبيعة (نعيمة) الوادعة ، والتي تظهر على قسمات وجهه الشاحب الهادئ .

أيضًا كان للمدنية الهمجية أثرها السيء على نفسيته ، وقد كتب عنها في كتابه (دروب) تحت عنوان (همجية المتمدنين) وقال فيما قال : همجٌ هم الذين يتلفون خيرات الأرض والسماء بطرًا وتعسفًا واعتباطًا غير مبالين بإخوة لهم يسعون وراء الرغيف ، فيهرب منهم الرغيف ، ويجدّون في طلب القميص فلا يظفرون بغير الأسمال ، ويفتشون عن سقف يظلل رؤوسهم فلا يجدون غير القبّة الزرقاء [2] .

أما الحرب فهي همجية الهجمية كما وصفها (نعيمة) ، وقد كان للحرب العالمية الثانية أثرها الأليم على نفسية (نعيمة) ، وقد كتب قصيدته الشهيرة (أخي) وكان لها الأثر الأليم في نفسه ونفس المتلقي ، ويقول نعيمة عن الحرب :

أما الهمجية الهمجية فهي الحرب من غير شك ، ففي الحرب تلقى المدنية عن وجهها قناعها البرّاق ، الخدّاع ، وإذا بها أنياب وبراثن ومخالب لا يهيمن عليها عقل ، ولا يكبتها وجدان .

---

(١) ميخائيل نعيمة (المراحل) ص (١٠) .

(٢) ميخائيل نعيمة (دروب) ص (١٢٨) .

وإذا المقاييس البشرية كلها تنقلب رأسًا على عقب ، فالبطل البطل هو الذي يدمّر لا الذي يعمِّر ، والذي يميت لا الذي يحيي ، والذي يكره لا الذي يحب ، في الحرب تبدو الأمانة خيانة ، والمروءة خنوثة . . . . » [1] .

أيضًا كان لسيرة وحياة الأديب الروسي (تولستوي) أثر واضح في حياة (نعيمة) وقد كتب عنه في (الغربال الجديد) كلامًا جميلاً ، وكان تغيّر تولستوي جاء بعد عودته من الغرب ووفاة أخيه (نيكولاي) .

و (نعيمة) أيضًا تغيرت حياته بعد عودته من أمريكا ، وكان قد رأى الحضارة الغربية وهي تكتسح الدنيا وتهيمن على العالم .

ولعل تصوف (نعيمة) كان تصوفًا روحانيًا أكثر منه عقلانيًا ؛ لأن طبيعة (نعيمة) طبيعة روحانية لا عقلانية ، فهو مشدود أبدًا إلى الطبيعة والحياة البسيطة ، فهو عرفاني النزعة ، صوفي الفلسفة ، يهتم بالروح ، والروح فقط ، يزدري المادة ويراها كالعرفانيين ، حجر عثرة في طريق الروح .

ولعلّي أختم هذه التطوافة السريعة في عالم (نعيمة) الروحي بهذه السطور التي كتبها نعيمة نفسه حيث يتحدث عن خلوته الصوفية الروحانية ، وهو هنا صوفي يحاول الفناء في المطلق وعتق اللاهوت من الناسوت :

بلى . بلى . ستكون لي خلوتي . وستكون لي فيها سباحات بعيدة في العالم اللامتناهي الذي هو عالمي ، وعالم كل منظور وغير منظور في الكون ، وسأعود من سياحاتي باليقين الذي تطمئن إليه النفس من حيث وجودها والغاية من وجودها ، وذلك لن يتم لي إلا بغربلة تلك النفس من شوائبها ، من قناطير الزؤان والحسك والتراب والحصى التي اجتذبتها إليها على مرّ السنين ، فباتت وكأنها بعض منها .

وإذا أنا أحسنت الغربلة تناثرت عن كاهلي أعباء كثيرة ، فانجلت باصرتي

---

(1) سبعون – ميخائيل نعيمة ص (٧ – ٨) .

وبصيرتي ، وأصبح في إمكاني أن أعكف على تنظيف بيتي الروحي وترتيبـــه ، وأن أتبين هدفي من وجودي ، ثم أن أمضي في شق طريقي إلى ذلك الهدف .



معجز أحمد . . . متى نمزّق الأقنعة ؟

إذا كنا نقرأ كتب تراثنا الأدبي بأعيننا التي في رؤوسنا ، فهذا يتطلب منا أيضًا أن نفكر فيها بعقولنا التي في رؤوسنا ، وألا يدفعنا شَرَهُنا المعرفي إلى التهام ما أمامنا من نصوص دون النظر إلى ما يعلق بها من شوائب ، بل لا بد أن تكون قراءتنا مجهرًا عصريًا نرى من تحته ما لم يطف على السطح ، وأن نسبر أغوار النصوص ، ونحفر في تربتها بآليات نقدية واعية ، دون الوقوع في أسر التأويل السابق للنصوص من قبل الكُتّاب السابقين ، وبهذا الفهم نظفر بالجديد ، وننطق من النصوص ما مكث صامتًا ، وسكت الدهر عن تأويله .

إن التراث الأدبي لا يزال بكرًا ، على رغم ما درس ، ولا تزال آلاف المخطوطات قابعة في المتاحف والمكتبات الخاصة ، فهو كنز لم يكشف عن جزء يسير منه ، وإن كان سقراط وأرسطو ، وأفلاطون قد تركوا للبشر نتاجًا فلسفيًا ، فقد جاء فلاسفة هذا العصر ليحللوا ما تركه أسلافهم ، ولذلك كان علينا نحن المعاصرين أن نحلل وأن نطرح الأسئلة ، ونحاور النصوص ، لا أن نجعل من أنفسنا سماسرة لأفكار الآباء والأجداد وآرائهم ، وقنطرة يعبر ذلك الفكر من خلالها إلى الأحفاد والأبناء دون غربلة وتمحيص ، ولا يفهم القارئ الكريم أن هذه دعوة لمقاطعة الآراء التراثية ، بل لا بد أن نعرف أن الأحكام الجاهزة المقولبة ، التي وصلتنا من أسلافنا النقاد ما كانت لتكون - الآن - (بُعبُعًا) نتهيب الاقتراب منه ، والكشف عن ماهيته لو أننا أحسنا التعامل معها ، فأخذناها نصًا بشريًا قابلاً للتشريح ، وإعادة تفسيرها من جديد ، وليت أن أساتذة المدارس والجامعات ما غرسوا في نفوس التلاميذ تقديس بعض الشعراء والأدباء ، وليت أنا لم نجعل للشعر إمارة ، وللنثر ملكًا ؛ لأن مثل هذه المناصب / الألقاب المنتزعة انتزاعًا مما أنهك ثقافتنا العربية ، وقُيدت قامات ومواهب بسبب ذلك ، حتى تنكرنا لذائقتنا ، وأصبحنا نتذوق الإبداع ، بأجناسه بأذواق الأسلاف ، والويل كل الويل لمن حاد عن الطريق ،

وجاء بشيء من عنده .

ومن الأحكام التي توارثها التراث النقدي ، وأصبحت من المسلّمات التي لا تقبل النقاش ما مفاده أن أبا العلاء المعري (ت : ٤٤٩هـ) كان متعصبًا لشعر المتنبي ، وقد أوهمنا أسلافنا – من رواة الأدب وشيوخه – أن أبا العلاء كان مستميتًا في الدفاع عن شعر المتنبي إلى حدٍّ تحمل الأذى من أجله ، ويستدلون على ذلك بقصة أبي العلاء مع الشريف المرتضى عندما ذبّ الأول عن شعر المتنبي فأمر الشريف بسحبه من رجله ، وألقي خارج المجلس ! والقصة إذا رجعنا إلى مصدرها فإننا لا نجدها عند من ترجم لأبي العلاء المعري من معاصريه ، وإنما نجدها عند ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) ومن جاء بعده ، فهل هي من وضع ياقوت ؟ أم من النساخ ؟ أم أنها خفيت على المتقدمين ؟ .

ومع أن المعري شرح شعر المتنبي في كتابه (معجز أحمد) إلا أن هذا ليس دليلاً على تعصبه وحبه ؛ لأنه شرح شعر أبي تمام والبحتري أيضًا ، ولو رجعنا إلى معجز أحمد لم نجد ذلك الاحتفاء من أبي العلاء بشعر المتنبي ، وإنما هو يكتفي بذكر البيت وشرحه دون إبداء إعجاب ، أو رفع منزلة للقائل / المتنبي ، بل ربما عرّض بسرقات المتنبي وتحدث عنها بذكر أبيات لشعراء تقدموا المتنبي زمنيًا ، تتناص معاني أشعارهم مع أبيات المتنبي .

ولو رجعنا إلى عنوان الكتاب (معجز أحمد) لانتابتنا الحيرة ؛ إذ نحن أمام عنوان فضفاض ، وحمّال أوجه ، ونحن غير متأكدين – فعلاً – إن كان أبو العلاء المعري يقصد بهذا المعجز أحمد بن الحسين الجعفي (المتنبي) أم يقصد به أحمد بن عبد الله بن سليمان (المعري) ؟ فالعنوان يحتمل الأمرين ، لكن أسلافنا لما حقنونا بتلك الحقيقة المطلقة لم نكلف أنفسنا العناء بأن نحرك عقولنا ، ونحقق في هذه المسألة لانشغالنا بصناعة الفحل الشعري / المتنبي ! .

ومن يقرأ كتب أبي العلاء ورسائله يجده ولوعًا بالتورية واللف والدوران ، يقول

الشيخ عبد الله العلايلي في كتابه (المعري ذلك المجهول) : « . . . وتأمل دقة تعبيره في جملة الدعاء التي لم يستعمل فيها إلا كلمات الأضداد والملاحن ، فهو يعبّر عن الدعاء بمولاي الذي يعني يريد السيد والعبد ، والشيخ بمعنى ذي الفضل والخرق ، والجليل بمعنى العظيم والحقير ، والفضل بمعنى الفضيلة والفُضْلة » اهـ [1] .

وإذا سلمنا – جدلاً – أن أبا العلاء ما أراد بمعجز أحمد إلا نفسه ، فما الذي جعله يتقنع بهذا القناع ؟ .

هل كان المعري يظهر للناس بخلاف ما يبطن ؟ بمعنى هل المعري عندما رأى الناس يُجلّون المتنبي ، ويحفظون شعره ، ويستدلون به فعل فعلهم مجاملة ، ومسايرة للواقع ، وكتم في صدره ما يراه لنفسه من مكانة علو منزلة ؟ إذ هل يعقل أن شاعرًا أديبًا بقامة أبي العلاء يرضى لنفسه موقع الظل ؟ فيكون شارحًا وناقلاً لأشعار المتنبي وأخباره ؟ وهو القائل :

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

ثم لماذا نرى أبا العلاء المعري في مرحلة متأخرة من حياته يرفض الشعر ، ويقبل على النثر ، شارحًا لدواوين الشعراء ، ومراسلاً لعلية القوم من وزراء وأعيان ؟ وهذا نصّ رفضه للشعر نقلته من مقدمته لسقط الزند : « . . . وقد كنتُ في ربّان الحداثة ، وجن النشاط ، ماثلاً في صفو القريض اعتدّه بعض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البليغ ، ثم رفضته رفض السقب غرسه ، والرأل شريكته ، رغبة عن أدب ، معظم جيده كذب ، ورديئه ينقص ويجدب » أ.هـ .

وأقول : هل جاء هذا الرفض بعد أن أيقن المعري أن سدة الشعر للمتنبي ، وعلى هذا اتفق الناس وتعاقدوا ؟ فلما رأى المعري هذا الجهل فاشيًا تجاهل مع من تجاهل

(١) المعري ذلك المجهول ، عبد الله العلايلي ص (٧٢) .

فظن الناس أنه منهم ؟ أي معجب ومحب لشعر أبي الطيب المتنبي ؟ ثم راح بعد ذلك يمني نفسه ويؤملها بالحصول على سدة النثر ، وإلا فبم نفسر قول ابن أخيه سليمان بن علي المعري (أبو المرشد) حين قال في كتابه (تفسير أبيات المعاني) :
« . . . وإن كان شيخنا أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان رحمه الله ورضي عنه ، قد أورد في كتابه المعروف بـ (اللامع العزيزي) ما لا فائدة فيما عداه ، ولا حاجة إلى ما سواه ، إلا أنه رحمه الله قلد ظرف الكلام فضل عنانه ، وأرسله سابقًا يفتنّ في ميدانه ، فلم يدع فضلة علم إلا رفع منارها ، ولا دفينة معنى إلا كشفها وأثارها ، فطال الكتاب بما استودع من صنوف الآداب » أ.هـ .
وبعد ذلك : هل أراد المعري بشروحاته على أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي - خاصة - أن يطفئ نورها بما يورده من أخطاء نحوية ، وشواهد شعرية بعد كل بيت ، ليقول للناس ما أتى هؤلاء بجديد ؟ أم أن الشعر لا يخدم عقله المنطقي ، وفكره الفلسفي ، ووجد ضالته في النثر ؟ أم أن (معجز أحمد) ليس للمعرّي أصلاً ؟ وأنا أردت من خلال هذه التطوافة أن أطرح هذه الإشكالية ، لعلها تجد من يقف معها .



همنغواي .. هل كان لا منتميًا ؟

استيقظ العالم الثقافي مذعورًا عام ١٩٦١م على نبأ انتحار الروائي الأمريكي الشهير (أرنست همنغواي) الذي حصل على جائزة (نوبل) لعام ١٩٥٤م عن روايته الشهيرة (الشيخ والبحر) .

وكان هذا النبأ سيء الوقع على نفوس المثقفين وقرّاء أدب (همنغواي) .

وقيل الكثير – وما زال يقال – عن أسباب هذا الانتحار ، فمنهم من أرجعه إلى عامل الوراثة ، حيث إن جدَّ همنغواي ووالده ماتا منتحرين ! .

وهناك من قال : لأن همنغواي كان يكثر من شرب الخمور حتى أوصله ذلك إلى الهستيريا ، فما كان منه إلا أن قتل نفسه ببندقية الصيد التي كان يصيد بها الوحوش .

ومنهم من أرجع أسباب انتحاره إلى تكالب الأمراض التي أنهكت قواه ، وأرته الحياة لا قيمة لها .

هذه الأسباب وغيرها كانت وراء انتحار الروائي الشهير (همنغواي) .

ولأن (همنغواي) مات منتحرًا ، كان ذلك مجدًا آخر أضافه إلى أمجاده الكتابية !

هكذا يرى البعض ممن يرون في الانتحار موقفًا وجوديًا يستحق التقدير على طريقة (الهراكيرى) اليابانية عند (الساموراي) .

عندما ألف (كولن ويلسون) كتابه الأعجوبة (اللامنتمي) كان يرى (همنغواي) لا منتميًا ، حيث كتب عنه في الكتاب نفسه تحت عنوان (عالم بلا قيم) :

يذكرنا كامو في (الغريب) بكاتب حديث آخر عالج مشكلة الحرية أيضًا ، هو أرنست همنغواي ، ذلك أن المستوى الذي تُرينا إياه (الغريب) هو نفسه ذلك الذي يتجلى في أقصوصة (وطن الجندي) غير أن مقارنتهما الواحدة بالأخرى توضح لنا أن أعمال همنغواي كلها لها دلالتها على مشكلة اللا منتمي الوجودي ،

إن مساهمة همنغواي في هذا الأمر تستحق الاهتمام من هذه الزاوية (١) .

إذًا (كولن ولسون) رأى بثاقب فكره ، أن أدب همنغواي وجودي ؛ لأنه يعالج مسألة انتماء الفرد إلى مجتمعه ، والتشاؤم الذي صبغ كتابات الكتاب بعد الحرب العالمية الأولى والثانية .

في روايته (سوف تشرق الشمس) ينهي همنغواي الرواية بهذا المقطع بين (جاك) وعشيقته (بريت) :

وبعد هنيهة قالت لي (بريت) :

– جاك . . كان من الممكن أن نعيش معًا أهنأ حياة .

فأجبتها قائلاً :

– أليس جميلاً أن يخامر المرء هذا الإحساس ؟

إذًا كانت السعادة والحياة الهنيئة هي هاجس همنغواي ، وقد كان متفائلاً بالحياة كثيرًا ، يقول (همنغواي) :

لم أكن أساسًا متشائمًا على الإطلاق ، رغم أن كثيرًا من القرّاء يعتبرونني كذلك ، ولقد حملت الحياة على محمل الجدّ إلى درجة جعلتني أتجه دائمًا نحو التفاؤل ، والتشاؤم مضيعة للجهد وعقوبة للمرء الذي لا يعرف كيف يعيش (٢) .

إذًا ما دام همنغواي بهذه النفسية ، وهذه النظرة ، لا يعدّ من الوجوديين واللا منتمين الذين لا يرون الحياة إلا تفاهة ، ويعيشون دائمًا على التشاؤم ، لكن همنغواي خلف في أدبه شخصيات وجودية مثل (كريبز) .

في قصة (وطن الجندي) التي ذكرها (كولن ولسون) وهو يعبّر عن نفسية الإنسان في بدايات القرن العشرين ، الإنسان اليائس في قصة (الشيخ والبحر) يقول همنغواي على لسان سنتياغو : لكن الإنسان لم يخلق ليهزم ، بالإمكان تحطيم

---

(١) اللا منتمي ص (٣٢) .

(٢) ماهر البطوطي (رواة وروائيون) ص (١٦٠) .

الإنسان ولكن ليس هزيمته .

فهل كان انتحاره يعدّ في نظره تحطيمًا لا هزيمة ؟ ومـا دام (همنغـواي) لـيس متشائمًا كما ذكر ، فلماذا انتحر إذًا ؟

يقول (أريك بنتلي) في كتابه الذي ترجمه جـبرا إبـراهيم جـبرا (الحيـاة في الدرامة) :

واليأس كثيرًا ما يكون على أشده فاعلية وهو على أشـده خفـاءً ، ويـستخدم المخدِّر : فالمرء قد يكون تحت أشد وطأته عندما يكون خَدِرًا لا يحسُّ بشيء .

ربما التفت ألمك إلى الماضي وما فعل فيه فقال : « لا بد أنني كنـت يائـسًا » ، ويرتعب حين يدرك أنه كان في حالة روحية كتلك وهو لا يدري ، يقول ثورو : « معظم الناس يعيشون حياة يأس هادئ » .

ما أصدق ذلك وما أبعده عما يعلموننا في المدرسة ! . معلمو مدارسـنا يعيـشون حياة يأس هادئ . . . وقد خرج أَحدُ معلميَّ يومًا ، وكان من أهدأهم وألطفهم ، وقتل نفسه — ولكنهم يعلموننا أهم لا يفعلون (1) .

لعل (همنغواي) كان يعيش هذا اليأس الهادئ لكنه كان يمنّي نفسه ويوهمها أنـه أكثر الناس تفاؤلاً ، وما درى أنه كان يخطّ مستقبله في شخصياته التي يبتكرهـا ، وهكذا هو الكاتب - حين يكتب - يبدع في رسم الشخصيات ، وأقدارها ، وما يدري أنه يغطُّ قلمه في محبرة المستقبل ، فيكتب قدره هو لا أقـدار الشخـصيات الوهمية التي يختلقها .

فالكتابة مُرْعبة ، والقلم كائن أسطوري ، يخدعنا حين يكون بين أصابعنا كالخادم اللطيف المطيع .

ونخدع أنفسنا حين نضعه في جيوبنا قريبًا من قلوبنا التي تنـبض فيـسجل كـل شيء ! .

---

(1) أريك بنتلي (الحياة في الدرامة) ص (٣٤٦) .

تمامًا كفرسان الإخائيين حينما جعلوا من الحصان الخشبي فخًا للطرواديين .

فجيوبنا هي حصان طروادة ، لهذا القلم الذي جاء ينقذ (هيلانة / الكلمة من حصون صدورنا العاتية ! وقديمًا قالت العرب : الكلمة في أسرك ، فإذا قُلتها دخلت في أسرها ! .

وويلٌ للكتاب الذين يدمنون الكتابة ، ويتحذلقون في تزويق العبارات ، كي تكون عبارات خالدة يستشهد بها الناس من بعدهم .

إن (مايكوفسكي) قال ذات مرّة (الحياة : علامة تعجّب ، تنتهي برصاصة) ، فمات منتحرًا بطلقة رصاص ! .

إنه كتب قدره بهذه العبارة ، التي أماتته وخلّدته في الوقت نفسه !! .

والشاعر العباسي (المتأمل) قال ذات يوم :

شفَّ المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يُخْلق له بصر

ففقد بصره بعد ذلك ، وكأنه كان يستعجل قدره بهذا البيت ! .

و (همنغواي) كان قد رسم نفسه في عدّة روايات فهو (جاك) السكّير المدمن على الخمرة ، الذي فقد فحولته ورأى الآخرين يعاشرون عشيقته كما في روايته (سوف تشرق الشمس) وهو (فردريك هنري) في رواية (وداع للسلاح) الذي عشق الممرضة (كاترين) ومارس معها الجنس ، ورآها متعة الحياة العظيمة .

وقد بلغ اليأس من همنغواي مبلغًا عظيمًا حين كتب قصته القصيرة (التاريخ الطبيعي للأموات) فقد صوّر الإنسان كالحيوان حين يدهمه الموت ، فلا فرق بين موت الإنسان وموت الحيوان ، ولا شك أن الحرب العالمية كان لها الأثر السيء على نفسيته لا سيما أنه شارك فيها ، وكان سائق إسعاف ، وهو بهذا يذكّرنا بفيلسوف القوّة (فردريك نيتشه) الذي أصيب بمرض لم يمكنه من المشاركة في الحرب التي دارت بين ألمانيا وفرنسا ، فكان يمرّض الجرحى ، فصار يطالب بالقوّة لما آلمه الضعف ، يقول همنغواي في قصة (التاريخ الطبيعي للأموات) : « معظم

الناس يموتون كالحيوانات ، لا كالبشر » .

بهذا يتضح لنا أن (همنغواي) كان منتميًا جدًا للحياة ، حيث كان يستمتع بكثير من ملذّاتها التي يراها لذة عظيمة كشرب الخمرة ، والملاكمة ، ومصارعة الثيران ، وصيد الأسماك ، وصيد الوحوش وغيرها .

لكنه أيضًا كان لا منتميًا للحياة ، حينما راح يهرب من هذه المتع الزائفة التي لا تدوم بل ولا حقيقة لها أصلاً ! فهو يقول على لسان (هنري) بطل وداعٌ للسلاح : « والغرابة التي تحس بها عند استيقاظك محاولاً أن تتذكر من كان معك ، بينما تجد العالم كله شيئًا لا حقيقيًا غارقًا في الظلام » [1] .

إذًا هو لا يرى المتع متعًا حقيقية ، وكان دائمًا يجد في الخمرة ملاذًا من الواقع المرير ، وبهذا يكون لا منتميًا ، فلولا بؤس الواقع وسوداويته ما لجأ إلى السّكّر الدائم الذي يغيبه عن الحياة ، ربما كان (همنغواي) يطلب القوة تمامًا مثل نيتشه ، لذا كان يهوى الملاكمة وصيد الوحوش ورؤية مصارعة الثيران ، لكنه لما مرض وهزل جسمه وصار وزنه (٦٥ ك) بعدما كان (١٣٦ ك) أحسّ أن الحياة لا قيمة لها .

فهو (أبيقوري) النظرة إلى السعادة ، فالسعادة عنده هي اللذة الحسية والمعنوية معًا ، و (أبيقور) حين قال بأن السعادة هي اللذة فإنه كان يعاني من ألم الكلى الذي يمنعه من اللذة الحسية ، لذا كان (همنغواي) يقول : والشهرة الخالية من السعادة تكون في أحسن أحوالها كالنكتة السخيفة والأشقياء دائمًا على خطأ [2] .

والموت عند (همنغواي) لا يزري بالعظماء بعدما وصلوا إلى شاطئ النجاة بما قدموا من أعمال جليلة ، يقول عن الموت : وقد أنجز أغلبية الرجال العظماء الذين ألهمهم الواجب عملهم وسط المعاناة والتجارب والصعوبات وقد صارعوا الموج

---

(١) كولن ولسون اللامنتمي ص (٣٥ - ٣٦) .

(٢) ماهر البوطوطي ص (١٦٠) .

ووصلوا إلى الشاطئ منهكين ليقبضوا على الرمال ويموتوا . لقد أدّوا واجبهم وأسعدهم أن يموتوا ، ولكن ليس للموت من سلطان على هؤلاء الرجال ، فذكراهم المباركة ما زالت باقية تهدئ من نفوسنا [1] .

إذًا الموت عند همنغواي ليس مرعبًا ما دام أن هؤلاء العظماء (أدّوا واجبهم وأسعدهم أن يموتوا) .

كذلك هو ، أسعده أن يموت ما دام أنه أدّى واجبه ! وهمنغواي يرى السعادة في العمل ، والشقاء في العجز عن العمل ، لذا لما عجز عن فعل أي شيء من جرّاء المرض الذي لازمه أحسّ أنه شقي ، والأولى أن يتخلص من هذا الشقاء / الحياة بالسعادة / الموت ! .

فهو يقول عن السعادة : والسعادة تكمن في العمل ، وكل القوى خلقت للعمل [2] .

في النهاية نقول : كان (همنغواي) محبًا للحياة ؛ لأنه كان معدودًا فيها ، ولما أحسَّ انه أصبح عبئًا على الحياة تخلّص منها .

لكنه ترك لنا أعمالاً أدبية رائعة ، وفلسفة مركزة ، وفوائد كثيرة في الحياة اليومية ، والحياة الكتابية ، وما تزال أعماله تُقرأ وتطبع الطبعات الكثيرة ، وتظل روايته (الشيخ والبحر) مدرسة للإنسان في صراعه مع الحياة ومع نفسه أيضًا .



---

(١) رواة وروائيون ، ماهر البطوطي ص (١٦٣) .

(٢) المرجع السابق ص (١٦٠) .

من الحكاية الشعبية إلى الرواية الحديثة

يأتي الإنسانُ إلى هذه الحياة جاهلاً لا يعلم شيئًا ، ليس لديه من زاد المعرفة إلا القدرة على الصُّراخ والزعيق ، ولعل ثدي الأُمّ هو الحياة التي يحسّها ويشعر بها ، قد اختصرت الحياة كلها بمتعها وملذاتها في هذا الثدي الذي يدرُّ الحليب صباح مساء .

وأول ما يحسُّه الإنسان من أجناس المعرفة هو الشِّعر ، فالأُمُّ تُهدهد ابنها كي ينام أو يسكتُ ببعض الأهازيج اللطيفة ، فتأسر الموسيقى الشعريةُ سمع الطفل فينصت إليها في سكون حتى تكون له جسرًا يفضي به إلى عالم الأحلام والرؤى ، وعندما يعي الطفلُ لغة أبويه تَحُلُّ الحكاية الشعبية محلّ الشعر .

وتحتال الأم على طفلها حين تجعل موعد الحكايا قبيل النوم ، لتكون الحكايات جسرًا إلى النوم والحلم أيضًا ، فيعيش الطفلُ الحكاية حُلُمًا جميلاً .

أيضًا تجعل الأمُّ من الحكاية الشعبية عالمًا خرافيًا تعيشه هي وابنها ، لتعوّض قساوة الواقع المعاش ، فالحكاية إذًا حُلمٌ كلّي تعيشه الأم وتُعيِّشُه الطفل وكأنها أحيانًا تقصّ لنفسها لا لطفلها إنما الطفل قناع بشري للراوي / المتلقي .

وحين نقارن بين الحكاية الشعبية التي هي من صنع المرأة – غالبًا – وبين الرواية الحديثة التي هي من صنع الرجل – غالبًا – نجد فروقًا كبيرة ، علمًا أن الرواية الحديثة هي بنت للحكاية الشعبية ومن معطفها خرجت ، كما خرج روائيو روسيا من معطف (جوجول) .

لكن الرواية الحديثة استرجلت – إن صحّ التعبير – فلم تعد شهرزاد / الأم والجدة ، هي الراوي في أغلب الأحيان ، بل أصبح شهريار / القاص والروائي هو الراوي بعدما كان متلقيًا في ثوب شهريار .

وخرجت بذلك الرواية من دهاليز غرفة شهريار وقصره إلى الفضاء الطلق ، فصار الناس كل الناس تتلقى هذا السرد : فلم يعد مقصورًا على شهريار فقط ، أو على

طفل صغير ، وكأن الحكايات كانت مرتبطة بالراوي / شهرزاد التي كانت تقبع في قصر شهريار ، فكانت الحكايات محجوبة بحجاب شهرزاد ، فلما صار شهريار / الروائي هو الذي يسردها ويرويها رأت النور وخرجت إلى العالم ، وكأن شهريار / القاص والروائي أخذ الحكايا الشعبية من شهرزاد / الأم والجدة فطوّرها ووسّع نطاق انتشارها بعدما كانت تدور سرًّا في دهاليز قصر شهريار ، ودُور الأُمهات والجدات ، إذًا فالروائي والقاص تلميذٌ تفوّق على أستاذه / الأم والجدة .

وبهذا لم تعد الرواية الحديثة كالحكاية الشعبية محصورة - تقريبًا - على تعليل الأطفال ، بل انتقلت إلى تعليل وتثوير - إن صح التعبير - الأبطال والأجيال ، كما فعلت رواية (عودة الروح) لتوفيق الحكيم بجيل ثورة ٢٣ يوليو في مصر .

ولم تعد الرواية مرحلية ، بل هي مفتوحة على مختلف الأعمار والأجناس .

ولم تعد الرواية وسيلة للعيش في الأحلام والاستسلام للواقع ، إنما أصبحت معول هدم للأحلام المنوِّمة ، فهي تطلب الأحلام وتحققها على أرض الواقع لا الحلم .

ووجهتها الحاضر والمستقبل ، وليس الماضي كما هو شأن الحكاية الشعبية التي تبدأ مشوارها بهذه العبارة : (كان يا ما كان في قديم الزمان) أو (كان يا ما كان في سالف العصر والأوان) .

فإذا كانت الحكاية الشعبية تتدثّر بالماضي وتلجأ إليه خوف الحاضر والمستقبل ، فإن الرواية الحديثة تركل - في أغلب الأحيان - الماضي وتعانق الحاضر والمستقبل معًا ! ؛ لأنها رؤية مسؤولة عن نفسها ، ومستعدّة لكل النتائج التي تعقب خطواتها .

ولأنها من صنع الرجل / المغامر بطبعه لا من صنع المرأة / الخائفة بطبعها ، كانت الحكاية الشعبية تتدرّع بالرمز في الغالب ، وتجعله قناعًا لقناعاتها ، والشاطر من الأجيال المتعاقبة من يفك شفرة الرمز ؛ لأن ذهنية الحاكي الشعبي ترى أنه لا يفك الشيفرة إلا رجلٌ شهم وهو الذي يعوّل عليه ، أما الرَّخم والبلداء فهم أبعد ما

يكونون عن ذلك .

كانت الحكاية الشعبية ترى البطولة مقصورة على شخص واحد ، والباقي (كومبارس) ، وهذا - والله أعلم - ناتج من أنّ أصل الراوي لا الحاكي امرأة ، لذا هي ترى البطولة في شخص الرجل الشهم ، أو المرأة الذكية صاحبة الدهاء والفطنة ، لكن عندما صار الرجل هو الحاكي والراوي تعدّدت البطولة والأبطال فصار الزمان والمكان أيضًا أبطالاً ، ودخلت الفلسفة والفكر بوصفهما وسيلة لتفسير الوجود ، وسبر أغوار النفس البشرية .

الحكاية الشعبية تتستر تحت عباءة ضمير الغائب ؛ لأن همّها هو تبرئة الذات والإفلات من إدانة الرقيب المتربص ، بينما الرواية الحديثة تجعل ضمير المتكلم هو الطاغي على السَّرد ، فهي لا تبرئ نفسها ، إنما تتشهى تجريم الذات ! رافعة بذلك صوتها .

الحكاية الشعبية تتكئ على الشعر ، وتطرّز به ثيابها ، فهي في حالة سلم وحب معه .

بينما الرواية الحديثة تقصي الشعر وتحاربه ، وهي تريد إسقاطه لتتربع بدلاً منه في قلب وذهنيه المتلقي .

والحكاية الشعبية تبالغ في الخيال حتى تجعله (فنتازيا) مستحيلة الصيرورة ، بينما الرواية الحديثة تجعل من الخيال حاديًا جميل الصوت ، يختصر مسافة الطريق الشاق ، وربما صار الخيال واقعًا معاشًا بعدما يقصي الواقع المرير .

والرواية الحديثة أكثر واقعية من الحكاية الشعبية ؛ لأن في ذهنية الراوي أنه يرسم طريقًا ويبني نصًّا ممكن التحقيق ، فهو يروي ليعيش ويعيّش المتلقي معه في واقع قريب الحدوث .

أما الحاكي الشعبي فإنه يحكي وفي ذهنيته أن ما يحكيه صعب الحدوث والإمكان ، وربما أدرك المتلقي ذلك ، وربما لم يدركه أثناء التلقي ، لكنه سيدركه حتمًا حين

يفاجأه الواقع باستحالة ما كان يحكى له .

والرواية الحديثة تجعل البطل هو المسؤول عن تغيير واقعه وتحضه على ذلك ، بينما الحكاية الشعبية تجعل للبطل عاملاً مساعدًا – على رأي (بروب) – يخرجه من أزماته ومشكلاته وربما كان العامل المساعد عفريتًا أو بساط ريح أو مغارة كمغارة (علي بابا) يحقق من خلالها أحلامه الوردية .

الحكاية الشعبية متصالحة مع جميع السلطات (السياسية – الدينية – الاجتماعية) بينما الرواية الحديثة في غالبها غير متصالحة مع هذه السلطات إنما هي تصنع لها عالمًا جديدًا وحياة جديدة ، فهي تقع في بؤرة (اللاّ منتمي) .

ويغلب على الحكاية الشَّعبية أن يكون البطل أنانيًا ، فالمحنة محنته هو فقط ، فإذا ما انتهت فلا محنة ولا مشكلة ، فإذا سَعُد البطل سَعُد معه الناس ، وإن شقي شقى بشقائه الناس .

بينما البطل في الرواية الحديثة يجعل من نفسه كبش فداء للأوطان والمجتمعات ، فهو وإن كان (لا منتميًا) بفكره ورؤاه لكنه غاية في الانتماء بشعوره وأحاسيسه .

والجميل أن الرواية الحديثة لما طوّرها شهريار / الروائي صارت شهرزاد / الروائية تكتب بحرّية أكثر ، وصار أسلوبها شهرياريًا أكثر منه شهرزاديًا .



نوال السعداوي . . . ثورة أنثى

ستظل نوال السعداوي اسمًا إشكاليًا في دنيا الثقافة ؛ لأنها كاتبة تجاوزت خطوط الجرأة الحمراء .

قال عنها جورج طرابيش أنها (أُنثى ضد الأُنوثة) وهي تؤكد أنها منذ طفولتها لم تضع (الماكياج) على وجهها قط ، لكنها رغم ذلك تعتبر نفسها نصيرة المرأة والإنسان أيضًا ، ولأنها في مجتمع عربي يقدِّس العادات والتقاليد ، وكذلك المعتقدات ، فقد تصادمت مع المجتمع والسلطة معًا .

دخلت السجن على أيام (السادات) وكتبت كتابها : (مذكراتي في سجن النساء) ، تقول في مقدمته : « لأنني ولدت في زمن عجيب يُساق فيه الإنسان إلى السجن ؛ لأنه ولد بعقل يفكر ؛ لأنه ولد بقلب يخفق للصدق والعدالة ؛ لأنه يكتب الشِّعر أو القصّة أو الرواية ، لأنه نشر بحثًا علميًا أو أدبيًا أو مقالاً ينادي فيه بالحرية أو له ميول فلسفية » [1] .

ونوال السعداوي صوتٌ متطرف في مناداته بالحرّية والعدالة ، فهي من هذه الناحية طوباوية ، فهي ترى أن الحرية تستوجب أن يقول الإنسان ما يحلو له قوله ، والعدالة تستوجب أن تَخْترق كل الأعراف والأحكام وأن يصبح الإنسان حرًّا تمام الحرية ، ولا شك أن هذه النظرة طوباوية كما ذكرت ، لكن مع ذلك كله تبقى نوال السعداوي قلمًا لا يستهان به ، وعقلاً جريئًا على اقتحام الأماكن المحظورة في المدينة العربية الفاضلة .

وفيها شبه كبير بـ (يراكساغولا) في مسرحية (أرسطوفان) - الإكليزيازوسيات ، حيث تبدو شديدة التحمس لنيل النساء حقوقهن السياسية ، وتتهم بنات جنسها بالغفلة ؛ لأنهن يرضين بأن يحكمهن الرجال البلهاء ، وتقترح

---

(١) مذكراتي في سجون النساء ص (١١) .

بأن تقسم الثورة بالتساوي بين المواطنين (١) .

ومع أن نوال السعداوي تعمل طبيبة إلا أنها تحب الأدب وترى نفسها فيه ، وقد فصلت من وظيفتها سنة ١٩٧٢م فتفرغت لإصدار العديد من كتبها ، وهي حريصة على حرب الظلم والاستبداد كما تكرّر ذلك في كل لقاء يجرى معها .

نوال السعداوي من أسرة مسلمة وأبوها خرّيج الأزهر ، وكذلك دار العلوم ، وقد طلقت مرتين .

ما يعجبني في كتاباتها : الوضوح والثبات على المبدأ – مع أنني أخالفها في أسلوب طرح مبدئها – ، هناك من يقول إنها (اشتراكية) لكنها تنفي عن نفسها هذه الصفة .

وتعدّ نفسها كاتبة حرّة ليست ملتزمة بحزب ما . من رواياتها : (سقوط الإمام) و (الحب في زمن النفط) و (الرواية) .

وهذه الأخيرة صارت عليها إشكالية عند رجال الدين من النصارى والمسلمين ؛ لأن بطلة القصة أو الرواية تحاكي شخصية مريم العذراء ، ولأن هناك عبارة في الرواية تستنكر كيف أن الفقراء يستجدون السماء ، لكن السماء لا ترد عليهم بشيء !! .

هذه هي نوال السعداوي أُنثى ضد الكلّ ، وليست ضد الأنوثة فقط كما وصفها جورج طرابيشي .

والعالم العربي يضج بأمثال نوال السعداوي من شريحة (الإنتلجنسيا) فهناك فريدة النقاش ، وغادة السمّان ، وفاطمة المرنيسي ، وليلى العثمان ، وعالية شعيب وغيرهن ، لكن مع تفاوت في درجات الفكر والجرأة في الطرح ، ولعلّ (هدى شعراوي) هي (الإقيانوس) النسائي الذي خرّج كل هذه الأسماء وغيرها ، وإن كانت (ولادة) بنت المستكفي سبقت (شعراوي) بقرون عدّة ، لكن كما قلت

---

(١) قصة الحضارة – ول ديورانت (٣٢٣/٧) .

كل له صوته وقدرته على تجاوز الخطوط الحمراء .



متى نشعر بروعة الحياة ؟

منذ القديم والنظرة إلى الحياة تتأرجح - كبندول الساعة الحائطية - بين التفاؤل والتشاؤم ، ولذلك انقسم الناس بين متفائل ومتشائم ، وربما صار المتفائل متشائمًا ، والمتشائم متفائلاً ، فبينما نسمع أبا العلا المعري يقول :

تعبٌ كلها الحياة فما أعجب إلا من راغبٍ في ازدياد

يخترق أسماعنا قول الأديب الساخر (جورج برناردشو) عن الحياة :

إنني أُحبُّ الحياة للحياة نفسها ، وليست الحياة عندي شمعة قصيرة الأجل ، بل هي شعلة متوهجة ، أُمسك بها ما دمتُ حيًّا ، ثمَّ أُسلمها للأجيال المقبلة على ما هي عليه من التوهج والتألّق [١] .

ولعلّنا نطرب لقول أبي العلاء تارة ، ونطرب لقول (برناردشو) تارة أخرى .

فالحياة تحملنا على التفاؤل والتشاؤم ، ولي بيتُ شعر أقول فيه عن الحياة :

نَسُبُّها تارةً مِنْ هول وطأتها وتارة نلثم الكفين والقَدَمَا

لكن نظرة التشاؤم تكون هي السائدة عند الكثيرين ، وفي رأيي أن الحياة لا تتكشّف لنا روعتُها وجمالها إلا في حالتين : الأولى : أثناء السفر ، والأخرى في السجن ! .

فالسفر هو قمّة الحرية التي يطمح لها الإنسان ؛ لأنه انعتاق عن الإنسان والمكان ، ولأنه يبعد الإنسان عن حياته الروتينية التي غدت كالسجن الذي لا قضبان له . والسفر هنا هو الحرية من هذا السجن .

تقول (شارلوت برونتي) صاحبة الرواية الشهيرة (جين إير) : ماذا أريد ؟ عملاً جديدًا في مكان جديدٍ ، تحت ظروف جديدة .

وهذا الذي تطلبه (برونتي) يتوفر في السفر دائمًا ، حيث تتغيّر الظروف

---

(١)

والأشخاص والحياة .

أما السجن فلأنه قمة الأسر والقيود ، لذا سمّاه (العقاد) عالم السدود والقيود .

في السجن يشعر السجين بأهمية حياته التي ودّعها وتركها ، فهو خارج الحياة وإن كان داخلها .

ولقد عبَّر (صالح بن عبد القدوس) عن حالة ونفسية السجين خير تعبير حين قال :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلا نحن في الأحيا ولا نحن في الموتى

إذا جاءنا السجّان يومًا لحاجة فرحنا ، وقلنا : جاء هذا من الدنيا

وتعجبنا الرؤيا ، فجلّ حديثنا إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا

إذًا يَشْعُر السجينُ بجمال الحياة حين يُهيمن عليه ظلامُ السجن ، وتزدرده أنياب الوحدة ، حينها يدرك كم كان محظوظًا بحريته عندما كان خارج السجن ، بالأمس كان متبرمًا منها ، لكنه الآن يراها بوجه آخر ، وجه جميل ، فإن كانت بالأمس تضاهي وجه (كازيمودو) في القبح ، فاليوم يراها أجمل وأروع من وجه (أزميرالدا) .

عندما كنت أقرأ رواية (الطاهر بن جلّون) - تلك العتمة الباهرة — استوقفتني هذه السطور :

« إن أكثر الأمور الاعتيادية تفاهةً ، تصبح في المحن العصيبة غير اعتيادية ، لا بل أكثر ما يرغب فيه من أمور الدنيا . . .

كم هي جميلة أشياء الحياة البسيطة ، وكم هي مرعبة حين لا تعود إلى هنا » [1] .

هذا الكلام كان يقوله السجين وهو يتحسَّر .

---

(١) تلك العتمة الباهرة ص (٢١ ، ٢٥) .

السجن ليس فقط انقطاعٌ عن الحياة ، بل هو عمى رهيب ، كلما فتحت عينيك فيه أكثر ازداد الظلام أكثر ! لأنك الآن فقط شعرت بالحياة ، واستيقظت من نومك العميق ، تمامًا كالموت تشعر معه بحقيقة الحياة وحقيقة نفسك ، لذا جاء في الحديث النبوي : « **الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا** » والسجن يشكّل نصف الموت ، وربما فاق الموت بكثير ! .

وكما أننا في النوم ندرك ما لا ندركه في الحياة ، فنرى أحلامًا تخبرنا بالمستقبل ، كذلك هو السجن نرى فيه أمورًا ما كنا نعهدها من قبل ؛ لأن الموت والنوم والسجن كل هذه الأشياء يتحرك فيها اللا شعور بحريّة .

فنشعر بحقائق الأشياء التي طمرتها رمال الشعور فأنستنا إيّاها .

يَحُنُّ السجين للحياة التي برم منها ، عندما انعتق منها فرآها على حالة أجمل ، إنه الحرمان الذي يجعل الأشياء جميلة ، وبمجرد ما يمتلكها الإنسان تفقد جمالها وبريقها ! .

يحتاج الإنسان إلى سفر أو سجن كي يشعر بجمال الحياة وروعتها ! .

وأنا أفضّل السفر على السجن ، وأظنك عزيزي القارئ تفضل ذلك أيضًا ! .

فالسفر فكٌ للقيود ، وإزاحة للسدود ، أما السجن فإضافة قيود أخرى على قيود الحياة الروتينية ، ومع ذلك فربما يصبح السفر روتينًا مملاً ، فَنَحِنُّ للأهل والأوطان والحياة التي برمنا منها ، وهربنا منها بالأمس !! .

إذًا فالروتين هو الذي يُفقد الحياة جمالها وبريقها ، سواء كان في السجن أو في الحياة المعتادة أو في السَّفر أيضًا .



صداقة القارئ لمن يقرأ لهم

عالم القراءة عالمٌ خرافي ، يحلو فيه الجنون ، وتسموا في سمائه الدهشة ، هو عالم علويّ وإن كانت الأرضُ أرضه ، والسماء سماؤه ، لكن المشاعر التي تزدحم في صدر القارئ تجعله يعيش عالمًا جديدًا ، وحياة مثيرة .

القارئ شخص محظوظ ، وإن شقي بقراءته .

إن جمع الكتب والذهاب إلى المكتبات ومصادقة البائعين فيها ، والاتصال بهم هاتفيًا بين حين وآخر للسؤال عن الجديد في عالم الكتب ، ومرافقة المثقفين القدامى ، والتعرّف عليهم والتصوير معهم ، ومراسلة الكتاب والشعراء الذين يعجب بهم القارئ ، كل ذلك عالمٌ خرافيٌ لا يقدّر عظمته ومتعته إلا من عاشه وصار كائنًا حيًا فيه ! .

إن عالم الكتب والقراءة عالمٌ صوفي ، القارئ فيه مريدٌ لأكثر من (عارف بالله) من المثقفين والمفكرين والفلاسفة ، وإن كان الصوفية لا يقبلون من المريد أن يُعدِّد ويكثر من المشايخ .

فالثقافة لا تعترف بهذا القانون ، بل تريد من المريد الثقافي أن يعدِّد ويكثر من التتلمذ على أكثر من كاتب وفيلسوف ! .

وإذا كان أرسطو يقول : (الدهشة مفتاح الفلسفة) فالقراءة مفتاح العبقرية ، والقرّاء يعيشون حياة لا يعيشها سائر الناس ، فالقارئ حين يكون وحيدًا يرى أن هذه الوحدة نعمة عظيمة ؛ لأنه سيشغل فراغه بقراءة كتاب أو كتابة خاطرة ، وإذا تحدث مع صديق له في الهاتف فإنهما سيتحدثان إما عن كتاب رائع قرأه أحدهما ، أو مناقشة مسألة ثقافية أو طلب إعارة كتاب ما .

والقارئ حين يتمشى لوحده فهو تلميذٌ صغير في مدرسة (المشائين) التي تنتسب لـ (أرسطو) .

إن عالم المثقف عالمٌ جميل ، فهو أبدًا مشغول بالكتب والمفكرين والشعراء وفلسفة

الحياة ، حتى في أحلك الظروف وأصعبها ترى المثقف مهمومًا بثقافته وعالمه القرائي ؛ لأن الحياة كلها اختصرت عنده في عُلْبة صغيرة اسمها (الثقافة) ! .

عندما كانت الحروب الصليبية تطحن الحجر والبشر ، كان (أبو حامد الغزالي) يؤلف كتابه (إحياء علوم الدين) ! .

وهذا (غوتيه) يأتيه أحد الأشخاص يحدِّثه بما فعله (نابليون) وموقف أوربا منه ، فيصرخ في وجهه غوتيه : أنا لا يهمّني ذلك ، إنما أسأل عن الخلاف بين سانت إيلير وكوفيه ولامارك عن أصل الأنواع وتطوّرها .

وكان غوتيه مهتمًا بأصل الأنواع قبل (داروين) الذي أخرج كتابه (أصل الأنواع) في عام ١٨٥٩م .

ويذكر عن الإمام مسلم بن الحجاج ﷺ أنه كان يفكر في مسألة دينية وهو يأكل التمر ، فما زال يفكر ويأكل حتى مات ! .

والأستاذ (أنيس منصور) ظل يكتب ذات مرة حتى أصيب بتجلّط في ساقه ، وعملت له بعد ذلك عملية ، فتخلص من الجلطة .

نعم ، إن المثقف مجنون ومهموم بعالمه ، ولا تسأله عن شيء آخر غير عالمه ، وأبراجه العاجية التي تضاهي جبل الألب .

يروى عن الإمام الشافعي أنه قال : « لو طلب مني أهلي شراء بصلة ، ما حللت مسألة » .

المثقفون لا يعلمون عن حياة الناس شيئًا خطيرًا ؛ لأنهم يعيشون في عوالم أُخرى ، فربما قصر بعضهم حياته على الأدب والأدباء ، فعاش معهم أحياءً وأمواتًا ، وربما عاش بعضهم في حقبة تاريخية قديمة فلا يخرج منها أبدًا .

فلهم عالمهم الخاص .

وهكذا كان فلاسفة الإغريق ، كان بعضهم لا يفرّق بين العملات أو النقود ، وكان الشراء والبيع من وظائف العبيد ، أما هم فلهم التأمل في الأفلاك ! والمثقف

القارئ يصادق الذين يقرأ لهم أكثر مما يصادق إخوانه وجيرانه .

وقد كتب بعض المثقفين كتبًا عن الكُتَّاب الذين تأثروا بهم وترسموا خطاهم .

فسلامة موسى كتب كتابه المعروف (هؤلاء علموني) ، وأنيس منصور كتب كتابًا سماه (عاشوا في حياتي) ، والشيخ محمد سعيد البوطي كتب كتابًا عَنْونه بـ (شخصيات استوقفتني) .

وأخيرًا كتب الكاتب الراحل عبد الوهاب مطاوع كتابًا اسمه (عاشوا في خيالي) .

وأتذكر الآن كيف كنت صديقًا للعقاد - عن طريق كتبه - (يرحمه الله) وكيف كنت أبحث عن كتبه وألتهمها التهامًا ، ولا أنسى فرحتي العظيمة عندما كنت أقرأ كتاب أنيس منصور (في صالون العقاد كانت لنا أيام) .

أيضًا سعدتُ كثيرًا بصداقة (طه حسين) والتعرف عليه عن طريق كتابه الرائع (الأيام) وقل مثل ذلك عن (علي الطنطاوي) و (عبد الرحمن بدوي) و (زكي مبارك) وغيرهم كثير .

وما أروع اللحظات التي التقيت فيها (الطيب صالح) ، (سميح القاسم) ، (أحمد سويلم) ، (يحيى السماوي) ، (علي عباس علوان) وغيرهم .

هذا هو عالم المثقف : أسماءٌ وأوراق وأفكار ! .



الإنسان وحبُّ الخلود

في أسطورة (جلجامش) السومرية نرى جلجامش يسعى حثيثًا لنيل الخلود في هذه الحياة ، وقل مثل ذلك عن (ذي القرنين) الذي ملك الدنيا ثم راح يبحث عن عين الحياة أو (ماء الحياة) كي يضمن الخلود في الدنيا ، كما في الأسطورة الشعبية والنص الديني يحدثنا عن آدم عليه السلام أنه لما رأى ابنه داود - ضمن ذريته التي أخرجت له من ظهره - قال : يا رب من هذا ؟ قيل له : هذا ابنك داود ، قال آدم : كم عمره ؟ قيل له : ستون سنة ، قال آدم : يا رب أعطه من عمري أربعين سنة ، فأعطاه . ولما جاء ملك الموت لآدم - وكان عمره ٩٦٠ سنة - يريد قبض روحه قال آدم : بقي من عمري أربعون ، قيل له : ألم تعطها ابنك داود ؟ .

فيعلق رسول الله ﷺ على هذه الحادثة فيقول : فنسي آدم فنسيت أمته ، وجحد آدم فجحدت أمته .

وقصة موسى (عليه السلام) مع ملك الموت يوم أن فقأ عينه لأنه جاء لكي يقبض روحه معروفة مشهورة .

كل هذه النصوص تبين لنا مدى كُرْه الإنسان للموت وحبه للخلود .

بل إن آدم نفسه عليه السلام ما أكل من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها إلا لأن إبليس قال له : ﴿ مَا نَهَـٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف] .

إذًا الخلود هو أملٌ عظيم للإنسان ، يتوق إليه ، ولا عجب ، فالإنسان عجنت طينته من تراب هذه الأرض ، فمنها خرج وإليها يعود ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة طه] .

ولأن الخلود هو غاية الإنسان في هذه الحياة ، لجأ إلى الخرافة لعله يجد فيها بغيته ، يحدثنا الألوسي في كتابه الرائع (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) أن بعض الجاهليين كانوا يعتقدون أن من يعلّق في رقبته شيئًا نجسًا لا يقربه الموت ! فراح الكثيرون يعلقون النجاسة في رقابهم رجاء الخلود في الدنيا ، لكن الموت لا يعترف بخرافات الجاهليين ، ولا خرافات الإنسان الذي يعلّل بها نفسه .

فهاهي امرأةٌ في الجاهلية قد نجّست ولدها الصغير فلم ينفعه ذلك ، فقد اختطفه الموت من بين أحضانها فقالت وهي تبكيه :

نجّسته ، لا ينفع التنجيسُ   والموت لا تفوته النفوسُ

وكان شخصٌ آخر اسمه أبو مهدية يعلّق في عنقه العظام والصوف حذر الموت [1] .

ولعلّ اليهود خاصة ، هم أكثر الأجناس البشرية حرصًا على الحياة ، وقد نعى الله تعالى عليهم حبّ الحياة لأجل الحياة فقط فقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [سورة البقرة : ٩٦] ، وقال أيضًا : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [سورة البقرة : ٩٦] ، ولعل هذا العدد هو أقصى ما يحلم به الإنسان حين يراوده حلم الخلود في الحياة .

تذكر كتب التاريخ أن تحية أهل فارس قديمًا كانت (هزار صال بماني) وتعني بالعربية تعيش ألف سنة ، ونحن اليوم نسمع البعض إذا أراد أن يخاطب شخصية لها مكانتها في المجتمع يردّد هذه العبارة (طال عمرك) .

ولعل هذه العبارة أفضل ما يقال ، ويدعى به لشخص له مكانته العالية .

وكان العرب المسلمون إذا دخلوا على أمرائهم وقادتهم قالوا لهم في أدب جمّ : (أطال الله بقاء الأمير) .

ورحم الله جدّي فقد كان يقصّ عليّ – وأنا طفل صغير – قصة تلك الأم التي

---

(١) بلوغ الأرب (٣٥/٢) .

تدعو في صلاتها كل يوم : (اللهم خذ روحي قبل روح ابني محمد) فلما جاءها الموت قالت : يا رب روح محمد قبل ! .

وهذه القصة تشبه كثيرًا قصة تلك الأم - على عهد نوح (عليه السلام) - عندما أغرق الطوفان الأرض فكانت ترفع وليدها كي لا تُدركه مياه الطوفان ، فلما أحست المرأة بمياه الطوفان تغمر رأسها وضعت الوليد تحت قدميها لتعيش بعده ولو إلى لحظات ! .

هكذا هو الإنسان يعشق الخلود ويستميت في الحصول عليه لكن كما قال أبو الطيب :

ومن لم يعشق الدنيا قديمًا ولكن لا سبيل إلى الوصالِ



(شمشون الجبار) من منظور سيميائي

ذكر الطبري في تاريخه عن شمشون : وكان من أهل قرية من قرى الروم ، قد هداه الله للرشد ، وكان قومه أهل أوثان يعبدونها ، فكان من خبره وخبرهم - فيما يذكر - ما حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحاق ، عن المغيرة بن أبي لبيد عن وهب بن منبه اليماني : أن شمشون كان فيهم رجلاً مسلمًا ، وكانت أمّه قد جعلته نذيرة ، وكان يغزوهم وحده ، ويجاهدهم في الله ، فيصيب منهم وفيهم حاجته ، فيقتل ويسبي ، ويصيب المال ، وكان إذا لقيهم لقيهم بلحى بعير لا يلقاهم بغيره ، فإذا قاتلوه وقاتلهم تعب وعطش انفجر له من الحجر الذي مع اللحى ماء عذب فيشرب منه حتى يروى ، وكان قد أعطى قوة في البطش ، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره ، وكان على ذلك يجاهدهم في الله ويغزوهم ويصيب منهم حاجته لا يقدرون منه على شيء حتى قالوا : لن تأتوه إلا من قبل امرأته ، فدخلوا على امرأته فجعلوا لها جعلاً فقالت : نعم أنا أوثقه لكم ، فأعطوها حبلاً وثيقًا وقالوا : إذا نام فأوثقي يده إلى عنقه حتى نأتيه فنأخذه ، فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بذلك الحبل ، فلما هبَّ جلبه بيده ، فوقع من عنقه فقال لها : لما فعلت ؟ فقالت أجرِّبُ به قوَّتك . ما رأيت مثلك قط ، فأرسلت إليهم أني قد ربطته بالحبل ، فلم أغن عنه شيئًا ، فأرسلوا إليها بجامعة من حديد فقالوا : إذا نام فاجعليها في عنقه ، فلما نام جعلتها في عنقه ثم أحكمتها ، فلما هبَّ جذبها فوقعت من يده وعنقه ، فقال لها : لِمَ فعلتِ هذا ؟ قالت : أجرِّب به قوتك ، ما رأيت مثلك في الدنيا يا شمشون ! . أما في الأرض شيء يغلبك ؟ قال : لا ، إلا شيء واحد ، قالت : وما هو ؟ قال : ما أنا بمخبرك به ، فلم تزل به تسأله عن ذلك - وكان ذا شعر كثير - فقال لها : ويحك إن أمي جعلتني نذيرة فلا يغلبني شيء أبدًا ، ولا يضبطني إلا شعري ، فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه ، فأوثقته ذلك ، وبعثت إلى القوم فجاؤوا فأخذوه ، فجدعوا أنفه وأذنيه وفقأوا

عينيه ، ووقفوه للناس بين ظهراني المئذنة ، وكانت مئذنة ذات أساطين ، وكان ملكهم قد أشرف عليها بالناس لينظروا إلى شمشون وما يصنع به ، فدعا الله شمشون [حين مثّلوا به ووقفوه] أن يسلطه عليهم . فأمر أن يأخذ بين عمودين من عمد المئذنة التي عليها الملك والناس الذين معه فيجذبهما ، فجذبهما فردّ الله عليه بصره ، وما أصابوا من جسده ، ووقعت المئذنة بالملك ومن عليها من الناس فهلكوا فيها هدمًا .

التحليل :

أول ما يلفت نظرنا في النص أن شمشون من قرية رومية ، والروم معروفون بقوّة الأجسام وعظمتها ، وقد انعكس ذلك على منحوتاهم وتماثيلهم الفنية ؛ لأنهم أهل لذّة حسّية .

جاء في النص كلمة : (قد هداه الله لرشده) وهذا يوضح أن قوة شمشون الجبار مستمدة من الله ﷻ ، وبذلك يرتفع شمشون عن مستوى الإنسان الطبيعي .

ولعلّ الراوي أراد بهذه اللفتة أن يجعل مبرّرًا مقبولاً عند المتلقي الذي سيدهش بالكم الهائل من الخوارق والمتناقضات ، إذًا شمشون ليس إنسانًا طبيعيًا .

وعبارة (وكان قومه أهل أوثان يعبدونها) تعلن أن الفئة القليلة المؤمنة تغلب الفئة الكافرة الكثيرة ، وهنا يضعنا الراوي أمام مفارقة كبيرة وهي أن نتائج الحرب بين شمشون وقومه غير متوقعة لكنها مدهشة أيضًا ، وهذا ما يريده الراوي ! ؛ لأنه يريد أن يحطّم في دواخلنا العبارة التي حفظناها وهي (الكثرة تغلب الشجاعة) .

النصّ عند الطبري يغيّب الأب أي والد شمشون فلا يشير إليه من قريب أو بعيد ، بل يجعل الأم هي سيدة الموقف .

(وكانت أمه قد جعلته نذيرة) فكأنّه هنا يمثّل المسيح وأمه مريم العذراء ! .

فلا ندري هل والده كان على قيد الحياة أم توفي منذ زمن ؟ أو كان مسافرًا ؟ كل ذلك يغيّبه النصّ ليقول لنا إن هذه الظاهرة البشرية العجيبة صنيعة امرأة ضعيفة ،

فمن الضعف خرجت هذه القوّة .

فالأم استمدت القوة من الله تعالى عندما جعلت ابنها نذيرة لكن سير النص سيقول لنا أيضًا أن الضعف يخرج من القوة لتتأكد نظرية علماء الاجتماع من أن كل شيء يحمل نقيضه معه .

وليس العجيب أن يقاتل عدوّه لوحده ، إنما العجيب أو الأعجب أنه (إذا لقيهم لقيهم بلحى بعير لا يلقاهم بغيره) ويؤكد الراوي في آخر العبارة أنه (لا يلقاهم بغيره) .

ولحي البعير هو العظم الذي عليه الأسنان ، أي الفك ، وهنا أيضًا مفارقة عجيبة إذ كيف يتمكن من مقارعة السيوف بهذا اللحي ؟ لكن لا تتم المعجزة والأدهاش إلا بهذه الغرائبية ، وهذا ملمح من ملامح السير الشعبية التي تقوم على الإغراق في (الفنتازيا) ؛ لأن عالم السيرة الشعبية مغاير للعالم الواقعي الذي يعيشه كلاً من الراوي والمتلقي على حدٍّ سواء ، والمتلقي تطربه هذه (الفنتازيا) ؛ لأنها قشة جميلة تنقذه من واقعه المرير غالبًا .

ولا أدري لماذا حلّ لحي البعير محل السيف ، فالروم لا تحتفل بالبعير وليس من مراكبها ، فهل كان الراوي يريد مجاملة المتلقي العربي الصحراوي ، الذي يحتفل بالبعير ويراه سفينة الصحراء ؟ .

ومعلومٌ أن (وهب بن منبه) كان من أبناء الفرس الذين جاءوا إلى اليمن أيام (سيف بن ذي يزن) ويسمّون (الأبناء) ، وقد عاش (وهب) في صنعاء . أم أنَّ الراوي كان يريد المفارقة لا غير ، ورأى في لحي البعير الضعف والحقارة لا القوّة والمضاء ؟ فكما أن شمشون خرج من امرأة ضعيفة صار كذلك يقاتل بالسلاح الضعيف المتمثل في لحي البعير ؛ لأن الضعيف يصبح قويًا ما دام قريبًا من شمشون .

فهذا اللحي صار أقوى من السيوف ؛ لأنه في كف شمشون وليس لأنه لحي بعير ،

وهذا الأمر يذكرنا بقول (عمرو بن معد يكرب) الزبيدي لعمر بن الخطاب : لا تعجب من (الصمصامة) سيف عمرو المشهور .

ولكن اعجب من اليد التي تضرب بها .

إذًا شمشون الجبار يقاتل القوي بالضعيف فيهزمه ، وهذه مفارقة مدهشة .

إلا أن الراوي عندما قال عن لحي البعير : (لا يقاتلهم بغيره) احتاج إلى معجزة أخرى ، فأضاف (الحجر) فهو يقول : (فإذا قاتلوه وقاتلهم وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذي مع اللحي ماء عذب فيشرب منه حتى يروى) ، وهنا يذكرنا بقصة موسى عليه السلام عندما ضرب الصخرة فانفجرت منها اثنتا عشرة عينًا .

وقوله : (تعب وعطش) وإن كانت تشوّش على المتلقي قوة شمشون وأسطورته إلا أنه سرعان ما يذهب هذا التشويش من ذهنية المتلقي عندما تأتي المعجزة التي بعدها وهي انفجار الماء العذب من الحجر فيشرب منه شمشون حتى يروى .

وهنا يشارك اللحي والحجارة شمشون البطولة ولا شك أن هذه البطولة الشمشونية لا يقف أمامها شيء ، وهكذا يؤكده الراوي : (وكان قد أُعطي قوة في البطش وكان لا يوثقه حديد ولا غيره) .

وهنا يهيئ الراوي المتلقي لمعجزات وخوارق ستأتي في الطريق .

وبعد أن تعب أعداؤه معه اهتدوا إلى حيلة الحيل وهي : (لن تأتوه إلا من قبل امرأته) .

وهنا تغيب صورة الأنثى الأولى المتمثلة في الأم ، صانعة هذا التمثال البشري ، لتحل محلها أنثى أخرى هي الزوجة فهي الوحيدة القادرة (والغادرة) على تحطيم هذا التمثال الرهيب .

وهنا تقفز إلى أذهاننا قصة (آدم وحوّاء) وأن الشقاء والنهاية تأتي من الداخل وليس من الخارج بل حتى الدول لا تسقط إلا بسبب العدوّ الداخلي وهو أقرب

قريب .
وهكذا سيكون الحال مع شمشون الجبار ، فهذه القوّة الجبارة الـتي صـنعتها الأم ستحطمها أنثى أخرى وهي الزوجة ، وعلى غرار المثل القائل (لا يفل الحديد إلا الحديد) .
يقول الراوي : (فدخلوا على امرأته فجعلوا لها جعلاً) . وهكذا حـين يـتمكن العدو من اختراق خصمه عن طريق أقرب الطرق المؤدية إليه ، وربما تحصَّن الخصم من كل شيء إلا من القريب ، وقديمًا قالت العرب : من مكمنه يؤتى الحذر .
وتتبدّى خبرة الراوي وذكاؤه حين يجعل المقابل (جعلاً) فهو لم يذكر لنا ماهيـة هذا الجعل فجعله نكرة .
وبذلك يكتسب من روح النصّ المفارقة فهو قد يكون جعلاً عظيمًا وقـد يكـون حقيرًا ، لا سيما أن شمشون كان يغزو عدوّه (فيقتل ويسبي ويصيب المال) .
فأي جعل سيغري هذه الزوجة (دليلة) ما دام زوجها يسبي ويصيب المال ؟ ولماذا تخونه وهي تعلم أن المال سينقطع عنها عندما ينتهي زوجها أو يعتقل ؟
فلماذا الخيانة إذًا ؟ ترى هل كان شمشون يميل إلى غيرها من الـسبايا ! فقـررت الانتقام ؟
ربما يكون ذلك فهذا هو السبب الوحيد الذي يمكن أن يبرّر خيانـة (دليلـة) ، وهناك سؤال مهم وهو : لماذا قالت دليلة : نعم أنا أوثقه لكم ؟! .
لماذا لم تقل : أنا أقتله أو أنا أضع له السمّ ؟ لماذا اختارت الوثاق ؟! .
هل هم طلبوا ذلك منها ؟ النصّ لم يذكر ذلك أبدًا ، لكن الراوي يريد أن يـسرد خوارق أخرى ليكتمل مسلسل الدهشة في ذهنية المتلقي ولا يتأتى ذلك إلا بخلـق تأزمات أخرى في طريق البطل ، تعقبها انفراجات لا تخطر على بال المتلقي .
وربما كانت فكرة الإيثاق والاعتقال من الأعداء كي يشفوا غليلهم من عـدوّهم الذي نكّل بهم ، وبالفعل أعطوها الحبل فلم ينفع ، ثم جامعة الحديد فلـم تجـدِ ،

ونلاحظ هنا أن السلاح الذي استخدم ضد شمشون جاء من العدوّ الخارجي ، لذا لم يفلح مع شمشون فلما لجأت (دليلة) إلى سلاحها هي سلاح المكر والدهاء تمكنت من اعتقال هذا الجبّار .

والغريب أن شمشون في كل مرّة يكتشف فيها زوجته توثقه كان يقتنع بعذرها ، وهذا دليل على أن أغلب الجبّارين من البشر ، يعتمدون على قوة أجسامهم وعضلاتهم أكثر من قوة تفكيرهم ، وتأملاتهم ، فكأن العقل والقوة نادرًا ما يجتمعان .

لذلك لما مَدَح نبيٌّ زمان طالوت (طالوتًا) قال عنه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٧] ولا شك أنها زيادة ؛ لأنها تخالف المألوف .

وأغلبنا يحفظ قول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم ... جسم البغال وأحلامُ العصافير

وكانت (دليلة) في كل مرّة تخيب محاولتها وتفشل ، تقول لزوجها : أختبر قوتك ، ما رأيت مثلك في الدنيا يا شمشون ، أما في الأرض شيء يغلبك ؟! .

فكان يطرب لهذا القول ويسامحها ، ولعلّ من نقاط ضعف الأبطال أنهم يحبون الإطراء ، وهذا ما يعميهم عن خدع أعدائهم والمتربصين بهم .

ولا شك أن الإطراء إذا جاء من أنثى أصاب المقتل ، وقديمًا قيل :

إذا لعب الرجال بكل شيء ... رأيت الحبَّ يلعب بالرجالِ

وعندما قالت له : أما في الأرض شيء يغلبك ؟ قال لها : لا . وكان يكفيه هذا الجواب الذي كان سينقذه من شرّ مكرها ، لكن خمرة الإطراء الأنثوي لعبت برأسه ، فأراد أن يدهشها ، كما أدهشنا ، ولا يزال ، الراوي ، فقال لها : ويحك إن أمي جعلتني نذيرة فلا يغلبني شيء أبدًا ، ولا يضبطني إلا شعري .

فكانت نقطة القوة – وهي الشَّعر – التي افتخر بها هي نقطة الضعف أيضًا التي ستقضي عليه .

يقول الراوي : وكان ذا شعر كثير .

ولا شك أن هذه الصفة أنثوية أكثر منها ذكورية ، وكان شمشون يعلم أ نقطة القوة عنده هي نقطة الضعف فيه ، لذلك كتمها حتى عن زوجته ، ويتضح هنا أن شعر شمشون أقوى منه ، لكنه توارى في النص خلف قوة شمشون ، لكنه سيظهر بعد قليل على مسرح النص أنه هو الأقوى وسيتوارى شمشون وقوته ، وهاهو شمشون يبوح بالسر الذي كتمه طويلاً ، ولعل المتلقي يعجب كيف يكون الشعر الحقير أقوى من الإنسان العظيم شمشون ؟ .

ولضعف الشعرة قال معاوية بن أبي سفيان : (لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعت . . .) .

ولما أدركت (دليلة) سرّ ضعف زوجها وقوته أيضًا أوثقته [عندما أوثقه النوم بحباله] بشعره وتمّ لها المراد ، فدعت أعداءه فجاءوا فأخذوه وجدعوا أنفه وصلموا أذنيه وفقأوا عينيه .

وهنا أسأل : لماذا لم يحلقوا شعره ؟

هل لأنه أصبح سلاحهم ضد شمشون والذي سيضعه عند حدّه ؟

هذا ما حدث بالفعل فقد انقلب شعر شمشون سلاحًا فتّاكًا بيد أعدائه .

ولأن الشعر صفة أنثوية فهو استعارة مكنية عن الأنثى .

فالنص يريد أن يقول : إن الأبطال لا تكون نهاياتهم إلا على يد النساء ، والتاريخ يصدّق هذا القول .

وإذا تحدثنا عن رمزية الشعر فهو في الأساطير يعني قوّة حيوية لصاحبه ، وربما دل على عمره ومصيره ، فإن طال شعره طال عمره ، وإن قصر شعره قصر عمره ، كذلك هو عند مفسري الأحلام دالٌّ على الهمّ ، فمن طال شعره طال همّه ، ومن

قصر شعره قصر همّه ، وشمشون حين طال شعره ، فقد طال همّه وغمّـــه بعـــدوه وزوجته التي خانته .

وكان من عادة الفرسان في الجاهلية أنهم يطيلون شعورهم ويتركونها بلا حلـــق ، فكان الفارس يتباهى بشعره فإذا ما سقط أسيرًا عند عدوّه ، حلقوا له شـــعره ، أو جزّوا ناصيته ؛ إمعانًا في الهوان والخزي ، لكن شعر شمشون هنا ، غدا قيدًا له ، فلو حُلِق كان ذلك بمثابة فك القيد ، هذا شيء ، وهنا شيء آخر وهو أن راوي القصة أو النص لا يريد أن تنتهي الأحداث بهذه المأساة فقط ، لكن هناك أحداثٌ أخرى تعقب هذه الأزمة ، فهم بعدما جدعوا أنفه ، وصلموا أذنيه ، وفقأوا عينيه أوقفوه للناس بين ظهراني مئذنة فأشرف عليها الملك ، وبينما الناس تنظر إلى هذا البطـــل الأسطوري الذي وقع في الفخ دعا شمشون ربَّه أن يسلطه عليهم .

والنص يبين لنا أن شمشون له مصدران للقوة ، مصدر ذاتي ومصدر آخر هو عامل مساعد يتمثل في عناية السماء لا يمكن إثاقها بأي شيء .

وبالفعل يستجاب له ، فيؤمر بأن يمسك عمودين من عمد المئذنة ويجذبهما إليـــه ، وبالفعل ترد إليه قوته وكل ما أخذ منه فتسقط المئذنة ويهلك قومه وملكهم .

وللمعلومية فإن اسم (شمشون) يعني خادم إله الشمس ؛ لأن إله الـــشمس اسمـــه شمش أو شمس .

وفي قضاة بني إسرائيل من تسمى بـــ (شمشون) وقصته تـــشبه قـــصة شمـــشون الروماني كثيرًا .



الألم وحاجة الإنسان إليه

عندما نبصر صاروخًا فضائيًا ينطلق باتجاه السماء وخلفه ألسنة من اللهب وغمامات من الدخان ، ندرك ساعتها أنه لولا هذه النار ما انطلق هذا الصاروخ بهذه السرعة والقوة .

كذلك الإنسان - ولا سيما المبدع - لولا الألم الذي يعتريه في هذه الحياة ، ما أحبَّ اللذة وسعى لها سعيها .

يحدثنا الكاتب الكبير توفيق الحكيم في قصته الرائعة (عصفورٌ من الشرق) أن بطل القصة (محسن) ، وجد عبارة منحوتة على قاعدة تمثال الأديب الفرنسي (الفريد دي موسيه) تقول : لا شيء يجعلنا عظماء سوى ألم عظيم .

وحين نقرأ حياة (موسيه) نجده بالفعل عاش الألم في حياته ، خصوصًا مع حبيبته الأديبة (جورج صاند) التي تركته مريضًا في (إيطاليا) ، وأحبَّت الطبيب الذي جاء يعالجه !! .

لكن (موسيه) أصبح اسمًا خالدًا في دنيا الأدب العالمي ، ولولا أنه ذاق الألم لكان شخصًا عاديًا ، لكن لا يعرف حقيقة الألم إلا العظماء .

عندما ثار الرومانسيون على الكلاسيكية ، كان أحد شعرائهم يقول : **المرء طفل يهديه الألم ، لا شيء يسمو بنا قدر ما تسمو الآلام .**

ضرورة الألم تكفل لصاحبه حياة فريدة ، لا يعرف لذّتها إلا هو ، هذا هو الشاعر (لوركا) يقول : « كم هو مؤلم أن لا تتألّم ! » .

هكذا يحبِّب لنا هؤلاء المشاهير طعم الألم الذي ذاقوه ، والحياة كلها آلام ، وللألم ألف وجه ووجه . والألم كالحب عند (نزار قباني) لو لم نجده على الحياة لاخترعناه .

وهناك من يخترع الألم كي يجد متعة الحياة .

فالدموع حين تترقرق على الخدين لها لذّة ربما فاقت لذة الابتسامة حين تصبغ

الشفاه ! .

وللزفرات والآهات لذّة لا يشعر بها إلا من عصرته ، فطهرته من جموده واحتقانات مشاعره ، ورحم الله العالم (ابن حزم) كان يتأسف على نفسه ؛ لأنه لا يستطيع البكاء وإذراف الدمع .

وكان يقول ربما قطع الألم كبدي وقلبي لكنني لا أستطيع البكاء ، وأرجع سبب ذلك لكثرة أكله لفاكهة (الكُرْفس) .

والألم هو الذي ينشئ الأفكار ، وينظّر للفلسفات ، ويحمل صاحبه على رؤية جديدة للحياة .

فأغلب العظماء والمشاهير كانوا يعانون من أمراض مستعصية حملتهم على التنظير والتفكير .

فأبيقور قال بفلسفة اللذة ؛ لأنه كان يعاني من ألم الكلى ، وصارت له مدرسة فلسفية ومريدون كثيرون ، كل ذلك بسبب الألم ، و (نيتشه) قال بفلسفة القوةّ ؛ لأنه كان يعاني من المرض والضعف حتى إنه ما استطاع أن يشارك الجيش الألماني في القتال ، فكان يتألم لذلك ، وكان في آخر حياته يعاني من نوبات الصرع ، لكنه عرف بعدها بفيلسوف (إرادة القوةّ) .

الألم هو الذي جعل (كلر) الصمَّاء العميان أن تصل إلى ما وصلت إليه .

والألم جعل الخطيب العظيم خطيب أثينا (ديموستين) يفرض اسمه وكان عييًا لا يكاد يبين ، و (طه حسين) كما قلت آنفًا تألم فتعلم .

إذًا نحن لا شيء دون الألم ! .

لو سألنا أنفسنا : لماذا نحن نعشق صوت الناي ؟ ونطرب للقصائد التي تحكي الهجر والخيانة ؟ .

لا شك أن الجواب سيكون لأنها تؤلمنا وكفى ! .

إنسانٌ لا يتألم هو تمثال من لحم ودم ! .

وشاعرٌ لا يتألم هو جهاز تسجيل لا غير .

يقول صلاح عبد الصبور : « أنا لست شاعرًا حزينًا ، لكنني شاعرٌ يتألم » .

ولولا الألم عند الشاعر ما كان لشعره عذوبة وإحساس .

الألم : هو شعورٌ يُشعرنا بأننا أحياء .

إن (أرسطو) أكّد على الاهتمام بالتراجيديا ؛ لأنها كما يقول : تعلم الإنسان الصبر والجلد .

والألم : معاناة عصيبة لكنها تخرج الإنسان بتجارب ما كان له أن يجدها لولا المرور بصهريج الألم .

يذكر (محمد مندور) في كتابه (الأدب ومذاهبه) أن فنانًا إغريقيًّا [1] أراد أن يرسم (بروميثيوس) ذلك الإله الإنسان كما تزعم الأسطورة ، والذي سرق جذوة المعرفة وحملها إلى البشر ، فغضبت عليه الآلهة الكبرى المتمثلة في (زيس) فعاقبته بأن ربطته في صخرة في جبل القوقاز ووكّلت به نسرًا ينهش كبده في النهار ويتركه بالليل ، فإذا عادت الكبد من جديد عاد النسر إلى نهشها من جديد .

فلما أراد الفنان الإغريقي أن يرسم تقاطيع وجه (برمثيوس) وكيف ينهكها الألم لم يجد بُدًّا من أن يأتي بأحد العبيد ويكويه بالنار ليرى علامات الألم في وجهه ، وبالفعل رسم اللوحة فلما علم اليونانيون بتعذيب ذلك العبد غضبوا على الفنان ، وطالبوا بمعاقبته ، لكنهم لما رأوا اللوحة وجمال تصويرها للألم سكتوا عن الفنان العظيم !! .

إن الألم الذي جرَّعه الفرسُ لليونانيين بكثرة غزواهم وقتالهم لهم هو الذي أخرج لنا هذه الحضارة العريقة ! .

هو الذي أخرج فلاسفة السفسطائيين وطاليس وسقراط و (فدياس) النحّات الأعجوبة ، وأفلاطون وأرسطوا و (هوميروس) و (هزيود) و (ديموستين)

---

(١) الفنان الإغريقي هو (بارازيوس) وهو أثيني وأصله من أفسس . انظر : الجنس والفزع ص (٣٣) .

خطيب أثينا ، و (سفوكليس) و (اسخيليوس) و (أرسطو فان) و (هيرودوت) و (سافو) وغيرهم .

ومن الذين تألموا فوصلوا إلى العالمية وعرش الخلود (أبو الطيب المتنبي) فإنه رجل الآلام ، لكنه رجل الخلود أيضًا ، يكفيه قوله :

أرق على أرق ومثلي يأرق ... وجوى يزيد وعبرةٌ تترقرق

هذا هو الألم الحقيقي : أرق على أرق ، وجوى يزيد وعبرة تترقرق .

المبدعون يجدون من الألم أضعاف ما يجده غيرهم ؛ لأنهم أوعى الناس بالحياة ، والوعي : ألمٌ محبَّب للنفس وليست كل نفس لكنها نفس المبدع .

هاهو الجواهري نهر العراق الثالث يقول عن معاناته ومدى ألمه حتى في نومه وأطيافه :

لو تعلمين بأطيافي ووحشتها ... وددت مثلي لو أنَّ النوم يجفوني

أجسُّ يقظان أطرافي أعالجها ... مما تحرَّقت في نومي بأتّونِ

نعم إن الشاعر مادة سريعة الاشتعال ، إذا رأى وجهًا جميلاً اشتعل ، وإذا سمع نغمة عذبة اشتعل ، وإذا صودرت حريته اشتعل ، فهو دائم الاشتعال حتى في نومه هو كومة من رماد يتوقَّد ! .

قال : (أنا تول فرانس) ذات يوم : أنا أرضى من الله بكل شيء إلا الألم .

وما درى المسكين أن الحياة بأسرها ما هي إلا لحظات ألم تعقبها لذَّة عظمة !! .

إن الله جل شأنه يخاطب رسوله الكريم ومن معه بهذا الكلام الرائع فيقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [سورة البقرة] .

إذًا لا دخول للجنة – دار النعيم – إلا عن طريق باب الألم !! أو الباب الضيّق

كما جاء عن المسيح عليه السلام .
حينما يعاني الفقراء الألم يقشعر جسد الحياة ، وربما تدمع أعين السماء ، ولكن لا بدَّ من الألم كي تعقبه اللذات ، وألم الفقير أفظع كارثة تحل بالأرض .
بكاء الفقير زلزل كيان عمر بن الخطاب ، فجعله يحَمل أكياس الدقيق على كتفيه ، وينفخ في النار حتى تخلّل الدخان من بين لحيته .
نعم ، بكاء الفقراء أقوى من هزيم الرعد ووميض دموعهم أشد رعبًا في القلب من وميض البرق ، لكنهم حين يموتون يكون الموت بالنسبة لهم أجمل الهدايا وأثمنها !!.
في رواية (قصة مدينتين) لـ (شالز ديكنز) يدهس الماركيزُ طفلاً فقيرًا ، فيقف الماركيز ويوبِّخ الفقراء ، ثم ألقى عليهم قطعة ذهبية ثمنًا وتعويضًا عن دهس الطفل ، فلما أراد أن يذهب صرخ أحدهم : لقد مات ، ووجم الناس ، فقال (ديفارج) : أعرف أنه ربما كان من الأفضل لهذا الطفل الفقير أن يموت بدل أن يبقى حيًا .
لقد مات في لحظة ألم ، هل سيعيش من دون ألم ؟! فكأن (الماركيز) سرَّ هذا الكلام فألقى على (ديفارج) قطعة من الذهب ، فما إن ابتعد الماركيز عن مكان الحادث إلا وسمع صوت القطعة يرنّ في عربته .
لعلَّ ألم العشاق والمحبين هو الألم الذي نسمعه صباح مساء من خلال القصائد والأغنيات ، والمحب والعاشق غالبًا ما يكون مازوخيًا في مشاعره ، فهو يتلذذ بتعذيب ذاته في سبيل رضا المَحبّ .
تمامًا كما يفعل صوفية الهنود بأجسامهم ، فهم يعذّبونها ليجدوا لذّة ونعيم (النيرڤانا) وهو الاتحاد بالمطلق ، فهم : يجعلون أجسادهم قرابين لهذه الحالة التي يحلمون بها وتجارب العشاق في دنيا الألم كثيرة .
ويهمني في هذ المجال قصة (يوهان غوتيه) (آلام فرتر) فإن البطل حين أحبَّ (شارلوت بوف) كانت مخطوبة لغيره ، وكانت تستلطفه ، فلما صَعُبَ عليه

الاقتران بها ، والظفر بقلبها ، دخل في دوامة من الألم حتى انتحر البطل في النهاية بأن أطلق على نفسه رصاصة من بندقية كانت معه .

المهم أن غوتيه قال بعد ذلك : « لقد تألمتُ كثيرًا ولكن الألم كان كالشمعة التي أضاءت نفسي ، وأثارت مواهبي وهاأنذا أعود سليمًا معافى كما كُنت » .

هكذا يصنع الألم بصاحبه لا يُبْعده عن أحضانه حتى يُتَوِّجَه بتاج التجارب العظيمة التي تجعل منه شخصًا غير عادي .

قديمًا قال الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوي من صديقِ

وجاء آخر وقال مبينًا فائدة ألم المصائب والشدائد :

جزى الله الشدائد كل خير   وإن جرَّعني غصصًا بريقي

وما مدحي لها حبًّاً ولكن   عرفتُ بها عدوي من صديقي

في مسرحية (فاوست) يصوِّر (غوتيه) لنا شقاء الفيلسوف والعالم حين لا يجد في العلم كل ما يحتاجه ، هنا يطلب السحر الأسود والشعوذة ، ويتحالف مع الشيطان ويستطيع من خلال هذا التحالف أن يصل إلى مبتغاه .

يقول غوتيه في أحد مقاطع المسرحية على لسان الدكتور (فاوست) :

أيها البدر المنير

ليت هذه آخر مرة تراني فيها .

أعاني هذا الألم المبرِّح .

هكذا يكون حال الفيلسوف حين يفر من الألم إلى اللذّة يجد أنه (فرَّ من الموت وفي الموت وقع) .

لقد تألّم (آدم) عليه السلام حين أخرج من الجنة ، وتألّم (إبليس) حين طرد من رحمة الله تعالى .

لكن ألم (آدم) قاده إلى الله تعالى ، وألم (إبليس) قاده إلى الابتعاد عن الله

والطرد من رحمته .

فلتكن آلامنا كألم آدم أبينا العزيز الذي رأى في الألم لذّة ، وهي مناجاة الله حين قال : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف] .

❖ ❖ ❖ ❖

أسطورة الحيّة والعقاب

أسطورة الحية أو الثعبان والعقاب ، من الأساطير العالمية التي وجدت مسكوكة على بعض النقود ومنقوشة على بعض المعابد ، وهي ترمز إلى صراع الخير / العقاب ، والشر / الثعبان . وإن شئت فقل ترمز لصراع الروح / العقاب ، والمادة / الثعبان .

يقول (فيليب سيرنج) عن هذه الأسطورة العالمية : ذلك هو رمز الصراع للقوى السماوية ضد القوى الجهنّمية ، وللمعركة بين الخير والشر ، والصراع بين الليل والنهار ، وللنزاع بين الهواء والأرض الممثلة بعلاماتها المناسبة – العقاب الذي يحلق عاليًا ، والحية التي لا تترك الأرض – أي بين الروح والمادة (١) .

وإذا تأملنا هذه الأسطورة نراها تحمل في طيّاتها الإيمان بأن العُقَاب يمثّل الخير وهو العالم السماوي والثعبان يمثّل الشر وهو العالم الأرضي ، أي الإنسان ، وفي سيرة ابن هشام تتبدّى لنا حادثة هدم قريش للكعبة ، فإنهم كلما همّوا بهدمها (كانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم ، فتتشرق على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشّت وفتحت فاها ، وكانوا يهابونها ، فبينا هي ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائرًا فاختطفها ، فذهب بها فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا ، عندنا عامل رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحيّة (٢) .

فقول ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق : (**بعث الله إليها طائرًا**) وقول قريش : (**إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا**) يدل على أن عرب الجزيرة يعتقدون

---

(١) الرموز في الفن والأديان والحياة ص (١٨٢) ، ترجمة : عبد الهادي عباس .

(٢) سيرة ابن هشام (١/١٤٢ – ١٤٣) .

بهذه الأسطورة ، فالطائر جاء من السماء ، والسماء رمز الخير ، فالله ﷻ في السماء ، والغيث يتنزّل من السماء ، فناسب أن يكون الطائر جاء من الله أو بعثه الله لتخليص قريش من الحية ، أما الأرض فرمز الدونية والحية ملازمة للأرض ؛ لأنها لا تملك – في الغالب – ما يرفعها أو ينقلها عن الأرض ، فناسب أن تكون شرًّا ، والجن سكّان الأرض ، والحية تتشكل بها الجن أيضًا .

وفي النص لم يذكر ما هو هذا الطائر ، لكن يورد ابن هشام أبياتًا على لسان الزبير بن عبد المطلب جاء فيها :

فلما أن خشينا الرّجز جاءت عقابٌ تتلئبُّ لها انصبابُ

إذًا الطائر كان عُقَابًا ، وكما أن أبرهة الأشرم وجيشه عوقبوا بالطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، ناسب أن يكون جزاء هذه الحية أن يكون هلاكها على يد الطائر / العقاب ؛ لأن أبرهة قد تمّرد والحية قد تمرّدت والمتمرد هو الشيطان والهدف هو الكعبة في كلا الحالتين ، وفي الآية الكريمة : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الصافات] ، وهي نوع من الحيّات .

إذًا كانت قريش تمثّل في هدمها للكعبة الخير ، أما الحية فكانت تمثّل في منعهم من الهدم الشرّ ! .

بعكس ما في قصة أبرهة وجنوده ، فإنه كان يمثّل الشر في إرادته هدم الكعبة ، وقريش تمثل الخير في غضبها ودعاء عبد المطلب عليه عند جدار الكعبة ! وبذلك يكون العقاب في قصة هدم قريش للكعبة رحمة ، وتكون الطير الأبابيل في قصة الفيل عِقابًا ، ولك أن تنظر ما بين العُقاب والعِقاب من التشابه والاختلاف ! .



المتنبي ذلك الشقي السعيد

عندما ترجم ابن خلكان لأبي الطيب المتنبي قال عنه : « ولا شك أنه كان رجلاً مسعودًا ، ورزق في شعره السعادة التامّة » [1] .

لكننا حين نذكر المتنبي لا يتبادر إلى أذهاننا إلا الشقاء الذي عاناه في حلّه وترحاله الذي أوصله إلى الموت على يد (فاتك الأسدي) .

إذًا المتنبي رغم شقائه ومعاناته كان رجلاً مسعودًا على رأي (ابن خلكان) ، ترى لماذا كان المتنبي شقيًا سعيدًا ؟! . ولماذا صار الضاحك الباكي ؟

يقول الشاعر (شللي) : القوة تُسمِّم كل يد تَمَسُّها ، والمتنبي من الذين مسّت – بل قبضت – أيديهم القوة .

فسُرَّ بها مدة من الزمن ، لكنها بعد ذلك سَمَّمَتْه فقضت عليه ، وهكذا هو فعل القوّة مع الأفراد والجماعات والدول .

المتنبي قوته كانت في ضعفه ، وضعفُه كان في قوته ! .

ربما تكثر علامات التعجب خلف كل عبارة أكتبها ، لكن ذلك ليس غريبًا ما دام الحديث عن أبي الطيب ؛ لأنه أعجوبة الشعر العربي ، كان – وما يزال – يدهش بشعره وحياته ونفسيته كلَّ من يقرأ له وعنه .

وعن علامة التعجب يقول : (مايكوفسكي) الحياة علامة تعجّب تنتهي برصاصة .

فصدّق القدر قوله ، فمات (مايكوفسكي) منتحرًا برصاصة أطلقها على نفسه !! .

قوة المتنبي ناشئة من ضعفه ؛ لأنه خرج من العراق فقيرًا أو مسكينًا ، فهو ابن سقّاء .

---

(١) وفيات الأعيان (١٢١/١) .

هذا الضعف الاقتصادي هو سرّ قوته الشعرية ؛ لأنه أراد أن يعوض هذا الضعف بقوة الشاعرية وسموّ الكبرياء ، أليس هو القائل :

وإني لمن قوم كأنّ نفوسهم بها أنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما ؟

ولما علا نجم شعره وأوصله إلى بلاط سيف الدولة ، كثر حساده ، وبلاط السلطان بستان ينبت فيه الحسد ؛ لأن الوافدين إليه لا يكفيهم إلا أن يملكوه وحدهم ويضيرهم أن يشاركهم أحدٌ فيه .

وعندما كثر حسَّاد المتنبي طلب من سيف الدولة أن يزيلهم عنه :

أزل حسد الحسّاد عنّي بكبتهم فأنت الذي صيرتهم لي حُسَّدا

وما درى المتنبي المسكين أن سيف الدولة هو رأس الهرم في هؤلاء الحسّاد ! ، فقد حسده على روعة شعره ؛ لأن سيف الدولة شاعرٌ قبل أن يصبح سيفًا للدولة وحاكمًا ! .

والعجيب أنه ولد في السنة نفسها التي ولد فيها أبو الطيب وهي سنة ٣٠٣هـ .

كان سيف الدولة حين يستمع لشعر أبي الطيب المتنبي يتأرجح بين اللذة والألم ، بين السعادة والشقاء ، ومصدر ذلك أنه يسعد بهذا الشعر ؛ لأنه قيل فيه ، ويتألم ويحزن أنه لم يكن هو صاحبه وقائله !! .

فسيف الدولة إذًا حسد المتنبي على جودة شعره ، وفخامة نفسيته ، ولا شك أن سيف الدولة أحسّ أن المتنبي أميرٌ لا تاج له ، وأمارته هي أمارة الشعر ، فهو أمير الشعراء بما فيهم سيف الدولة الشاعر ، وهذا بلا شك يغيضه ، لذا لما كثر حُسَّاد أبي الطيب وزاحموه على بلاط وقلب سيف الدولة ، لم يكبتهم سيف الدولة كما طلب منه أبو الطيب ، بل سكت عن ذلك [وحادثة أبي الطيب مع ابن خالويه عندما ضربه بالدواة أو بقطعة حديد فشج رأسه ، تدل على تشفّي سيف الدولة من المتنبي] .

وعندما نمعن وننعم النظر في قصيدة المتنبي الميمية وهي (وداعية) المتنبي لبلاط

سيف الدولة ، فإننا نشعر بكبريائه حتى على سيف الدولة .

سيعلم الجمع ممن ضمَّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قَدَمُ

ويتضح حزن المتنبي وإحساسه بنفرة سيف الدولة منه في البيت الذي يقول فيه :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالرَّاحلون هُمُ

لقد كان سيف الدولة يحلم أن يكون أمير الدولة الحمدانية في يوم من الأيام ، وقد تحقق هذا الحلم ، لكنه حلم أيضًا أن يكون أمير الشعراء في شعره ، وهذا الذي لم يتحقق بوجود أبي الطيب المتنبي .

لذا كان سيف الدولة يتقازم في قرارة ذاته حين يقف المتنبي أمامه وينشده شعرًا يجعله يتقلّب بين السعادة والشقاء كما ذكرت .

ولا أظنني مبالغًا إذا قلت وزعمتُ أن المتنبي هو الآخر ، كان حاسدًا لسيف الدولة ! .

نعم ، لقد كان يحسده على عرش الإمارة الذي حلُم به المتنبي ، ومات وعينه عليه .

كان المتنبي يرى أن نفسيته نفسية أمير ، لا شاعرٍ صعلوك ، يجري خلف الدينار والدرهم وحسب ، وهذا هو الذي جعل المتنبي وسيف الدولة يصطدمان ببعضهما ؛ لأن كلاً منهما وجد أن نصفه الآخر موجود مع الآخر !! .

فأحبَّا بعضًا وكرها بَعْضًا !! .

كان المتنبي يودُّ أن شعره ومدحه في سيف الدولة يكون فيه هو ، لا في سيف الدولة .

لذا أخلص المتنبي المديح في سيف الدولة ؛ لأنه كان حين ينشد الشعر ينشده أمام مرآة اسمها سيف الدولة ، يبصر المتنبي وجهه فيها ! .

نعم ، لقد كانا فحلين لم يتسع لهما المكان ، فتفرقا من أجل الوصال ، وبقيت الذكرى الجميلة هي التي تجمعهما .

لقد ابتلي سيف الدولة بالمتنبي ، وابتلي المتنبي بسيف الدولة ، فكلٌ منهما أمـير ، ولا يجتمع سيفان في غمد كما تقول العرب .

وأبو جعفر المنصور لما استشار أحد وزرائه في أمر أبي مسلم الخراساني قـال لـه الوزير : يا سيدي : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٢] فأعجب المنصور بهذا الاستشهاد ، وقتل ساعده الأيمن أبا مسلم الخراساني .

يقال أن سيف الدولة قال في إحدى جواريه لما حسدها صويحباتها فهجرها وهـو محبٌ لها :

ربَّ هجر يكون من خـوف هجـر وفـراق يكـون خـوف فـراق

ولا أظن هذا البيت إلا صالحًا ودليلاً على ملابسات العلاقة بين سـيف الدولـة وشاعرها المتنبي .



غادة السّمّان .. اللغة المتسكعة والعناوين المدهشة

عادةً يعرف الناس بأسمائهم ، وملامح وجوههم وملابسهم ، أما (غادة السَّمان) فتعرف بلغتها المتميزة عن كل لغة .

لغتها لغة متسكعة كبوهيمية ترتاد الشواطئ بـ (المايوه) أو كوجوديّ يجلس على كراسٍ في مقهى (الحيّ اللاتيني) بكل تلقائية ووضوح ، لغتها أُنثى تتخذ من الخيال / الذكر سمسارًا لأفكارها وعواطفها .

من يعتاد قراءة كتب غادة السّمان لا يقرأ لغيرها ! وإن قرأ أحسَّ أنه انتقل من الحضارة إلى البدائية .

حروف غادة السّمان أصابع من شمع تكسب من يقترب منها ويقرأها الضوء والدفء .

غادة تملك عليك فكرك وخيالك بصورها التلقائية العظيمة ، قصصها تغمس رأسها في أتون الواقع ، وتعمِّده بالنار فتخرجه وقد جمع بين الجمال والرُّعب ! جمال اللغة مقرونًا برعب التصوير الحَدَاثي .

عناوين غادة السمان تنبئ عن تكثيف رائع يحمل في طياته العديد من الأفكار والاحتمالات ، لو قيل لي اختصر غادة السمان في كلمة واحدة لقلت : (التمرُّد بالجمال) .

نعم هي متمردة ووسيلة تمردها هو الجمال ، الجمال في اللغة وفي الأسلوب وفي الأفكار .

وأنت حتى لو لم تتفق معها في فكرة ما ، إلا أنك لا تتملك نفسك من الإعجاب بلغتها وتصويراتها المدهشة ، وأنسنتها للأشياء .

عناوين غادة السمان سواءً في كتبها أو مقالاتها تحمل المتلقي على الاندهاش وربما الابتسامة التي تنم عن إعجاب بهذا الابتكار في اختيار العناوين مثل (القبيلة تستجوب القتيلة) هذا العنوان للكتاب عبارة عن مقابلات صحفية أجريت معها ،

لكن غادة بهذا العنوان تجعل الوطن العربي وذهنيته قبيلة لها أعرافها وزعماؤها وعاداتها وتقاليدها .

كلها احتشدت لكي تستجوب هذه الأنثى المتمردة على النسق العشائري / القبلي .

(السباحة في بحيرة الشيطان) عنوان ينبئ عن تمرد خطير حيث هي سباحة ، والسباحة حركة بكل أعضاء الجسد وأين ؟ في بحيرة الشيطان ، هذا الاسم الذي تلعنه البشرية جمعًا وليس العربي فقط ، لهذا كله جعلت غادة السَّمان في مقدمة الكتاب هذه العبارة (مصارحة) قالت في مستهلها :

هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهمّه ذلك ، كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ، ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

وتقول عن العمل الفني بكل صراحة تنم عن روح متمردة تنغمس في الخطيئة هروبًا من التفكير :

أعتقد أن العمل الفني كالخطيئة لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها .

هكذا هي غادة السمان تخلف وعدها حين تعدك بالوضوح ! وتفي به في بعض الأحيان .

لا همَّ لها إلا تصدير الصداع والثورة من رأسها إلى رؤوس قرّائها .

حينما تكتب تظنها لاعبة سيرك تمشي على حبل ممدود في السماء ، فأنت تعجب بها تارة ، وتشفق عليها تارة أخرى .

وهي – غادة – كاتبة تتقن إبراز أنوثتها بجدارة ، فيتقزَّم أمام قامتها الذكور والإناث جميعًا ! جعلت من العبارات العادية قنابل عنقودية ، ترمي بها خنادق توقعاتنا ، فتحيل من فيها أشلاءً على أرصفة الذهول .

خذ هذه العناوين بوصفها أمثلةً على ما أقول :

(أعلنت عليك الحب) لا شك أنك كنت تتوقع أن تقول : الحرب بدل الحب ، لكنها أسقطت الراء وكأنها (واصل بن عطاء) المعتزلي ، حين يسقط الراء من كلامه خشية الوقوع في فخ اللثغة الشنعاء التي ابتلي بها .

أيضًا (الجسد حقيبة سفر) لك أن تتأمل هذا العنوان الأخّاذ ، حينما يكون جسدنا حقيبة نحملها معنا ، أو تحملنا هي في جوفها ! .

هكذا هي لغة (غادة السّمان) متمردة متسكعة على أرصفة الإدهاش .



مصطفى أمين - وقبعة الحاوي

قراءة كتب مصطفى أمين مشوقة جدًا ، فكيف الكتابة عنه وعن مؤلفاته الفريدة ؟ .

حينما أقرأ مصطفى أمين أشعر بسخرية فيلسوف تنبعث من بين سطوره ، وأُحسُّ بالحكمة تأتي كضربة قاضية من يد ملاكم باغت خصمه فجأة .

نعم هكذا هي كتابات مصطفى أمين ، وجدت هذا الإحساس حين قرأتُ كتابه الرائع : (أسماء لا تموت) .

في هذا الكتاب عرفت الوجه الآخر للعظماء والمشاهير ، وأنهم يعانون من الشقاء وشظف العيش ما يفوق معاناة الفقراء ذاتهم ! ذلك أنهم يحلّقون في سماء الشهرة والثراء ، وفجأة يسقطون على رؤوسهم إلى حضيض الفقر والتهميش .

وإن شئت فاقرأ ما كتبه عن (أنور وجدي) ذلك الفنان الذي أدهش الناس – ولا سيما الفتيات – بفنّه ووسامته حتى قلّد قصة شعره أو تسريحته أغلب الشباب في الوطن العربي آنذاك .

وفجأة يقول عنه مصطفى أمين :

وكان يقول لي : أضعت شبابي بحثًا عن الحب ، فلما التقيت بالحب لم أجد الشباب ، وحرقت دمي وأعصابي بحثًا عن الفلوس ، فلما جاءت الفلوس ذهبت الحياة ! إنني مستعدٌ الآن أن أعود فقيرًا وأجوع من جديد ، وتعود لي صحتي ! خذوا العمارة وأعطوني صحتي وشبابي .

هكذا يصوّر لنا مصطفى أمين مأساة الفنان الكبير : أنور وجدي بعدما مرض بالسرطان وخسر فنّه وزوجته ليلى مراد وحياته أيضًا ! .

إن مصطفى أمين في كتابه (أسماء لا تموت) قد رسم لنا أساطير من لحم ودم ، تذكرنا بأساطير اليونان مثل : أوديب و (سيزيف) و (أياس) و (بروميثيوس) فكل هؤلاء كانوا ضحايا العبقرية والتفوّق ، وكذلك كان أنور وجدي وفاطمة

رشدي ونجيب الريحاني و (العقاد) و (توفيق الحكيم) وغيرهم ممن ذكر مصطفى أمين في كتابه الرائع والمؤلم في الوقت نفسه .

وحين تقرأ كتابه (مسائل شخصية) تجد أيضًا ضحايا للعبقرية أمثال (درية شفيق) التي انتحرت في آخر حياتها بعدما قضت (١٨) عامًا تحت الإقامة الجبرية سنة ١٩٧٥م .

وكذلك تجد مأساة عبد الحليم حافظ وكامل الشنّاوي .

إن مصطفى أمين حين يكتب عن الحياة يصوّرها في أجمل صورة ، لكنه حين يكتب عن ضحاياها يجعلها أقبح في أنظارنا من (كازيمودو) أحدب نوتردام ! .

ومن كلماته التي هزّتني وأعجبتني كلمته التي قالها عن المطربة (منيرة المهدية) في آخر أيامها حين كبرت وقد حضر لها حفلة غنائية أجبرته على حضورها (أم كلثوم) فيقول عن صوت (منيرة) :

كان صوتها أشبه بالأسطوانة المشروخة ، فقد صوتها حلاوته وبحّته ورخامته وجاذبيته .

كانت أقرب إلى ملكة محنّطة في تابوت ترى فيها الماضي الخالد ولا تجد من أثر الحاضر سوى التراب ! .

وحين يسخر فإنه يأتي بالعجائب فهو حادّ السخرية ، اسمعه وهو يقول عن عبد الفتاح يحيى حفاظ الذي جاء بعد إسماعيل صدقي وهو رجل يعتز بكرامته ، تحني له رأسك وتنزع منه جاكتته ، وتغمره بالمديح والثناء فتنزع منه بنطلونه ! وهو لا يهمه إذا فقد القميص والجاكتة والبنطلون والحذاء ما دام طربوشه على رأسه ! [1] .

وحين تقرأ القصص التي ينتزعها من الواقع تشعر أنه كالحاوي الذي يُخرج من قبعته أرنبًا وأشياء أخرى ، ومع ذلك تشك في حقيقة ما رأيتَ !! ؛ لأن الأسلوب

---

(١) من عشرة لعشرين ص (٣٨٦) .

الذي يحيك به قصصه أسلوبٌ رائع ومؤثر ببساطته وسهولته الممتنعة .
وهو رجل مقصودٌ من الجميع الرجال والنساء ، فالكل يرى فيه صدرًا حانيًا ، وتجربته الصحفية هيأت له هذا الزخم من القصص والمواقف ، وكان يشكل مع أخيه وتؤمه علي أمين ثنائيًا رائعًا في الصحافة المصرية آنذاك .
ومن كتبه الرائعة (سنة أولى سجن) و (سنة أولى حبّ) .
وكذلك كتابيه : (من واحد لعشرة ، ومن عشرة لعشرين) .
وهي سيرة ذاتية تحدّث من خلالها عن أحداث مصر التي عاصرها ، وهما كتابان رائعان في مضمونهما .
وقد دخل في معركة مع المطربة (نجاة الصغير) بسبب مقال كتبه بعنوان (من قتل كامل الشنّاوي ؟) ، وقد رفعت عليه المطربة نجاة قضية في المحكمة لكنه كسبها في الأخير .
وقد دخل السجن وعانى من التعذيب أيام جمال عبد الناصر لا سيما على يد الجلاّد (حمزة البسيوني) الذي عُرف بغلظته وجبروته ، وقد رآه (نجيب محفوظ) ذات يوم داخلاً أحد المقاهي وهو يقصد إحدى الطاولات ، فلما سأل عنه الجرسون أخبر أنه حمزة البسيوني . يقول نجيب : فكتبت بعد رؤيتي له روايتي (الكرنك) ، وقد مثّلت فيلمًا ناجحًا قام ببطولته كمال الشنّاوي ونور الشريف وسعاد حسني .
مصطفى أمين له كتاب اسمه (أفكار ممنوعة) وهو عبارة عن مقالات منعت من النشر ، كان قد كتبها لبعض الصحف العربية .
وفي هذا المقال لا أنسى ما كتبه الكاتب أنور الجندي في كتابه (الصحافة والأقلام المسمومة) ، فإنه أعطانا وجهًا آخر لمصطفى أمين ، ربما يجهله كثيرون من القراء ، وأنا أورده هنا والعهدة على أنور الجندي ، فإنه يقول :
إن كتابات مصطفى أمين تقف في قوة في وجه الشيوعية ، ولكنها تخدم الديمقراطية الغربية ، والكتابات الأخيرة بعد السجن تكشف عن ظاهرة عميقة الدلالة هي

(الجنس الصارخ) ونحن ندهش كيف يمكن أن يحدث ذلك بعد ارتفاع السن ، وكيف يجمع المتناقضات بين قصة جنسية وعامود (فكرة) بما يحمل من اتجاه إلى الله أحيانًا ودعوة إلى الخير (١) .

وأقول في نهاية المقال : إن كثيرًا من الكتاب والمشاهير يكتنف حياتهم الغموض ، فيقال عنهم من المدح ما ليس فيهم ، ويقال عنهم من القدح ما ليس فيهم .

ومهمتنا نحن القراء أن نأخذ ما ينفعنا ويثقفنا وحسب .



(١) أنور الجندي ، الصحافة والأقلام المسمومة ص (١٠٤) .

الإنسان وظاهرة الحياة

قبل مجيئنا إلى الحياة ، كنا خلايا نائمة في ظهـــر آدم (عليه السلام) لم نـــشعر بالحياة بَعْد ، إلى أن وصلنا إلى ظهور الآباء وترائب الأمهات ، ونحـــن في غيبوبـــة تامّة .

ولما استقررنا في أرحام الأمهات ، كنّا أيـــضًا بعيـــدين عـــن صـــخب الحيـــاة وضوضائها ، ومرارة أقدارها وحلاوتها .

كنا سعداء بموتنا الفطري ! كنا سعداء بِعَدَمنا البدائي ، اتخذنا من (اللا شـــيء) حديقة غنّاء ، نطارح أطيارها (العَدَمية) الألحان والأنغام .

وكنّا مسرورين خلف قضبان الأرحام ، حتى جاءنا سجّان (الطلـــق) الجبّـــار ، فأخرجنا مطرودين من جنّة الأرحام إلى دنيا الوجود .

فكأن كلّ واحد منا آدم جديد يُطْرد من عالم الخلود إلى دنيا الفناء والموت .

في بعض الأحيان أسند رأسي إلى الجدار ، محاولاً تذكر حياتي في صلب آدم ! لكن للأسف يأتيني إشعارٌ من شاشة الذاكرة يقول : (الذاكرة فارغة) ! .

أحاول بعد ذلك تذكر عالمي الذي فقدته في عالم الأرحام لكنني عبثًا أحاول .

فأعلم حينها أن (شريحة) الذاكرة في عقلي لم توضع إلا في أول يوم خرجت فيه إلى الحياة ، فما أقسى الذاكرة حين لا تُسعفنا بتذكّر ما عشناه في عوالم العدم ! .

في بعض الأحيان أحاول تذكّر المستقبل ، لذا أسكب فنجان قهـــوة للحاضـــر ، وبعدما ينتهي من احتساء القهوة أنظر في فنجانه لعلّي أســـتطلع مـــستقبله ! ؛ لأن مستقبله هو مستقبلي أيضًا ، فما أنا إلا أيام كما قال (الحسن البصري) قبـــل أن نأتي إلى الحياة كانت الحياة جميلة بدوننا .

وكنا سعداء بدونها ، ما عرفنا الشقاء إلا بعدما تعرّفنا على بعض ! .

نعشق الحياة حتى الموت ، فإذا نزل بنا الموت ألقونا في القبر وهالوا علينا التراب .

كما كان المتنبي واعيًا وساخرًا بمصير الإنسان حين قال :

يـــدفن بعـــضنا بعـــضًا وتمـــشي   أواخرنـــا علـــى هـــام الأوائـــل

وكم كان أبو العلاء المعري متألمًا حين قال :

خفّف الوطء مـــا أظـــن أديم الأرض   إلا مـــــن هـــــذه الأجـــــساد

رب قبر قـــد صـــار قـــبرًا مـــرارًا   ضـــاحك مـــن تـــزاحم الأضـــداد

هكذا نحن بعدما أتينا إلى الحياة ، وهكذا نصير حين نغادرها .

ميلادنا مأساة ، وحياتنا مأساة ، ورحيلنا مأساة ، ولولا إيمان الإنسان بالله تعـــالى وأنه يرجو رحمته وجنته ، لطارت عقولٌ وطاشت ، من عظم وفداحـــة الوجـــود وسيرورة الزمن وفعله فينا .

إن كبير السن حين يشاهد صورته أيام شبابه ليعيش مأساة ما بعـــدها مأســـاة ، فالحنين إلى الماضي هروب من الموت .

إنه يسأل نفسه : هل كنت هكذا حقًا أم أنني كنت أحلم فاستيقظت ؟ فحقـــيقتي هي أنني شيخ كبير ، وأن شبابي ما كان إلا حلمًا لا واقعًا ! .

كتب أحد الأدباء الصينيين أنه رأى نفسه ذات يوم في المنام وقد تحوّل إلى فراشه ، فلما استيقظ قال لا أدري هل كنت فراشة تحوّلت إنسانًا أم أنني إنـــسان تحـــوّل فراشة ! .

تمامًا هكذا يشعر كبير السن حين ينظر إلى صورة التقطت له أيام الشباب .

إننا حين نتخلّص من كل شيء كان لنا في الماضي من ثياب وأثـــاث وســـيارات وأحذية وأصدقاء وأمكنة وحكايات وعلاقات وعادات وغير ذلك ، إنما نحن نقتل أنفسنا بأيدينا ، ولكن ماذا نفعل وقدرنا هكذا .

ربما سألت نفسي ذات يوم : من أنا ؟! وإذا بهذا السؤال الساذج يتحوّل إلى وحش أو قل عفريت ضخم يضاهي عفاريت (ألف ليلة وليلة) ، فأشعر بالرعب يمـــلأ عينيّ قبل قلبي .

ولعل قصيدتي (أمام المرآة) تجسّد هذه الحالة حين أقول :

أطرح أسئلة تطرحني
فوق الأجوبة الجوفاء
ما اسمي ما شكلي ما لوني
من أين أتيت ؟
ويطيش دم الأفكار على المرآة
والشبح الماثل يرمقني
ودمائي تغرقه
بل تغرقني
بل تغرقه
تلك المأساة ! .

❖ ❖ ❖ ❖

الطفل الذي يسكنني

مع أنّ سنّي تقترب من الأربعين ، إلا أنّ الطفل (صلاح) ما زال يسكن جوّانيتي ، بعالمه الجميل ، وشقاوته المضحكة .

ما أزال أشتاق إلى أيام طفولتي ، تلك الأيام التي رضعت فيها الأنس والحريّة .

يقول الروائي الفرنسي (أناتول فرانس) :

(الماضي هو الحقيقة البشرية) ، وأقول : الحنين إلى الماضي هروبٌ من المــوت !

وهكذا أنا أحنّ إلى الماضي الجميل ؛ لخوفي من الرحيل عن الحياة التي مــا زلــت أعشقها بحلوها ومرّها ! .

إن الجهالة التي كنا نسدر في أطيافها وأحلامها هي أروع لحظاتنا في هذه الحيــاة ، ما زلت أذكر وجه جدّي (علي) ﷺ وقد قارب المائة عام ، وهو يقــول لي : قالوا (للموصِّف) أي : الحكيم : متى علمك بالسعادة ؟ قال : يوم أن كان طول ثوبي شبرًا !! .

يا الله ، إذًا كم هي اللحظات السعيدة التي يعيشها الإنسان في هــذه الحيــاة ؟ ! لا شك أنها لحظات قصيرة .

هذه السّن هي التي عناها الشاعر العربي حين قال :

ليــاليَ أعطيــت الجهالــة مقــودي تمــرّ الليــالي والــسنون ولا أدري

نعم ، أتذكر أنني كنتُ سعيدًا يوم أن كنت أجهل سيرورة الزمن ، فلا أعــرف الأيام ولا الشهور ، لا أفرّق بين يوم سبت أو أحد أو جمعــة ، فالأيــام عنــدي كالبطاريق ، كثرة عدد لكنها بشكل واحد .

وما عرفت التفرقة بين الأيام والشهور إلا عندما دخلت المدرسة لطلب المعرفة .

ويا سبحان الله وهل شقي الإنسان إلا يوم أن طلب المعرفة ؟! .

كان (برومثيوس) ضحية من ضحايا المعرفة ، وكذلك (سيزيف) وأيضًا كــان (أوديب) ؛ لأنه حلّ اللغز الذي كان يلقيه سفنكس / أبو الهول على كل قــادم

إلى (طيبة) .
لقد كان الجهل هو صمّام الأمان للإنسان من المأساة وهل أخرج آدم من الجنة إلا شجرة المعرفة - كما ذكر في بعض الديانات - .
لقد كبرتُ وتزوّجت وأنجبت الأولاد ، لكنني ما زلت أرى نفسي طفلاً مشاكسًا ! تضخّم جسمه ، ونبت شعر وجهه ، ووخط الشيب بعض شعيرات رأسه ، وكثرت مسؤولياته فقط .
أما الروح فلا تزال روح صبي يعشق الحياة .
ما زلت أشاهد مع أبنائي الرسوم المتحركة ، وما زال (توم وجيري) يضحكني حتى البكاء ! ، وما زلت أشاهد (مغامرات الفضاء) وأطرب لعبارات (دايسكي) الرائعة ، بصوت الفنان (جهاد الأطرش) الذي أتقن دوره بشكل كبير .
الآن أدركت أبعاد هذا المسلسل الكارتوني ، وعرفت خطورة تخصيب اليورانيوم ، وحرب النجوم ، والتسلح النووي ، وما كان يشدني إلا صورة (غرندايزر) وأسلحته العجيبة ، وأشكال الأبطال الغريبة ، والحبّ الذي كانت (هيكارو) تبديه لدايسكي ، والحب الذي يبديه ويكنّه (كوجي) لـ (ماريّا فليد) ! .
ما زالت صور الفنانين والفنانات العرب التي كنّا نحصل عليها داخل كيس العلْك الذي كتب عليه (نجوم العرب) . كنا نحتفظ بصورة محمود ياسين ، وحسين فهمي ، و (سهير المرشدي) ، وعبد السلام النابلسي وغيرهم .
ما زلت أذكر الأفلام العربية التي كنا نشاهدها في تلك الأيام ، ونحن لم نتجاوز الحادية عشرة بعد ! .
كان النساء اللاتي يأتين إلى بيت جدّي لأمي كي يباركن لجدتي مجيء مولود لأحد بناتها يعانين من شقاوتي ، لأنني كنتُ أختطفُ أحذيتهنّ وأرميها في بيت الجيران .
فربّما عادت المرأة المسكينة حافية القدمين إلى منزلها ، وربما عادت الأخرى بفردة

حذاء واحدة وكأنها (سنديرلا) فقدت فردة حذائها الأخرى في حفلةٍ حـــضرتها البارحة .

الماضي الجميل كالفتاة الجميلة التي تُحبها وتُحبّك ثم ترحل عن حياتك فجـــأة ولا تترك من ذكرياتها إلا المناديل الملوّنة والرسائل المحْرِقة .

الحنين إلى الطفولة هو انتحار عاطفي نقوم به بإرادتنا تمامًا كما يفعل الـــساموراي الياباني حين يبقر بطنه بحركة (الهيراكيري) فتندلق معها أمعاؤه .

الإنسان يقف بين الأمس والغد في نقطة اسمها اليوم هذه النقطة هـــي المفـــصلة في مراحل عمره ! .

ولا شك أن الذي يقاد إلى المشنقة يظل يتأرجح بين الأمس واليوم فيشنقه حبـــل الذكريات قبل أن يشنقه حبل المشنقة !! .

وسيظل كلٌّ إنسان مسكونًا بطفولته التي عاشها بالأمس ، ولو حاول أن يتنكّـــر لها ، فإنه يتنكّر لأجمل مرحلة عمرية ، يعيشها الإنسان وصدق (أناتول فرانس) : « الماضي هو الحقيقة البشرية » .

نعم ، وما عداه فمجازٌ نشقى بسرابه وبلاغته وتكلّفه .



كيف نستمتع بالحياة ؟

الحياة مليئة بالأسرار والعجائب والمتناقضات ، لكنها كمغارة (علي بابا) تحتاج إلى كلمة السرّ التي تفتح بابها ؛ لتكْشِفَ عن كنوزها وعجائبها ، وإن كانت مغارة علي بابا لها باب واحد ، فالحياة لها آلاف الأبواب التي تحتاج آلاف المفاتيح ! .

الحياة لها حجر رشيد ، كتبت عليه بعض حروفها ورموزها ، فمن يكون (شامبليون) ليفتضّ بكارة هذه الحروف (الهيروغلوفية) / المقدَّسة .

الحياة تريد طفلاً مشاكسًا فضوليًا ، يشهر في وجهها مسدّس التساؤلات ، ويطلق رصاص الأسئلة في المليان لتسيل الأجوبة والحلول والاعترافات على أرض الحيرة فتغطيها تمامًا ! .

يقول (أرسطو) : الدهشة مفتاح الفلسفة .

والحياة تريد الإنسان المندهش الذي يراها بأكثر من عين ، لكن للأسف هناك من يقتل الدهشة في أعيننا .

يقول توفيق الحكيم : ما نكاد نولد ونفتح أعيننا الصغيرة ، حتى يتلقفنا الكبار من حولنا ، ويقودونا ويلقنونا فلا نبصر الأشياء إلا بأعينهم ، ولا نسميها إلا بما وضعوا لها من أسماء ، وما أضفوا إليها من صفات وسمات ا.هـ .

ما شعرنا بسأم الحياة وثقلها إلا بعدما حاصرتنا مياه الروتين ، فاعتدنا ظواهر الحياة ومجرياتها ، وفقدنا لذّة الاكتشاف ، التي أخرجت (أرخميدس) من طوره فخرج من الحمام كالمجنون عاريًا يصيح في الناس : وجدتها وجدتها ، وكان قد وجد نظرية الطفو التي صارت تعزى إليه .

يقول (مونتياغو) : « يبدو المحظوظون وكأنهم ما جاءوا إلى العالم إلا لتوّهم . . . فما يزال فيهم شيء من آدم في يومه الأول ، إنهم يستطلعون – بعيون برّاقة – تنظيم الحدائق ، ويرنون عجبًا إلى القمر والنجوم كأنها من غرائب الكائنات » .

نعم ، إن من ينظر إلى الحياة نظرة المتأمل سيراها بعين جديدة وعلى هيئة جديدة .
إن الحياة – رغم قدمها – ما تزال حبلى بالجديد والمدهش . فقط تريد ذلك المتأمل الذي ينظر إليها نظرة العاشق إلى معشوقته ، لا يُلْهيه عنها شيء .
إن أعمارنا قصيرة وإن طالت ، فلا بدّ من اكتشاف جماليات الحياة وأسرارها ؛ لأننا سوف نغادرها في يوم من الأيام وفي أنفسنا أشياء منها .
تقول الأديبة الرائعة (غادة السّمان) : « الحياة فقّاعة صابون ، فصوّرها قبل أن تنفجر » .
فمن يا ترى يقوم بتصوير الحياة قبل أن تنفجر أو ينفجر هو في يوم من الأيام ؟! .
عندما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [سورة القصص : ٧٧] ، وجب على الإنسان أن يعلم أن الدنيا ليست كلها له ، كما أنه ليس لها بالكلية ، فكلاهما له نصيب من الآخر ! الكل يبحث عن الجديد ؛ لأن الجديد يجدّد ما قَدُم من حياتنا ، ومشاعرنا ، لهذا يحتفي الناس بالجديد ويهملون القديم ، حتى إذا أصبح الجديد قديمًا طلبوا غيره ، أو رجعوا إلى القديم ؛ لأنه أصبح – بفعل الزمن – جديدًا في أعينهم .
تقول الروائية (شارلوت برونتي) صاحبة رواية (جين إير) : « ماذا أريد ؟ عملاً جديدًا ، في مكان جديد ، وتحت ظروف جديدة » .
ومن اللحظات التي تشعرنا بجمال الحياة ومتعتها ، ساعات الخلوة .
وللأسف يعرض الكثيرون عن لحظات الخلوة ، ويشعرون أنها كهف مخيف يفقدون معه ، وفيه ، لذّة الأنس ، لكن الذي يحمل في جوّانيته عالمه الخاص به ، يرى في الخلوة متعة ما بعدها متعة .
وصحيح أنه لا يحتمل ساعات الخلوة إلا العظماء وكذلك كان الأنبياء والمصلحون ، والفلاسفة والزهّاد والعبّاد .
فكلهم يحتاج إلى ساعات صفاء ، يتأمّل فيها نفسه والكون من حوله .

لذا قال ابن تيمية : « ماذا يفعل أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أنّى سرت فهي معي ، أنا سجني خلوة ، ونفيي من بلدي سياحة ، وقتلي شهادة » .

وساعات الخلوة لا تعادلها ساعات أخرى ، تقول (لورانس داريل) : « أريد أن أهرب من عيون العالم إلى زاوية هادئة أستطيع فيها أن أصبح سيدة نفسي ، فهناك مناحٍ كاملة من شخصيتي لا أفهمها ، وإنني أحتاج إلى الوقت الكافي لفهمها » .

ومن متع الحياة السفر ، ففيه كسر للروتين ، والتقاء بالجديد من مكان وإنسان .

(الجسد حقيبة سفر) على رأي غادة السمان ، وعن طريق هذه الحقيبة نستطيع أن نجمع الكثير والكثير من الذكريات واللحظات السعيدة ، والشافعي يقول :

سافر تجد عوضًا عما تفارقه   وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

والقراءة عمرٌ ثانٍ يعيشه القارئ ، وعين ثالثة ورابعة وألف ، يبصر بها القارئ الحياة من حوله .

يا الله ، ما ألذّ وأشهى القراءة عن حياة السابقين من الأمم ، كالإغريق والفرس ، والرومان وعصر الجاهلية والإسلام .

ما أجمل القراءة في (قصة الحضارة) لول ديورانت حيث التعرّف على عادات وفنون الشعوب التي سادت ثم بادت ، والاطلاع على طقوس الديانات القديمة وكيف كان يفكر الإنسان البدائي .

هكذا نحصد المتعة ، وهكذا نقتنص السعادة .

يقول الفيلسوف الهولندي (سبينوزا) : « أنا لست سعيدًا ؛ لأنني أتدفأ ، لكنني أتدفأ لأنني سعيد ! » .

نعم ، لا نعلق سعادتنا بالأشياء ، إنما نجعلها نابعة من ذواتنا نحن ، فالسعادة في دواخلنا وليست في الخارج ، ولقد صدق الشاعر المهجري إيلياء أبو ماضي حين قال :

والذي نفسه بغير جمال   لا يرى في الوجود شيئًا جميلاً

وقال في قصيدته (العنقاء) وكان يقصد بها السعادة :

وعلمتُ حين العلم لا يُجْدي الفتى   أنَّ التي ضيعتها كانت معي !

نعم السعادة هي معنا ، وليست خارجة عن ذواتنا ، فالسعيد من يكتشفها .

ولا يزال عقل ونفس الإنسان مليئين بالأسرار والعجائب ، لكنهما للأسف لم يجدا الشخص الذي يوقف نفسه على سبر أغوارهما .

يقول المستكشف (هيوبرت) مستكشف القطب العالمي : « نحن العلماء بحملاتنا الاستكشافية قد غطينا تقريبًا وجه الأرض كلّه ، ولكن ثمة منطقة كبيرة تبقى مغلقةً وغير مستكشفة هي منطقة العقل البشري الفسيحة الشاسعة ، التي لم توضع لها بعد أي خريطة تخطيطية » .

ومن متع الحياة الإيمان بالله جل شأنه ، فهو صمّام أمان من الشتات والحيرة ، اللذين قد يجبران صاحبهما على الانتحار ! .



حينما تخدعنا المظاهر

عندما كنت أقرأ كتاب (الأيام) لطه حسين ، كنتُ أعجب لهذا الأعمى / البصير .

أعجب من نظرته للأشياء ونظرته للأمور ونظرته للعقول ، أعجب من جرأته على مشايخ الأزهر ، والعبث بهم وهم المشايخ الكبار أصحاب التآليف والقَدْر العظيم ، حتى إن بعض مشايخ الأزهر لما أعياه طه حسين بالسؤال والمماحكة قال له : « ما شاء الله . . . ما شاء الله فتح الله عليك وأشقاك بتلاميذك ، كما يشقى بك أساتذتك » .

وكنتُ أتساءل في نفسي : ترى لو كان طه حسين مبصرًا هل ستكون جرأته كما كانت ؟ .

أم أن البصر سوف يفرض على (طه حسين) أن يكون أكثر أدبًا مع مشائخه أصحاب هذه العمائم الأنيقة ، والقفطانات الوقورة ؟ .

أم أنّ العمى جعل طه حسين يتعامل مع مشايخته بوصفهم أصواتًا بشرية ، لا أشخاصًا ! .

فالصوت يكون مجردًا من أي عامل مساعد يضفي عليه القداسة ، بعكس الشخصية أو الشخص فإنه باستطاعته أن يضفي على نفسه قداسةً يشعر بها كلُّ ناظرٍ إليه .

اللحية الطويلة لها أثر ، والعمامة الضخمة لها أثر ، وعلامة السجود التي تكون في الجبهة لها أثر ، والخواتيم الكثيرة في اليدين لها أثر ، والجبّة والقفطان لهما أثر ، بل وملامح الخشوع في الوجه لها أثر .

لكن الصوت مهما لبس من جهارة وسُكُون فإنه يبقى صوتًا عاريًا من كل شيء ، إلا من رداء الثقافة والعلم ، وهذان الأمران لهما أثرهما في السمع والقلب ، وهناك من الناس من يكون هذا أشد عليه من المظاهر وبعض رجال الدين في كل ملّة

ومذهب يعتمدون على هذه المظاهر ، ويعلمون أن لها أثرًا عظيمًا في نفوس العـــوام من الناس .

حينها تحاك حولهم الأساطير والكرامات المفتعلة أحيانًا ، ورجل الـــدين إذا كـــان مخلصًا لله جل وعلا كان رحمةً تمشي على الأرض ، وإن كان غير ذلك كان لعنـــة على نفسه وعلى كل من يتبع خطواته .

يقول الفيزيائي (ريتشارد فاليتمن) في كتابه (متعة اكتشاف الأشياء) : « مـــن بين الأشياء التي علّمني إياها والدي إلى جانب الفيزياء (ضـــاحكًا) ولا أدري إن كان ذلك صحًا أم خطأً هي أن لا أُبدي الاحترام للمحترمين لأنواع معينـــة مـــن الأشياء ، مثلاً عندما كنت طفلاً صغيرًا ظهرت الصور الفوتوغرافية لأول مـــرّة في نيويورك تايمز ، اعتاد والدي أن يجلسني على ركبتيه ويفتح الصور . . . » .

ثم تكلّم عن أن والده يريه صور البابا والناس ينحنون له في إجلال فيقول له :

« ولكن لهذا الرجل نفس المشكلات الإنسانية ، فهو يتنـــاول العـــشاء مثـــل أي شخص آخر ، ويذهب إلى الحمّام ، وله نفس المشكلات كأي شـــخص ، إنـــه بشر ، فلماذا ينحنون أمامه ؟

فقط بسبب اسمه ومنصبه ، بسبب لباسه الرّسمي وليس بسبب شيء فعله أو شـــرّفه . . . » [1] .

ونحن بحاجة لمثل هذا الفهم وهذه النظرة ؛ لأننا في عالمنا العربي والإسلامي نقـــدّس الأشكال كثيرًا .

والنبي محمد ﷺ لم يكن يتميَّز عن أصحابه بلباس خاص ، وكذلك كان صـــحبه الكرام .

وما عرف بعض العلماء والمشايخ التميّز في اللباس على العامة إلا بعـــدما دخـــل الأعاجم في الإسلام في القرنين الأول والثاني ، فَمُيِّزوا بلباس خاصٍ يميـــزهم عـــن

(١) متعة اكتشاف الأشياء ص (٢٨) .

المسلمين – وكان ذلك في عهد عمر الفاروق – فصار اللباس المميز بعد ذلـــك ، رفعة لرجال الدين والتجار ، وكان في بداية الأمر غير ذلـــك ، فـــصار الفقهـــاء يلبسون عمائم خاصة بهم ، وكذلك الأدباء والشُّطَّار .

وعرف عن رجال الدين اليهود والنصارى وغيرهم من الديانات الأخـــرى أنهـــم يتميّزون بلباس خاص يميّزهم عن بقية الناس ، أما في الإسلام فما كان هناك لباس خاص لأحد .



تأويل عبارات وحركات الزوجة

كان عالم النفس النمساوي (سيجموند فرويد) يرى أن الأحلام مثل الحروف (الهيروغلوفية) أي الأحرف المصوّرة التي كتب بها الفراعنة ، والتي فك طلسمها العالم الفرنسي (شامبليون) وهي عبارة عن حروف مصوّرة ، وكل صورة ترمز إلى حرف أو كلمة معينة ، فالخروف مثلاً يرمز إلى حرف كذا ، والمنجل يرمز إلى حرف كذا .

والأحلام هي عبارة عن صور نراها حقيقية لكنها ترمز إلى أشياء أخرى غير الصورة التي ظهرت بها ، هكذا كان يرى الأحلام (سيجموند فرويد) .

وانا أزعم أن عبارات وحركات الزوجة للزوج ما هي إلاّ كالحروف (الهيروغلوفية) ! .

أي أنها تحمل دلالات لا يعرفها إلا النِّساء ، فهنَّ فراعنة هذا العصر ! .

ولأن لغة الزوجة كلغة الأحلام ، صارت تسمي الزوج المنتظر (فارس الأحلام) ! .

وما درى الزوج المسكين أن الزواج كابوسٌ هو فيه الضحية ، والفارس الحقيقي هو الزوجة .

ولأن الزوجة أوعى من الزوج ، صارت تمارس عليه الكذب بأنواعه .

ومع أن الشرع أباح الكذب للزوجين ، إلا أن الزوج لا يستخدم هذه الصلاحية إلا إذا تزوج عليها بامرأة أخرى .

أما هي فتستخدم صلاحيتها منذ أيام الخطبة حتى الموت ، فالزوجة أول ما تكذب على زوجها في وضع الماكياج ، فكل لون في وجهها ليس حقيقيًّا ! وصارت الألوان كالحلي والمجوهرات ، تستعيرها المرأة لساعات قليلة ثم تتخلص منها .

وأما العبارات والحركات فهي أيضًا مستعارة ، ولها وجه آخر ، فهي إذا قالت للزوج (يا عمري) فإنها تتحسَّر على عمرها الضائع الذي ضيعته معه ! ، وإذا

قالت له : (يا حياتي) فلأنها تعرف أن حياتها معه (زفت) ، لذا تقول له : يـــا حياتي أي يا (زفت) ! .

أما إذا جاء من عمله متعبًا ، وفتحت له ذراعيها تعانقه فإنها تقصد بذلك أنه طفلها الصغير الأبله ، أي أنه (عيّل) على رأي أساتذتنا المصريين .

أما إذا مسحت شعر رأسه ورقبته فإنها تقصد بذلك أنه كلبها الوفي الذي يحلو لهـــا ملاطفته ! .

وإذا خرجت معه إلى السوق ، وصارت تمشي خلفه ، فلأنها تراه خادمها المطيـــع الذي يُسَهّل لها الطريق ، ويفك عنها الزِّحام ، ولا عجب ، فالحمار يكون أمـــام العربة ! ولا أدل على خدمته لها وعبوديته إلا تقبيله ليدها ! ، هل رأى أحـــدكم امرأة تقبِّل يد رجل ! ما نراه دائمًا هو العكـــس ، وأفـــلام أســـاتذتنا المـــصريين - ولا سيما القديم منها - تؤكّد ذلك .

حتى دخول المحلاّت والأسواق التجارية تتقدّمه في الدخول والخروج ، وحتى لـــو كان العكس فلها تأويلات كثيرة في عقل المرأة ، كلها تصب في صالحها .

ومع أن الزوجة تمارس على الزوج هذه الأمور كلَّ يوم إلا أنه يـــسدر في غفلتـــه وغبائه .

الشيء الوحيد الذي يزهو به الرجل هو أن طعامه يكون من صنع المرأة ، فهي التي تخدمه في ذلك ، لكن المرأة لم تسكت على ذلك ولم ترض بهذا الهوان ، فطالبـــت بالخادمة حتى غصّت البيوت بالخدم ، وهنا ارتاحت النساء / الزوجات من هـــوان الطبخ والنفخ .

لكن الرجل المسكين لما أتى بالسائق لم يرتح من تعـــب المـــشاوير والتـــسكع في الأسواق ، فالمرأة حين ترسل السائق إلى أي مكان ، تلتفت إلى الزوج كي يوصلها إلى المكان الذي تريده ، أيضًا تتصل عليه كي يأتي بكذا وكذا ، إذًا لم يكن أذكى منها .

لكن لما تسافر الخادمة أو تمرض فإن الأكل يأتيها جاهزًا من المطعم ، سواءً جاء به سائق المطعم أو الزوج الغبي حين يعود من عمله ! .

الكلمة الوحيدة التي يمكن للرجل أن يزهو بها هي كلمة (يا حبيبي) ، لكن يخيب ظنه عندما يسمع زوجته تقولها لكل طفل تراه ، بل ربما قالتها لقطّها الأليف ! .

حتى القُبلة التي تمنحها إيَّاه ، لا يستطيع من خلالها أن يثبت أنها تحبه ؛ لأنها تقبّل جارتها التي تكرهها - كره العمى - أكثر منه ! فالقبلة أحيانًا تكون قناعًا لكره مدفون في صدرها .

أما إذا قالت له : (يا روحي) فهذا لا يدل على حبها له ، فمن عادة النساء أن يقلن (يا روحي) إذا رأين في الطريق قطًا مدهوسًا !! .

شاهد بعض الأزواج الأغبياء زوجته وهي تَبْتسم أثناء نومها ، فلما سألها في الصباح : كيف كان نومك البارحة ؟ افتعلت البكاء وقالت : رأيت البارحة أنك مسجون وحكم عليك بالإعدام !! .

اعتاد الناس إذا أرادوا أن يهنئوا شخصًا متزوجًا أن يقولوا له : منك المال ومنها العيال .

حينها يؤمِّن الزوج المسكين على دعائهم ، وما درى أنه أمَّن على شقائه ! .

وتعجب من الأزواج فإنهم يتعبون ويشقون ، وتكون الثمرة للزوجة والأولاد ، فإذا مات الزوج بكوا عليه أيامًا ثم إذا ذكروه بعد ذلك فإنهم يذكرونه وهم يضحكون ، والأعجب من ذلك أنه حتى المثقفين من الأزواج حين يؤلّفون الكتب يهدونها - بكل غباء - للزوجات العزيزات ، والأبناء الأعزاء !! .

وكثيرًا ما سألتُ نفسي - وما زلتُ - لماذا إذا صار الحب بين رجل وامرأة ، وحال بينهما موجٌ ما ، كان الجنون من نصيب الرجل فقط ؟ علمًا أن المرأة (ناقصة عقل ودين) والرجل كامل العقل والدسم ! .

أم أنّ نقصان العقل عند المرأة ضَمِنَ لها عدم فقدان النصف الآخر ؟! .
وهاهو أبونا (قيس) لما أَحبَّ أُمَّنا (ليلى) وحال بينهما الموج ، فقد المسكين عقله ، وصار يعرف بالمجنون ، بينما بقيت أمّنا (ليلى) تتمتع بقواها العقلية حتى الموت .
وتحدثت الأمثال والأشعار عن شقاء الرجل وتعرضه للموت قبل المرأة ، لا سيما أيام الحروب .
وهاهو عمر بن أبي ربيعة يقول :

كُتِبَ القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيول

وما زال الغانيات تجرّ ذيول الثياب والفساتين . والرجل إذا أحبَّ المرأة أخلص لها الحبَّ ، وهذا دليلٌ صادق على وفائه وغبائه .
أما هي فإذا أحبّت فإنها تجعل لها خطّ رجعة ، وهذا ما يجعلها لا تفقد عقلها ؛ لأنها حكيمة .
وما كذب اليونانيون حينما جعلوا (مينيرفا) آلهة الحكمة ، فالمرأة هي التي تتحكّم في عاطفتها أثناء الحبّ ، أما الرجل فلا يتحكم لا بعاطفته ولا عقله .
لذا صدق الشاعر حين قال :

إذا لعب الرجالُ بكل شيء رأيت الحبَّ يلعبُ بالرجال

بل إن مندوب الرجال والمتحدث الرسمي عنهم قال ذات يوم :

يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا

والحقيقة أنني لا أُبرئ نفسي ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [سورة يوسف : ٥٣] .
فأذكر أن أول بيت غزل قلته – وعمري آنذاك ثلاثة عشر عامًا – في وصف حالي عندما رأيت فتاة حارتنا تمشي على رصيف شارعنا الصغير :

شفتها تمشي فوق ذاك الرصيف شفتها تمشي وصار عقلي خفيف

وهذا أول بيت شعبي قلته في الغزل آنذاك .

إذًا كلنا نحن الرجال صغارًا وكبارًا ، لا نتحمل رؤية المرأة ، لذا نصاب بـــالجنون والخبال .

أما المرأة فلا تذكر أنها في يوم من الأيام فقدت عقلها لرؤية رجل ما ، مهما كـــان جماله وحسنه حتى النساء الشاعرات لا يذكرن ذلك في شعرهن بل إن صاحبة أبي فراس الحمداني لما التقته أنكرته و لم تعرفه وسألته من يكون ؟! علمًا أنها عليمةٌ به !

تسائلني : من أنت ؟ وهـــي عليمـــةٌ   وهل بفتى مثلي على حالـــه نكـــرُ

لكنه استجاب لهذا التنكر وراح يقول لها وهو يزفر : أنا قتيلـــك ، لعلـــه بـــذلك (يكسر خاطرها) .

فقلت كما شاءت وشاء لها الهـــوى   قتيلك ، قالت أيهـــم فهـــمُ كُثْـــر

ولا أدل على غبائنا نحن الرجال إلا ما يحدث ليلة الزواج ، فإننا نلـــبس المـــشالح السوداء ، في حين تلبس الزوجات الفساتين البيضاء ، فهل أكثر من هذا تـــشاؤم عند الرجال ، حين تكون ملابس الزواج بألوان ملابس الحداد ؟ وكأنّ أسلافنا من الآباء والأجداد جعلوا هذا التقليد رمزًا سيميائيًا ودالاً على المدلول وهو :

أن الفرح والبياض للزوجة ، والشقاء والحزن والسواد للرجل / الزوج .



لماذا نحترم كبير السن ؟

كل شخص كَبُرتْ سنّه ، ورقّ عظمه ، كان في يوم من الأيام شابًا قويًا ، يرى غيره في هذه السن التي تقيده الآن .

وقد سألتُ شيخي الشيخ أحمد بن علي آل مبارك [1] مرارًا وتكرارًا هذا السؤال : عندما كنت في سن الشباب وأنت ترى كبار السن ، بماذا كنت تشعر ؟ .

وكان جوابه دائمًا أنه لم يشعر بشيء ، قلت له : أما فكّرت في أنّك ستمر بهذه المرحلة ؟ قال : بلى ، لكن لم أكن أفكّر كثيرًا فيها ، وقد شغلتني أشياء كثيرة عن التفكير في ذلك .

أما أنا فقد فكرتُ كثيرًا في اليوم الذي سأكون فيه كبيرًا في السن ؛ لأن ذلك يعني أنني سأصبح شيخًا يُرثى له .

فالناس الذين يصغرونني في السن ، سوف يتكلّفون معي الحديث والمزاح ؛ لأن كبير السن كائنٌ حسَّاس .

ويوم أن تكون شيخًا حسَّاسًا إلى هذه الدرجة تكون غير سوي في نظر الآخرين ، بل وفي نظر نفسك ، فكل عمل يصدر من الآخرين تجاهك فإنه متكلّفٌ لا محالة ، حتى التقدير والاحترام ، وهذا يجعلك تشعر أنك كائن غريب عنهم ، ولست شخصًا عاديًا .

يقول (غارثيا ماركيز) : « المشكلة هي أن المجتمع الذي يتكلّف التقدير والاحترام يجعل منّا شيوخًا بالقوّة » [2] .

وإذا أصبح الشخص كبيرًا في السن ، فكبِّر عليه أربعًا ! ؛ لأن كبير السن – في

---

(١) وللمعلومية فإن شيخي أحمد قد درس في مصر أيام الثلاثينات الميلادية من القرن المنصرم ، والتقى أدباء مصر الكبار آنذاك أمثال : طه حسين ، والعقاد ، وزكي مبارك ، والمازني ، والزيات ، وعبد الوهاب عزام وغيرهم . وهو يتمتع بروح مرحة قلّما تجدها في مثله (حفظه الله) .

(٢) قصص ضائعة ، ترجمة : صالح علماني ص (٤٦) .

الغالب – لا يُحْترم لشخصه إنما يحترم لسنِّه ! تمامًا كما حدث لـ (جحا) حين مُنع من دخول الحفلة الأرستقراطية ، فلما لبس ثياب الأرستقراطيين أُذن له في الدخول وبالغ أصحاب الدعوة في الاحتفاء به ، فما كان منه إلا أن خلع معطفه وتركه على الكرسي وقال : أطعموه هو .

إن احتفاء الناس بكبير السن هو من قبيل إعطاء المحكوم عليه بالإعدام فرصة لأن يتمنّى آخر أمنية في الحياة ! وما هذه القبلات (من الصغار والكبار ، والرجال والنساء) التي تطبع على جبين كبير السن إلا عبارات عزاء له ؛ لأنه أوشك على الرحيل ! إذًا هي قبلاتُ وداعٍ لا لقاء بعده ! .

إن الناس حين ينظرون إلى كبير السن فإنهم يُبْصرون فيه مأساة بشرية تمشي على الأرض .

إن كبير السن يعيش مرحلة عبور إلى الموت والآخرة ، لذا يرأف به الناس ويعزّونه في هذه المصيبة ، ولو كان شخصًا قويًا مثلهم ما التفتوا إليه ! .

إذًا نحن نحسن إلى كبار السن – حين نتعطف ونتلطف لهم – لأنهم ضعفاء .

ومن سخرية العقل البشري أن كبير السن كما يضرب به المثل في العقل والحكمة ، يضرب به المثل أيضًا في الحمق والغباء والغفلة ! فيقال عن الشخص الكبير في السن : لا تعاتبه فالسن له أحكام ، بل ربما قالها كبير السن عن نفسه أيضًا وعندنا في الخليج العربي ما زال كبير السن إذا نسي شيئًا أو عجز عن القيام قال معتذرًا (الكبر شين) .

وكبير السن في المجتمعات المسلمة رمز للوقار ورمز للخرف أيضًا ! .

وبعض كبار السن يحاول أن يبتعد عن هذه المرحلة الخطرة فتراه يصبغ شعره ، أو يشد جلدته ؛ لأنه يعلم أنه في غابة .

فلو انتبه الآخرون إلى ضعفه أكلوه كما يأكل الذئب القوي أخاه الجريح ! .

لذا هو يتجلّد كما كان يقول (ابن أبي ذويب) :

وتجلـــدي للـــشامتين أُريهـــم   أنّي لريـــب الـــدهر لا أتضعـــضع

لكن الزمن يرد عليه بقول أبي ذويب أيضًا :

وذا المنيـــة أنـــشبت أظفارهـــا   ألفيـــت كـــلّ تميمـــة لا تنفـــعُ

وشدُّ الجلد وصبغ الشعر ، ما هي إلا تمائم يعلقهـا كـبير الـسن علـى صـدر شيخوخته ، ورحم الله تعالى (العقاد) حينما قال عن عتبات شقته بأنه صـعدها ثلاثًا ثلاثًا واثنتين اثنتين واليوم يصعدها واحدةً واحدة .

وهكذا هو ابن آدم يفرح بقوته فيحزنه ضعفه ، وصدق المثل العـربي : إذا سـرَّك بنوك ساءتك نفسك .

كبير السن هو في مرحلة (العبور) إلى الآخـرة ، فهـو لـيس في الأحيـاء ولا الأموات .

وقل مثل ذلك عن المرأة العجوز بين النساء ، فإنها يضرب بها المثل في البركة ، وفي الكيد والسمسرة على الفاحشة أيضًا .

وقد انحفر في ذهنية الشعوب أن العجوز هي رمز الدهاء والمكر والطمـع أيـضًا ، وقصة (الجريمة والعقاب) لديستويفسكي) جسَّدت طمع العجوز الـتي قتلـها (راسكولينكوف) بطل الرواية ، ولعلَّ (ديستويفسكي) كان يقصد بها روسـيا القيصرية وعالم (ألف ليلة وليلة) أكثر النصوص الأدبية الذي لم ينظـر للمـرأة العجوز باحترام إنما أخرجها في صورة الداهية والشريرة .

وقد أظهرت الرسومُ المتحركة المرأة العجوز في صورة سـاحرة تحمـل مكنـسة سحرية ، فكرهها الصغار أيضًا ، وخافوا منها .

إذًا للشيخوخة وجهان : وجه جميل وآخر قبيح ، والمسألة متعلقة بذات الـشخص لا بسنِّه .



متى نتصالح مع الخرافة ؟!

عندما عرَّف (ابن منظور) الخرافة قال عنها : الحديث المستملح من الكذب .

ولأن نظرة الإنسان للكذب نظرة سوداء ، فإن بعض الشعوب نظرت للخرافة بنظرة النبذ والازدراء .

وقد أورد (ابن منظور) قصة رجل من بني جهينة ، وقيل من بني عذرة ، خطفته الجن ثم أعادته ، فراح يحدِّث عن أشياء رآها في عالم الجن ، فكان الناس يقولون : حديث خرافة أي غير معقول ، ويروى أنّ النبي ﷺ قال : خرافةُ حق .

وإذا صحَّ الحديث على فرض ، فلا أدري هل معناه أن حديث خرافة وما رآه في عالم الجن حق ، أم أن واقعة خرافة هي الحق ؟ .

والخرافة في الذهنية العربية هي الأحاديث التي لا صحة لها ، وهذا الزعم انسحب على كثير من النصوص والحقائق العلمية ، فقصص (ألف ليلة وليلة) خرافة وأساطير اليونان والرومان والفرس وغيرها من الشعوب خرافة ، والقصص الشعبي أغلبه خرافة ، وصعود القمر خرافة ، والأطباق الطائرة خرافة ، وكثير من الأمور التي ثبتت صحتها وحقيقتها العلمية خرافة ، حتى صارت كلمة (خُرافة) هي الملاذ والملجأ لكل عقل لا يستوعب الجديد والمدهش والعجيب ، علمًا أن الخرافة والمستحيل هما اللذان أوصلا الغرب إلى ما نراه اليوم من السيادة والتحكم في مصائر الشعوب ، فعندما قرأوا قصص ألف ليلة وليلة وغيرها من الأساطير هدتهم هذه النصوص الغرائبية إلى صنع الطائرة والغوَّاصة والتلفون وغيرها من المخترعات ، وذلك لما وجدوا في الأساطير من طيران الجن وغوصه في البحار والهواتف التي كانت تحدث عن بعد بين الحبيب والحبيبة ، وبين العارف بالله ومريديه عند الصوفية ، فكل ما هو خرافة اليوم هو حقيقة علمية غدًا .

وهاهي المخترعات والتكنولوجيا اليوم تشهد بصدق ذلك .

يذكر (دايل كارنيجي) في كتابه (الخالدون) أن (جراهام بل) مخترع التلفون جاء إلى الأديب الساحر (مارك توين) يعرض عليه أن يساعده في استثمار أمواله في اختراع حديث يدعى (التلفون) وأخذ يشرح له منافع هذا الاختراع بقوله : « إنك بفضل التلفون تستطيع وأنت جالس على مقعدك المريح في منزلك أن تخاطب بواسطة سلك ممدود صديقًا لك ، يبعد عنك بخمسة شوارع ، فأطلق (مارك توين) ضحكة ساخرة عالية وأجابه : قد أكون غبيًّا يا عزيزي ، ولكن لست من الجنون بحيث أُلقي مالي في أسلاك تتكلّم ، يا له من اختراع سخيف » .

وهاهما الاثنان قد ودَّعا الحياة ، فأما (مارك توين) فترك للبشرية رواية هزلية اسمها (توم سوير) ، وأما (جراهام بل) فقد ترك خلفه جهاز التلفون فأي الإبداعين أهم للبشرية ؟ ! .

ولو رأى (مارك توين) ما وصلت إليه براعة هذا الجهاز حتى غدا في يد كل شخص في العالم بعد تطوره ، لعلم أن روايته التي خلّفها للبشرية هي الاختراع السخيف ! .

وأغلب الأشياء التي قيل عنها خرافة تحققت وصارت حقيقة علمية وواقعية يعيشها الناس ، ولا يمكن الاستغناء عنها .

إن الخرافة – في نظري – هي مرحلة متطوّرة لم يبلغها عقل الإنسان ، لكن لها أبناء شرعيون يرون فيها ما لا يراه الآخرون ، حتى إذا أنزلوها إلى أرض الواقع آمن بها الناس كلهم ، فأصبح الخرافي هو الذي أنكرها بالأمس ! .

في عام ١٩٣٥م كتب (سلامة موسى) كتابه الرائع (ما هي النهضة) وتحت عنوان (رجل العلم ورجل الأدب) راح يقارن بين ما فعله (أرازموس) وبين ما قدّمه (دافنشي) وكان رجل الأدب هو أرازموس بينما كان دافنشي هو رجل العلم إلى أن قال سلامة موسى في ختام المقال (والعالم بالطبع في حاجة إلى الاثنين ، وإن كان أبناء المستقبل سيبالون رجل العلم أكثر جدًا مما يبالون رجل

الأدب .

وأقول : لقد صدق حدسك يا سلامة ، فكم من الناس الذين قرأوا رواية تـوم سوير ؟ .

وكم هم الذين يتعاملون ويحتاجون إلى التلفون الآن ؟ .

في رأيي أن العقل الذي يرى الأشياء التي لم تحدث على أنها خرافة هو حجر عثـرة في طريق التقدم ، وهو الخرافة الحقيقية التي تعوق حركة عقولنا وأفكارنا .

رحم الله علماء المسلمين الأوائل كانوا يفترضون المسائل الفقهية التي لم تحدث بعد في زمانهم ، لعلمهم أن حركة الحياة تستوجب التغيير والتبديل والإتيـان بالجديـد والغريب ، فكانوا يحاولون سبق الزمن بالافتراضات والتوقعات .

إن الخرافة أُمنية وحلم يُحفّزان فينا السعي الجادّ للوصول إلى الجديد والغريب .

الخرافة كالقمر ظل الإنسان الأول ، يراه أبعد ما يكون وظل يناديه وهو ينظر إليه رافعًا رأسه بشكل ينبئ عن حاجة وافتقار ، حتى جاء الإنسان العصري وصعد إليه وجعله تحت قدميه بعدما كان فوق رأسه !! .

فهل في وسعنا اليوم – نحن المسلمين – أن نتصالح مع الخرافة ، وأن نكثر الحديث عنها فلربما تغدو حقائق علمية وواقعية على أيدي أحفادنا الأعزاء ؟! .



إحسان عبد القدوس . . وأحلام الفتيات

حينما ترى فتاة تدخل المكتبة وتقصد قسم الروايات ، فاعلم أنها تبحث عن رواية لإحسان عبد القدوس لا محالة ! .

وعندما ترى فيلمًا عربيًا فيه الفتاة تحاول التمرد على أهلها وعاداتهم وتقاليدهم ، فاعلم أن الفيلم من كتابات إحسان عبد القدوس أو من كتابات شخص متأثر بكتاباته ! .

من لم يقرأ لإحسان عبد القدوس فحتمًا رأى شيئًا من أفلام أخذت من كتاباته ، مثل فيلم : (البنات والصيف) أو (الوسادة الخالية) أو (أبي فوق الشجرة) أو (أنا حرّة) أو (بئر الحرمان) .

لقد أخذت المرأة الكثير من مساحة أدب إحسان عبد القدوس ، حتى لُقّب بألقاب كثيرة ، كلها تحمل مفردة (المرأة) ، ولعل أغلب الذين كتبوا عن إحسان عبد القدوس تحدثوا عن دور أمّه الفنانة (روز اليوسف) [وصاحبة المجلة التي ما تزال تصدر روز اليوسف] في تنشئته الأدبية ، علمًا أن والده الأديب محمد عبد القدوس كان له أثر أيضًا في نشأته الأدبية .

ولكن أثر الأم كان واضحًا بشكل أكبر ، بل إنها أسمته باسم يصلح للذكر والأنثى ، وذلك وفاءًا لزميلتها الفنانة (إحسان كامل) التي كانت تخفف عنها محنها التي كانت روز اليوسف تتعرّض لها آنذاك .

إن عالم إحسان عبد القدوس عالم مزدحمٌ بالإناث ، ولكثرة الإناث في حياته لم يرزق بأنثى عندما تزوج وأنجب ! وكان يتمنى لو رزق (ببنت عبد قدوساوية) – على رأيه – .

وحينما بدأ يكتب كانت المرأة هي شغله الشاغل ، وبالفعل فقد استطاع إحسان أن يثبت للزمن – قبل الناس – أنه كاتب المرأة المفضّل لديها ، فرواياته كانت وسائد للإناث والصبايا في الوطن العربي .

أغلب روايات إحسان عبد القدوس تحاول التغلغل في نفسية البطل أو البطلة ، وهو تغلغل في نفسية الإنسان بعامة ، لذا يجد قرّاء إحسان عبد القدوس - من ذكور وإناث - أنفسهم في رواياته ، فمثلاً (أمينة) في رواية (أنا حُرّة) هي مثال للمرأة أو الفتاة العربية حتى عصرنا هذا ، وليس في ثلاثينات القرن المنصرم ، فكل فتاة تحلم بالحرية وكل فتاة تختلف حدود حريتها عن الأخرى ، لكن المحصلة هي البحث عن الحرية .

وإحسان عبد القدوس رائع في اختيار عناوين رواياته ، فهي تستفزّ القارئ ، وتحمله على الإعجاب ، ويصدق على عناوين رواياته المثل القائل (الكتاب يبان من عنوانه) ، فروايات إحسان تتضح من عناوينها المتمرّدة مثل : أنا حرَّة ، لن أعيش في جلباب أبي ، شيء في صدري ، ثقوب في الثوب الأسود ، في بيتنا رجل ، الوسادة الخالية ، عاشت بين أصابعه ، أرجوك خذني من هذا البرميل ، وغيرها من العناوين .

والتمرّد عند إحسان عبد القدوس هو تمرّد على العادات والتقاليد التي أخلصت لها الأُسرة .

ولعل تمرّد الفتاة هو ما يشغل فكر إحسان عبد القدوس ، وبالفعل وجدت رواياته أصداء عظيمة عند المراهقين والمراهقات ، فصارت الفتاة تقضي عصر يومها أو مساءه في قراءة رواية جديدة لإحسان عبد القدوس ؛ لأن رواياته هي : النوافذ المزركشة بالورود والتي تطلّ على حدائق الأحلام وشوارع الآمال الطويلة ، ولذلك نجحت أغلب الأفلام التي أخذت قصصها من روايات وقصص إحسان عبد القدوس .

ولأنّ إحسان عاش النقيضين بين ما رآه من أمه الفنانة الكبيرة آنذاك (روز اليوسف) والتي كانت تمثل غادة الكاميليا بما لغادة الكاميليا من إغراء وجاذبية ، وبين الحياة المحافظة عند عمّته وجدّه .

وكان بلا شك يتوق لعالم أُمّه وحياتها المنفتحة على التمثيل والقراءات الأدبية .

فكان إحسان عبد القدوس يرى أن المرأة يجب أن تخرج من البيت إلى الحياة ، لتقف جانب الرجل ، وكان إحسان يعرض النماذج التي كانت تسود عصره ، فهناك المرأة المتحرّرة ، وهناك المرأة المحافظة ، وهناك ما بين ذلك .

فكان هو يدرس نفسيات النساء الشرقيات والمصريات على وجه الخصوص ، إبّان التحولات التي كانت تعصف بمصر من تحولات سياسية وفكرية واجتماعية .

والمرأة في أدب إحسان عبد القدوس لها جاذبية غريبة ، فأنت تكاد ترى الملامح والملابس حقيقة ، وكأنها معك في المكان الذي تقرأ فيه .

وكل - أو أغلب - بطلات إحسان عبد القدوس فتيات ، وإن كنّ متزوجات فهن (تعيسات) مغلوبات على أمرهنّ ، يعانين من فضاضة أزواجهن أو عدم المبالة بهن .

ولا شك أن كل صورة أو بطلة قدَّمها إحسان عبد القدوس في أدبه كان لها واقعًا معاشًا ، فهو يلتقط قضايا بطلاته من الحياة اليومية ، فأدبه أدبٌ واقعي ، وإن كان غير مؤدلج بأيديولوجية فكرية معيّنة ، لكنه كان مبدعًا وحسب .

وقد اختلف معه الدعاة الإسلاميون وشهّروا برواياته ، وحذَّروا منها ، وكان الداعية العظيم (عبد الحميد كشك) يرحمه الله ، على رأس أولئك الدعاة ، وكان له الأسلوب الساخر واللاذع الذي يلهب به نفوس خصومه ، وكان قد تحدَّث عن فيلم (الوسادة الخالية) في إحدى خطبه ، وندَّد بالكاتب وأبطال الفيلم .

ولا زالت روايات إحسان عبد القدوس مقروءة من قبل الفتيات والشباب ! .



فيلسوف اللّذة . . . أبيقور

ما فتئ الإنسان يبحث عن السعادة ، ذلك الشعور الذي ما إن يخالط بشاشات القلوب حتى يحيل جَدْبها خصبًا ، وعبوسها بهجة ، وقد أجمع البشر - كل البشر - على أنهم بحاجة إليها ، لكنهم اختلفوا في الطريق الموصل إليها ، فمنهم من رآها في المال ، وآخر رآها في الشهرة ، وثالث رآها في الجمال ، ورابع وخامس . . . الخ .

أما أبيقورس (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) ذلك الفيلسوف اليوناني الذي جاء بعد فلسفات كثيرة تأثر ببعضها وأعرض عن بعض ، فقد رأى أن السعادة في اللذة التي تحصل للإنسان من جرَّاء عمل يقوم به .

مولده ونشأته :

ولد أبيقورس في جزيرة شامس ، وقيل : ساموس ، في أسرة فقيرة ، ودرس الفلسفة وعمره أربعة عشر عامًا ، ولما « ذهب إلى أثينا لكي يثبت جنسيته صدر أمرٌ بطرد المستعمرين الأثينيين من ساموس ، فصارت أسرته من اللاجئين في آسيا الصغرى » [1] .

كان أبيقور معجبًا بفلسفة ديمقريطس (٤٦٠ - بداية القرن الرابع ق.م) الذَّرِّي ، وقد تأثر بفلسفته في بداياته الفلسفية ، وكان معجبًا أيضًا بأنكساغورس وارخيلاوس معلم سقراط .

بنى أبيقور مدرسته (حديقة أبيقور) في ميتيلين ، ثم نقلها إلى أثينا التي جاء إليها وعمره ثماني عشرة سنة ، ودرّس في هذه المدرسة ستًا وثلاثين سنة حتى وافاه الأجل عام ٢٧٠ ق.م وكان عمره ٧٢ سنة .

---

(١) قادة الفكر الفلسفي ، يوسف ميخائيل أسعد ص (٢٢٧) .

فلسفته :

قسَّم أبيقور فلسفته إلى : قانون ، وطبيعيات ، وأخلاق ، وقد رفض أسلوب الجدل ، وأثبت أن أحاسيسنا ومفاهيمنا العقلية ومشاعرنا هي مقياس الحقيقة .

ثم قسَّم المشاعر قسمين : اللذة والألم ، وعرّفهما بالملائم ، وغير الملائم للكائن الحي ، وهما أساس الاختيار والتجنُّب [1] . كما أنه « أنكر على الإنسان حق الاشتغال بالعلم من أجل العلم ؛ لأن العلم من أجل العلم لا يفيد شيئًا إذا لم يكن تحته عمل ، أو إذا لم يكن مؤديًا إلى السعادة عن طريق التطبيق [2] .

القانون عند أبيقور :

لم يهتم أبيقور بالمنطق الذي هو مادة الفلسفة أو هيولاها ، والذي اهتم به أرسطو بأن رتَّبه وبوَّبه فاستحق بذلك أن يُلقَّب بالمعلم الأول ، والسبب في عدم اهتمام أبيقور به هو أن المنطق « بحثٌ عن نظرية لا تؤدي مطلقًا إلى وضع السلوك الإنساني بحيث يؤدي إلى السعادة [3] ، ولهذا فإنه اهتم بأمر آخر ، وهو القانون ، وعرّفه الدكتور عبد الرحمن بدوي بأنه : بحثٌ يتعلق بمصادر المعرفة وكيفية تمييز الصحيح من المعارف والكاذب [4] .

الطبيعيات عند أبيقور :

أبيقور نحا منحى الرواقيين في أن الشيء الحقيقي هو الذي يفعل وينفعل ، ولا شيء مما لا يفعل ولا ينفعل بحقيقي .

وعندما جاء يميز بين الأجسام الثقيلة والخفيفة قال بالخلاء ، ويقصد بذلك أن الأجسام الثقيلة هي قليلة الخلاء ، والأجسام الخفيفة هي الكثيرة الخلاء ، فهو يرى

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ، ماجد فخري ص (١٦٦) .

(٢) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي (٨٢/١) .

(٣) المرجع نفسه (٨٢/١) .

(٤) المرجع نفسه (٨٢/١) .

أن « مجموع الموجودات في الكون يتألف من الأجسام والمكان ، أي : الخلاء الذي تحل فيه ، وإلا لاستحال عليها أن توجد أو تتحرك ، ووراء هذه الأجسام والخلاء الذي تتحرك فيه لا يوجد شيء قط » [1] . وكان يرى أن هناك أجسامًا « فـــردة هي الذَّرَّات ، وهي الأصل في الكون ولا تَقْبَل الانقسام » [2] ، وهي « تتحـــرك بسرعة واحدة متواصلة وأزلية ، ولما كانت الذرات لا متناهية لزم أن ينجم عـــن اجتماعها على مدى الأزل عوالم لا متناهية ، بعضها يشبه هذا العالم وبعـــضها لا يشبهه » [3] .

الإلهيات عند أبيقور :

عندما نشد أبيقور اللذة في هذه الحياة ورآها أُسّ السعادة ، علم أن اللذة لـــذتان : معنوية وحسية ، فالمعنوية تكمن في بُعد الإنسان وخلوّه من القلق والخوف وتراكم الهموم والغموم ، أما الحسية فتكون في عدم تعرّض الجسد للجـــروح والأمـــراض والآلام .

لذا فهو لم يكلّف نفسه العناء في محاسبة الآلهة ؛ لأنه اعتقد أن الآلهة لا دخل لها في حياة الإنسان ! وبهذا خلص إلى أن عدم الإيمان بالمعتقدات الدينية التقليدية أســـلم من الإيمان بها [4] ؛ لأنها تصيب المرء بالقلق من الماضي فتتعكّر عنده الحيـــاة فـــلا يحس باللذة المنشودة !! وهذا لا يجعلنا نعتقد أن أبيقور لا يؤمن بوجود إله ، فهـــو يؤمن بذلك ، لكنه خلّط في هذا الجانب لأجل تفشي المعتقدات الدينية الشعبية في وقته من تعدد الآلهة ، وغير ذلك مما جعل الإيمان مشوشًا ومتناقضًا ، فهو بـــذلك يُشقي ولا يُسعد .

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ، ماجد فخري ص (١٦٧) .

(٢) موسوعة الفلسفة (١/٨٤) .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية (١٦٧) .

(٤) موسوعة أعلام الفلسفة ، لروني إيلي ألفا (١/٥٢) .

يقول الدكتور يوسف ميخائيل أسعد : أما بالنسبة إلى الآلهة فإن أبيقور يعتقد بجزم بوجودها ، ذلك أنه لا يستطيع أن ينكر وجودها بسبب ظاهرة انتشار فكرة وجود الآلهة على نطاق واسع بين الجماهير ، بيد أنه تصنّع بأنها تُجشّم نفسها المشقة بالتدخل في عالم البشر ، وعلى هذا فليس هناك أساس للخوف من غضب الآلهة أو من التعرض للعذاب بعد الموت (١) .

الأخلاق عند أبيقور :

يقول أبيقور : « إن مقياس الخير هو اللذة ومفارقة الألم » (٢) ، لكنه لا ينظر إلى اللذة بحسبانها اللذة الحسية الصرف التي يجدها الإنسان في الإحساس المباشر (٣) ، بل هو يرى أن اللذة التي يعنيها هي التي يستشعرها الإنسان بشعوره فيلتذ بها ، فالفضيلة إذا عملنا بها لأجل الفضيلة نفسها فهو أمر يدعو إلى السخرية ما لم يصاحب هذا العمل لذة يجدها الإنسان .

أنواع اللذة الأبيقورية :

يخلص أبيقور أن اللذة المقصودة والمطلوبة ، خلاص الجسم من الألم والنفس من القلق ، وهو ما دعاه الأبيقوريون بالأتاراكسيا أي هدوء عاصفة النفس أو الطمأنينة التي لا تقوم على طلب ملذات المأكل والمشرب والمنكح ، بل على التفكير الراجح والبحث عن أسس الاختيار والاجتناب ونبذ المعتقدات التي بواسطتها تتحكم أعظم العواصف بالنفس (٤) .

ثم يقسم أبيقور اللذات ثلاثة أنواع :

- ما هو ضروري وخير معًا ، وقسمها إلى (سكوني وحركي) كالعطشان .

---

(١) قادة الفكر الفلسفي ، يوسف أسعد ص (٢٣٠) .
(٢) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي (٨٦/١) .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية ، ماجد فخري ص (١٦٩) .

- ما ليس بضروري وإن كان خيرًا ، مثاله التأنق في الملبس .
- ما ليس بضروري ولا هو خير ، كالشهوة البهيمية .

ويقيس أبيقور اللذة بشدتها لا بمدتها فكلما كانت اللذة أشد كانت أسعد للإنسان .

نظرة أبيقور إلى الموت :

يعتقد أبيقور أنه لا حياة للإنسان غير هذه الحياة التي نعيشها وعاشها من قبلنا ، أما ما بعد الموت فهو أمرٌ لا يعنينا ؛ لأننا في ذلك الوقت لسنا شيئًا ، بهذه العقيدة ، المنحرفة ، خلص أبيقور إلى أنه لا داعي لذكر الموت وتخيله ؛ لأنه يسبب القلق فتنتفي اللذة التي هي سبب السعادة الإنسانية .

فهو يقول عند الجزع من الموت : فهذا الجزع لا أساس له من الواقع ، فطالما كنا نحيا فالموت ليس شيئًا ، وإذا متنا فلن نكون شيئًا [1] .

الحلقة المفقودة أو عقدة أبيقور :

لو بحثنا عن الحلقة المفقودة في حياة أبيقور وفلسفته لوجدنا أن السبب الذي دفعه إلى اعتناق هذه الفلسفة هو ما كان يعانيه من مرض سبب له فقدان اللذة في كل شيء ، وقديمًا قال المتنبي :

ومن يك ذا فمٍ مرٌّ مريضٍ   يجد مُرًّا به الماءَ الزلالا

يقول الأستاذ روني إيلي ألفا : يجدر التنويه بعذاب أبيقور الجسماني الذي طال أمده من جرّاء التهاب في الكلى والذي أثر في فلسفته [2] .

ويقول الدكتور يوسف ميخائيل أسعد : فإن حياته في أثينا كانت هادئة ، ولم يكن يُعكّر صفوها سوى صحته العليلة [3] .

---

(١) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي (٨٩/١) .

(٢) موسوعة أعلام الفلسفة (٥٢/١) .

(٣) قادة الفكر الفلسفي (٢٢٧) .

إذًا لا نعجب أن تكون هذه الفلسفة قد خرجت من هذه النفسية المعذبة والمحطمة ، التي ما فتئت تبحث عن اللذة التي افتقدها سنين طويلة ، وقد أكد أبيقور أن تكون هذه اللذة المنشودة هي التي يعقبها شعور الإنسان بهذه اللذة أي سعادته التي نشأت من جراء هذه اللذة ، أما أن يتلبس الإنسان بهذه اللذة ، ولا تحدث في نفسه شيئًا فبئست اللذة إذن ، بل هو أمر يدعو إلى السخرية ، وهذا يدفعنا إلى القول : إن أبيقور قد تهيأت له بعض اللذات ، ولكن ، لمرضه ، لم يجد تلك اللذة التي كان ينشدها ، وهي استشعاره وأنسه بتلك اللذة ، فهو إذن كذلك الرجل المخصي أو المجبوب الذي يملك زوجة حسناء يحسده الناس عليها ، لكنه لا يجد ما يُشعِرُه بلذتها ، فقد تكون عذابًا وألمًا ، لا نعيمًا ولذّة .



لماذا لا يتحضَّر ذوو البشرة السوداء ؟

في كتابه الرائع (سرّ تطوّر الأمم) يقول (جوستاف لوبون) : « ولا يوجد في التاريخ القديم ولا الحديث ما يدلّ على أن أمة من الزنوج ارتقت في الحضارة إلى درجة ما ، وما وقعت بحكم الاتفاق حضارة راقية في يد أُمة زنجية إلا أسرع إليها الانحلال وسقطت إلى درجة تعيسة من الانحطاط » [1] .

والمتتبع لكتب التاريخ والحضارة يجد أن هذا الرأي له من الصحة نسبة كبيرة جدًا ، هذا لا يعني أنني أترسم خطى بعض علماء (الأنثروبولوجيا) التابعين للمؤسسات الاستعمارية الإمبريالية الذين ينطلقون من منطلق عرقي ، لكن أغلب الحضارات هي من صنع الرجل الأبيض والأصفر ، وحضارات العالم الكبرى هي : الحضارة الإغريقية والصينية والفارسية والهندية والإسلامية . أما الزنوج ومن كان على شاكلتهم من بقية الشعوب فلم يصنعوا لهم حضارة ، وإن كانوا قد ساهموا في صناعة حضارات لغيرهم ، عندما اتخذهم الآخرون عبيدًا لهم ! .

ولعل السبب في عدم تحضّر السودان - أي ذوي البشرة السوداء وليس القطر المعروف - أنهم فطروا على الخدمة والسِّخرة منذ فجر التاريخ ، بل مورست عليهم سلطة جعلت منهم عبيدًا عند غيرهم من البيضان - ذوي البشرة البيضاء - وكان يرى بعض النصارى أن قارة أفريقيا بلدان فيها كنز مدفون ، دفنه الرب جل وعلا لابنه المسيح [تعالى الله] وهؤلاء الأفارقة هم حرس هذا الكنز وسدنته الذين يحفظونه من السرقة .

لكن السودان والعبيد من هذه البشرة قد تفوقوا في التعلم أي أن منهم الكثير من المعلمين الذين علموا البشرية الأخلاق والتفكير .

يقول (ول ديورانت) في كتابه الجميل (قصة الحضارة) بأن المعلمين في (روما)

---

(١) سر تطور الأمم ص (٧٧ - ٧٨) .

كانوا من العبيد أو العبيد المحرّرين ، وكان الواحد منهم يفتح مدرسة يعلم فيها أطفال الرومان ، وربما جلبوا العبيد إلى دورهم ليعلموا أولادهم .

وما ذكره ول ديورانت عن العبيد هو نوعٌ من أنواع الخدمة ، وشكلٌ من أشكال القيام بشؤون السادة ، وهذا ما حدث إبّان الدولة الأموية والعباسية في التاريخ الإسلامي [وربما كان العبيد من ذوي البشرة البيضاء أيضًا] .

فقد جلبوا العبيد والموالي من المحرَّرين وغيرهم كي يعلّموا صبيانهم النحو والفقه وغيره .

ولعلّ المثل المشهور (من علمني حرفًا صرت له أو كنت له عبدًا) جاء من المعلمين العبيد ؛ كي يظفروا بعبادة أسيادهم لهم ! .

فالسادة يستعبدون السود بأموالهم وجاههم ، والسود يستعبدونهم بالعلم والمعرفة ! .

وبراعة الأسود غالبًا ما تكون في العبودية والخدمة ، وغالبًا ما تطلق كلمة عبد على أصحاب البشرة السوداء ، فهم بارعون في شؤون الخدمة وليس في تدبير شؤون الملك والسياسة .

ولعلّ (إيسوب) أو (لقمان) الذي كان صاحب بشرة سوداء خير دليل على أن الأسود للخدمة والبراعة في العلم والمعرفة ، وربما في الحكمة حين يقتضي ذلك الحديث عن السلوك والأخلاق .

و لم يمدح ملكٌ أو حاكم بسواد بشرته بل ببياضها ، بل جعل السواد في الوجه علامة الخزي والعار ، والبياض هو الرفعة والسمو ، بل حتى في القرآن الكريم جاءت الآية ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٦] ، والآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة النحل] ، إذًا سواد الوجه للعار والخزي .

وحين مدح المتنبي كافور الأخشيدي بسواد بشرته كان يتهكم منه ويسخر من

لون بشرته ، بل لم يشفع الملك لكافور الأخشيدي بأن يصبح جميلاً في نظر الناس ، إنما جنى عليه سواد بشرته وزاد الملك في تحقيره وإهانته .

انظر إلى المتنبي وهو يعبث به ويقول :

وتعجبني رجلاك في النعل إنني رأيتك ذا نعل وإن كنت حافيا

وأنك لا تدري ألونك أسود من الجهل أم قد صار أبيض صافيا

فهل هذا الكلام إلا دليلٌ على أن الأسود وإن ملك فهو معيَّر بسواده ، فالأسود فقير وإن ملك ، والأبيض ملكٌ وإن كان فقيرًا .

والجنس الأسود في الغالب يعاني اضطهادًا من قبل الأجناس الأخرى حتى صار هو نفسه يضطهد نفسه ولا يرى لها رفعة حسيّة إلا في العضلات والقوة ، وأما الرفعة المعنوية فرآها في العلم والمعرفة وقد عوّض هذا النقص ولكن يرى نفسه غريبًا في هذا الكون الهائل .

حين كتب الجاحظ رسالته (مناقب السودان) لم يستطع – على سعة علمه وتبصّره – أن يتحدث عن صنع حضارة قام بها هذا الجنس ، إنما كانت أغلب المناقب تصلح في الخدمة والقوة والمعرفة .

فقال عنهم : وليس في الأرض أُمةٌ في شدَّة الأبدان وقوّة الأسر أعم منهم فيها ، وإن الرجل ليدفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء ، وهذه خصال الشرف .

والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى ، لا تراه أبدًا إلا طيّب النفس ، ضحوك السن ، حسن الظن ، وهذا هو الشرف ، وقد قال ناس : إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولقصر روّياتهم ، ولجلهم بالعواقب فقلنا لهم : بئس ما أثنيتهم على السخاء والأثرة . . . » (١) .

---

(١) رسائل الجاحظ الأدبية ص (١٤١ – ١٤٢) .

وعدد الجاحظ مناقب كثيرة مثل طيب الأفواه ، وحلاوة الريق ، وعدم التأتأة في الحديث ، وغير ذلك لكنه لم يذكر صناعة أو حضارة وابن خلدون في مقدمة تاريخه الرائعة ذكر طبائع الأقاليم حتى ذكر خفة وطيش السودان وأرجع ذلك لطبيعة الإقليم وحرارته .

والطيش والخفّة لا تصلحان لتدبير شؤون الملك وصناعة الحضارة ، وإنما يراد لهما الحكمة والرزانة والتعقّل والدهاء ، وإن قال قائل : هذا أبو يكسوم أبرهة الأشرم ، فأقول : إن أبرهة اشتهر بقوّته و لم يشتهر بحضارته وحنكته .

وهذا ليس لأني ضد السود ، فأنا لست بعيدًا عنهم ! لكن هذا تحليل لهمّة هذا الجنس البشري الذي ما زال يعاني من التمييز العنصري ، ولو كان في مقدوره صناعة حضارة بشرية لفعل ، لكن لأن هناك ضغوطًا تمارس عليه ، منها ما هو خارج عن إرادته ، ومنها ما هو بإرادته وطبعه ، فيغلب [وأقول يغلب كي لا أُعمم] على هذا الجنس أنه يؤثر الدَّعة والراحة ولا يفكر إلا في ضرورات الحياة ، ولا يُعنى بكمالياتها ، لذا اتضح ذلك في لباسه ومركبه ومسكنه ، والحضارة - في الغالب - لا يصنعها إلا شعبٌ يعشق الترقي والتطوّر ، وهذا ما حدث في بقية شعوب العالم فإنها طوَّرت نفسها وحضارتها ، فالفرس وهم من أصل هندوأوربي استوطنوا بلاد فارس ، فلما كانوا قريبين من بلاد البابليين والحضارة العريقة في العراق استفادوا منها ، وطوّروا حضارتهم وثقافتهم .

واليونان استفادوا من الفرس حين غزوهم ، لكنهم طوّروا أنفسهم ، وقل مثل ذلك عن الرومان الذين ورثوا حضارة بلاد اليونان وأضافوا إليها حضارتهم في القوانين والمعمار .

وجاء المسلمون واستفادوا من هذه الحضارات ، لكنهم وبشهادة - جوستاف لوبون - أبدعوا في حضارتهم ، وجاءوا بالشيء الذي لم يسبقهم إليه أحد .

لكن أمة الزنج حرصت على البدائية في كل شيء ، وهذا راجع لأمر مهم ألا وهو

أن ملوكهم وسلاطينهم اكتفوا باللذة الحسية والجاه ، وأعرضوا عن لذة التحضر والتطور وإعمال الذهن .

وقد ذكر (العقاد) في كتابه (يوميات) الجزء الأول هذا السؤال لشخصٍ من السودان الشقيق ونص السؤال :

أعرف أن العلماء المتخصصين بعلم الأجناس البشرية يقولون بتشابه البيض والسمر والسود في أصل الخلقة ، ويؤكدون أن الاختلافات التي بينهم عارضة غير متأصلة في تكوينها ، ومنهم من يرفض القول بتفوّق بعضها بعضًا في خدمة الإنسانية ، ولا يصعب عليهم أن يستدلوا على اشتراكها في هذه الخدمة بالأمثلة من تاريخ الصين والهند والفارسيين والعرب والأوروبيين والأمريكيين ، وأنا شابٌ سوداني فخور بجنسي لا أقبل عِوضًا منه من الألوان ، ولكني أحبّ أن أفخر بسبب ولا يكفيني مجرد النخوة القومية ، فهل تدلوني على سبب ؟ وهل تعرفون تاريخًا صحيحًا يدل على اشتراك الجنس الأسود في خدمة الحضارة الإنسانية ؟

والعجيب أن الأخ السائل لم يذكر اسمه وإنما جاء اسمه هكذا : سوداني . فهل كان مُحْرَجًا إلى هذا الحدّ ؟

وحين أجاب العقاد على السائل قال : نعم ، وإنه لسبب صحيح وسبب وجيه وسبب يضارع غيره من أسباب المفاخرة والذكريات .

إن الجنس الأسود قد عرف الزراعة قبل أكثر من خمسة آلاف سنة يوم كان الكثيرون من أبناء الأجناس الأخرى يجهلونها وهم يعيشون في أخصب البقاع ويعولون في معيشتهم على الصيد ورعي الماشية [1] .

وأردت أن يذكر العقاد ملمحًا آخر من ملامح الحضارة غير الزراعة فلم يذكر .

ومعلوم أن الزراعة ملمح بسيط من ملامح الحضارة البدائية فهي المرحلة الثانية بعد الصيد ، لكن هل استطاع الجنس الأسود أن يرتقي منها إلى الصناعة ثم إلى

---

(١) يوميات (١٦٤/١) .

التجارة ؟ .

للأسف لم يذكر العقاد ذلك ، وإنما اكتفى بذكر الزراعة ، ومعلوم أن الزراعة من شؤون العبيد غالبًا ، فيكثر في الدول المتقدمة أن الذين يقومون على شؤون الزراعة هم العبيد والزنوج [خاصة في الدولة العباسية] كانوا يقومون بذلك ، حتى إنهم خرجوا على الحاكم العبّاسي آنذاك في حركة مشهورة هي حركة الزنج ، وإلى يومنا هذا والحضارات والتطورات التكنولوجية ليست في أيدي السود والزنوج ، بل يغلب على بعضهم - لا سيما في أفريقيا - البدائية في الملبس والمركب ، وهذا راجع كما قلت لطبع هذا الجنس الذي رأى أن التحضّر لن يغيّر في شأنه شيئًا ذا بال !! [1] .



(١) ومن أصحاب البشرة السوداء أستثني الموسيقي الكبير علي بن نافع الملقب بـ (زرياب) ، فإنه كان صاحب ذوق رفيع ، ومنه استفاد أهل الأندلس الحضارة . لكن هناك من ينفي عنه سواد البشرة وإنما لُقّب بـ (زرياب) لأن كلمة زرياب أصلها زاراب الفارسية ، وتعني : ماء الذهب . انظر الأعلام للزركلي (٥/٢٨) .

الألعاب الشعبية . . . هل هي طقوس وثنية ؟

هل فكّرنا ذات يوم فسألنا أنفسنا هذا السؤال : هل انتهت الوثنية من حياة الإنسان العربي ؟

لقد كان الإنسان العربي قبل الإسلام محتفيًا بالوثنية أشدّ الاحتفاء ، ووجدت الوثنية في جزيرة العرب قبل الإسلام محضنًا مهمًّا ، واعتلت الأصنام أشرف بيت وضع للناس وهو الكعبة ، وصارت قبائل العرب تخضع لهذه الأصنام والأوثان ، فيأتي سيّد القبيلة وينحني لهذا الصنم الحجري وذاك ، وهو الذي تنحني له رقاب البشر من أبناء قبيلته وربما غيرها ، وصارت القرابين والدماء تغصّ بالمذبح الذي وضع بجانب الكعبة ، وصار لكل قبيلة صنم تعبده وتُقسم به ، فعلّقت الأصنام على الكعبة ، حتى بلغت ٣٦٠ صنمًا ، فأصبحت مكة تضاهي (أثينا) في عدد الأصنام والتماثيل ، ولم يكتف العرب بعبادة الأصنام فقط ، بل عبدوا الأوثان والنُّصب وهي عبارة عن حجارة توضع بعضها فوق بعض .

ولقد تأثر عرب الجزيرة في عباداتهم ببعض المناطق المجاورة لهم ، كالشام والعراق واليمن .

يقول برهان الدين دلّو : « لقد نشأت الوثنية في هذه المنطقة العربية المتحضرة نسبيًا على خلفية معتقدات اليمانيين البدائية البسيطة . . . » [1] .

وجاءت عبادة الأصنام من الشام حين حملها معه عمرو بن لحي الخزاعي ، كما تذكر كتب السير .

ويذكر (ابن قتيبة) في كتابه (المعارف) أديان العرب في الجاهلية فيقول : « . . . وكانت المجوسية في تميم منهم : زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة ، وكان تزوّج ابنته ثم ندم ، ومنهم : الأقرع بن حابس كان مجوسيًا ، وأبو

---

(١) جزيرة العرب قبل الإسلام ص (٥٥٥) .

سود جدّ وكيع بن حسان كان مجوسيًا ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة ، وكان بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهًا من حيس [1] فعبدوه دهرًا طويلاً ثم أصابهم مجاعة فأكلوه . . . » [2] .

وبعد هذه الفترة الطويلة التي تخبّط فيها عرب الجزيرة في عباداتهم المستوردة من (فارس) و (اليمن) و (الشام) جاء الإسلام فأطاح بهذا العالم الخرافي ، وأعلى من شأن البشر ، وأحطّ من شأن الحجر المتمثل في الأصنام ، ولكن الوثنية حين هربت من جزيرة العرب مدة طويلة عادت مُتسلِّلة ومتقنّعة بعدة أقنعة ، لا سيما عبر الموروث الشعبي ، الذي تكوَّن في أحضان الأمية خاصة ، ولم تسلم الألعاب الشعبية من هذا المتسلل الوثني ! وكانت الألعاب الرياضية بشكل عام عند الإغريق والرومان تعتبر طقسًا دينيًا يقام أيام الأعياد الوثنية ؛ احتفاءً بالآلهة اليونانية والرومانية .

يقول (جان بيير ڤرنان) : « ولكنَّ المهم في الأمر هو أن للألعاب الرياضية سمتين ، فهي مشهد وعيد ديني في آن . . . » [3] .

ويصرح (ول ديورانت) بحقيقة الدين في اليونان فيقول : « في هذه الأماكن نجد دين اليونان الحقيقي تسيطر عليه قواعد الألعاب الرياضية وتعاليمها ، وهذا الدين هو عبادة الصحة والجمال والقوة . . . » [4] .

وعن الرومان يقول (ول ديورانت) : « ولما لم يعد للحرب أثر في هذا العهد ، أصبحت الألعاب العظيمة أكثر حوادث العام إثارة لمشاعر الرومان ، وكانت تقام أكثر ما تقام في الاحتفال بالأعياد الدينية ، كعيد الأم العظمى ، وعيد سيريس

---

(١) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط .

(٢) المعارف لابن قتيبة ص (٣٣٩) .

(٣) بين الأسطورة والسياسة ص (١٤٩) .

(٤) قصة الحضارة (٣٨٥/٦) .

CERES وعيد فلورا ربّة الأزهار ، وعيد أپـلو وعيد أغسطس ، وقـد تكـون أحيانًا (ألعاب العامة) التي تقام لتسلية الطبقات الدنيا ، وقد تكـون (الألعـاب الرومانية) التي تقام تكريمًا للمدينة وإلهتها روما (١) .

وكان الكهنة يحتفلون ويحتفون بهذه الألعاب الرياضية ، وكانوا يتجشمون المشاق في حضورها .

يقول (ول ديورانت) : « رضي الدين عن الألعاب ، وعدَّها الصور الـصحيحة للاحتفالات الدينية ، ولذلك كانت تبدأ بمواكب فخمة وقورة ، وكـان الكهنـة والعذارى الـڤـستية يحتلّون أماكن الشرف في دور التمثيل ، وفي مضامير السباق وأمام المجتلد ، وكان الإمبراطور الذي يرأس هذه الاحتفالات هو الكاهن الأكـبر لدين الدولة (٢) .

لكن بلا شك فقدت هذه الألعاب صبغتها الدينية مع مرور الأزمنة ، وصارت مجرد ألعاب للترفيه والقوة وكسب الجوائز .

يقول مؤلف كتاب (تاريخ الحضارات العام) بإشراف (مـوريس كروزيـة) : « وإذا استطاعت الألعاب الرياضية التي تتبناها أن تعزّز الـصفات الجـسمانية في الشعب اليوناني ، فإنها قد فقدت خلال العهد الكلاسيكي بالذات الصبغة الدينيـة التي اصطبغت بها في الأصل (٣) .

وإذا سألنا أنفسنا ما الذي يجعل الألعاب الرياضية طقسًا مقدسًا لدى الوثنيين ؟ يحدثنا مؤلف كتاب (تاريخ الحضارات العام) عن فائدة وظيفة هـذه الألعـاب الرياضية فيقول :

وتستجيب المباريات في المجهود الذي يبذل إكرامًا للإله ، لفكرة التنافس نفسها في

---

(١) قصة الحضارة (٣٤١/١٠) .

(٢) المرجع السابق (٣٥٣/١٠) .

(٣) تاريخ الحضارات العام (٣٦٤/١) .

المباريات الرياضية والألعاب في الأعياد الشاملة [1] .

إذًا بذل المجهود من أجل الإله ، هو سر ووظيفة هذه الألعاب الرياضية فإن اللاعب يبذل المجهود قُرْبانًا للإله الذي يعبده .

ومن يتأمل الألعاب الشعبية والأهازيج التي تصاحبها أحيانًا يشمّ منها رائحة بقايا وثنية .

وإليك هذه الأهزوجة التي سمعتها من جدتي (هَيَا) ، وهي امرأة تجاوز عمرها الثمانين سنة :

طل ابطح يا طل ابطح

جعل أبويه ما يذبح

ولا يعلّق في المذبح

ذلول أمية وأبويه

اللي تعبوا عليه

الله ما أقوم هالساعة

إلا بجزّ ودرّاعة

وفصلها عليّه

والبسها وأطويها

وألقى محمد فيها

يقرأ ويصلي فيها

فهل كلمة (طل ابطح) اسم لبعض الجن ؟!

لأن الأهزوجة تناديه :

طل ابطح يا طل ابطح

---

(١) تاريخ الحضارات العام (٣٦٤/١) .

وورود لفظة الذبح والمذبح تدلان على قُربان بشري كان موجودًا ، أو تخبر عن بقاياه ، ومعلوم أن الأديان البدائية كان أهلها يقدّمون القرابين البشرية للآلهة ، فربما قدّموا بعض أبنائهم وربما قدّموا أعدائهم من الأسرى .

فالفتاة الصغيرة هنا تدعو لأبيها بأنه لا يذبح ولا يعلق في المذبح كما كان يفعل البدائيون ! (**جعل أبويه ما يذح / ولا يعلّق في المذبح**) .

ومعلوم أن وقت طفولة جدّتي لم تكن هناك قرابين بشرية ، أي قبل ثمانين سنة ، فيا ترى من أين جاءت لفظة المذبح هذه ؟

وفي أهزوجة أخرى حفظتها من جدّتي (هيا) أيضًا ، يأتي ذكر الذبح القرباني ، تقول الأهزجة :

. . . دق الفرس بالناقة

واعبيد بوطر باقة

شرب حليب الناقة

وأعصيته تومي به

والموت ما يدري به

عصد لـمّة عصيدة

حرَّقها في لهاتها

قامت تصفّع بناتها

بناتها يا المساكين

عطاهم الله سكاكين

تذبحهم ها الحين

على باب إسماعيل

على صُوبة كراعين

وأظن أن هذه الأهزوجة أيضًا يُشَمّ منها رائحة الوثنية وذبح القرابين البشرية .

ولا أدري ما المقصود بباب إسماعيل : هل هو إسماعيل عليه السلام ؟ والباب هنا في مكة المكرمة حيث تهدى الذبائح للكعبة [1] أم أنه إسماعيل آخر ؟ لا سيما وأن حادثة الرؤيا التي رآها إبراهيم عليه السلام وهو يذبح ابنه إسماعيل في المنام ، وذكرت في القرآن الكريم معلومة ومشهورة .

والألعاب الشعبية لا تكون إلا في مواسم خاصة تمامًا مثل الأعياد الوثنية .

وربما كان لدورة الفصول الأربعة دورٌ في هذا ، فهناك ألعاب تقام في الصيف ، وهناك ألعاب تقام في الشتاء ، وألعاب للخريف ، والرابعة للربيع ، وكذلك الأعياد الوثنية عند القدماء فإنها تقام على مدار الفصول الأربعة ، فكل فصل له عيده وآلهته .

وحين نتأمل بعض الألعاب الشعبية نلاحظ أن بعض أهازيجها استدعاء للجن أو استغاثة بهم ، فأذكر أننا في أيام الصِّبا حين نفقد النقود المعدنية أو واحدة من (التيل) فإننا نجمع التراب فنجعله على شكل تلّ رملي صغير ، ثم نتلوا عليه تعويذة أو أهزوجة - نسيتها الآن - ثم نبعثره فنجد ما أضعناه أحيانًا ، وأحيان لا نجده .

وكانت الأهزوجة - على ما أذكر - فيها استغاثة وطلب من الجن أو مخلوقات أخرى غيبية .

يغلب على الألعاب الشعبية أنها تتخذ من الدائرة شكلاً هندسيًا لها ، والدائرة في الأديان الوثنية ربما كانت رمزًا للإله الشمس ، وربما كانت رمزًا للحصن الذي يحمي أصحابه من الأرواح الشريرة ، وربما كان رمزًا لعبادة الأنثى ! .

ويقول (فيليب سيرنج) : « ويعيد (فوشيل دي كولانج) التذكير بأنه في اليونان في زمن هوميروس ، كان القضاة يتجمعون في دائرة مقدّسة ، وفي المسرح

---

(١) لا سيما أن الأهزوجة تقول : على صوبة كراعين ، والكراعين بقايا جسد المذبوح من العظام . والصوبة هي ما تجمع وتكدّس من هذه العظام .

الإغريقي المنشأ فيما بعد كانت الأوركسترا هي أيضًا دائرة مقدَّسة ، مع مـــذبح ديونيزوس في الوسط ، الذي يعطي التمثيل على شرفه » [1] .

وفي ختام هذه التطوافة ربما أكون بالغت في هذا التحليل ، وربما أكون متكلفًـــا ، لكنني على يقين من أن الوثنية قد تسلّلت إلينا عبر الموروث الشعبي ، فلا زال الناس إلى يومنا هذا يذبحون للجن ، ويقومون بطقوس وثنية في احتفالاتهم أثناء الأعيـــاد والأعراس ، وأثناء المآتم وطريقة دفن موتاهم وما يعقبها من طقوس ، لكن يهمـــني هنا ما تسلّل من طقوس وثنية عبر الألعاب الشعبية ، وما صاحبها مـــن أهـــازيج وأظنني قد سلطت الضوء على شيء قليل منها .



(١) الرموز في الفن – الأديان – الحياة ص (٤٨٠) .

عبادة البطل

يكره الإنسان لحظات الضعف ، ويتوق للقوة ويراها قمة سعادته .

الأقوياء والأبطال هم السعداء في هذه الحياة ، والضعفاء هم الأشقياء الذين تطحنهم الحياة بمنسمها غير عابئة بهم صاحوا أم صوّتوا ، لهذا الأمر أعلى الإنسان من القوة في أمثاله وحكمه وأشعاره ، لا سيما الإنسان البدوي الذي عاش في الصحراء فعانى قسوة الطبيعة ، وذاق مرارة العيش واحتراق قلبه بظلم القوي له ، هاهو (قريط بن أُنيف) يقول في مرارة حين سرقت إبله واعتدي عليه فلم يسعفه قومه لهوانهم وضعفهم :

لو كنت من (مازن) لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذًا لقام بنصري معشر خُشُنٌ عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

هنا يقدم لنا قريط بن أنيف صورةً للبطل الجماعي ، وهم القبيلة ، فهو يقارن – في حسرة – بين قبيلته الضعيفة المهانة وبين قبيلة مازن القوية المهابة ، وهذه القبيلة (مازن) تحمل البطولة في كل فرد من أفرادها ، بدليل أن قريط قال عنهم : (طاروا إليه زرافات ووحدانًا) ، هكذا هو القوي والبطل له هيبة في نفوس الناس ، والشعر العربي [سواءً الجاهلي والإسلامي] مليء بمثل هذه الأمثلة التي تعلي من شأن البطل وتمجِّد البطولة ، ومنذ فجر التاريخ والإنسان يعلي من شأن الأبطال ويعجب بهم ، ويراهم كائنات خارقة للعادة ، حتى إذا أفرط في الإعجاب بهم وطغى حبه لهم ، جعلهم آلهة يعبدهم ويقدم لهم القرابين ، إكرامًا لهم ، لا سيما بعد موتهم ؛ لأنهم أصبحوا أرواحًا مقدسة يهابهم ويرجوا نفعهم .

يقول (مرسيا إلياد) :

« فبوفاة البطل يصبح عبقرية ، حاميًا يحمي المدينة ضد الغزوات والأمراض وكل

أنواع الكوارث » [1] .

والإنسان القديم الذي انقطع عنه نور التوحيد الإلهي لا شك أنه تخبّط أيما تخبط في البحث عن إله يعبده ، فعبد الشمس والقمر والكواكب والأشجار والأحجار ، حتى عبد الإنسان البطل المتمثل في القائد الحربي أو الإمبراطور ، وظهرت عبادة (الطوطم) وهي عبادة الأسلاف الذين تجسدت أرواحهم في نبات أو حيوان بعد الموت .

يقول فراس السوّاح :

« ليس البحث عن أصل فكرة الآلهة في تاريخ الدين بالأمر الجديد ، بل هو أقدم بكثير مما يتصوره البعض ، ولعل أول مفكر دون لنا رأيه حول هذا الموضوع هو الإغريقي (يوهيميروس) الذي أشار في كتابه : التاريخ المقدس إلى أن الآلهة كلهم كانوا في الماضي البعيد رجالاً بارزين بين الناس ، وكانت لهم مكانة ممتازة في حياتهم ثم قدّسهم الناس بعد مماتهم » [2] .

وهذا الرأي تبناه كثير من دارسي علم الإنسان (الأنثروبولجيا) ولكن الصحيح الذي يخبرنا به القرآن الكريم أن الناس كانوا (أمةً واحدة) فلما ظهر فيهم الشرك وعبادة الأوثان بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وكان أول الأنبياء والرسل نوح عليه السلام ، فقد بعث في قوم يعبدون الأصنام ، ويعكفون عليها وهي (ودّ) و (سواع) و (يغوث) و (يعوق) و (نسر) ، وهذه الأسماء لأشخاص صالحين ماتوا فنحتت لهم التماثيل للذكرى ، فجاءت الأجيال التالية فعبدتهم ، وكان الحثيون يؤلهون ملوكهم بعد موتهم ، كذلك كان الياباني القديم والصيني القديم أيضًا ، ويرون في الإمبراطور تمثلاً للإله ، ولأن أسلاف الملك آلهة ، كان عليه إذا مات أن يعود إلى أصله السماوي أي إلى آبائه الآلهة .

---

(١) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية (٣٥٣/١) .

(٢) فراس السوّاح ، دين الإنسان ص (٢٠٤) .

يقول (مرسيا إلياد) عن الحثيين :

« وقد كان الملوك بعد موقم يؤلّهون ، وعند الكلام عن موت ملك كان يقال : لقد أصبح إلهًا ، وكان تمثاله يوضع في المعبد ، وكان الملوك الحاكمون يقدّمون إليه تقدماقم . وحسبما تذكر النصوص فإن الملك كان معتبرًا خلال حياته كأنه التجسيد لأسلافه المؤلهين » [1] .

والإغريق والرومان أيضًا ألّهوا بعض الشخصيات البشرية ، ونظروا إليها على أنها أنصاف آلهة ، فألّه الإغريق (هرقل) وغيره ممن تحدّروا من نساء بشريات عاشرقن الآلهة .

يقول (خزعل الماجدي) : « ولعل أشهر أبطال الإغريق في عصر البطولة الأول يتحدرون بنسبهم من (زوس) أو آلهة آخرين اتصلوا بنساء بشريات ومن هؤلاء : بلياس ، نيليوس ، أمفيون ، زيثوس ، كاستور ، بوليد يوكيس ، برسيوس ، هيراكلس (هرقل) [2] .

بل إن الإغريق ألّهوا حتى (هوميروس) مؤلف الإلياذة والأوديسة ! .

ولأن الرومان ورثوا عن الإغريق حضارقم وعقائدهم الوثنية أيضًا فإنهم ألّهوا بعض أبطالهم أمثال : إينياس بطل الملحمة الرومانية (الإنياذة) التي ألفها فرجيليوس أو (فرجيل) و (إينياس) بطل طروادي خرج منها بعدما خسروا المعركة . فقد جاء في الإلياذة أن أُمّه هي (فينوس) أو (أفروديت) عند الإغريق ، وأبوه هو (أنغيسس) .

وقد شيد له أهل (كريدينوس) معبدًا وهيكلاً ودعوه رب المكان ، كما يذكر ذلك خزعل الماجدي في المعتقدات الرومانية .

ومن الذين ألهم أهل روما (روميولوس) و (ريموس) ابني (ريا) التي حملت

---

(١) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية (مرسيا الياد) (١/١٨٠) .

(٢) المعتقدات الإغريقية ص (١١٥) .

بهما من الإله (مارس) إله الحرب ، بل إن يوليوس قيصر هو الآخر جُعل مع الآلهة بعد موته .

يقول خزعل الماجدي :

« بعد الأعمال العظيمة ليوليوس قيصر وقبيل فجيعة التآمر عليه وقتله كانت الآلهة فينوس تحاول جاهدةً تغيير مصير قيصر لكن جوبتير أقنعها بأن لا سبيل إلى ذلك ؛ لأنه مكتوب في ألواح الأقدار المصنوعة من البرونز والحديد . ولا يمكن تغييره لكنه وعدها بأنه سيجعل منه خالدًا مع الآلهة [1] .

وإذا أُلّه الأبطال من بني البشر ، فمن باب الأولى عند الذين تخبطوا في عقائدهم أن يؤلّهوا الأنبياء ؛ لأن لهم صلة مباشرة بالسماء ، فألّه اليهود أ وفرقة منهم النبي عزير ، وأله بعض النصارى عيسى بن مريم عليه السلام .

ولا شك أن هذه العقيدة جاءتهم من الوثنيين القدماء الذين عايشوهم ، فاليهود عايشوا البابليين في بابل وكذلك تأثروا بالإغريق أيضًا ، والنصارى تأثروا بالوثنية الإغريقية والرومانية .

وحظيت عبادة الأبطال باهتمام بالغ على مر التاريخ ، حتى التاريخ الإسلامي لم يسلم من هذه الظاهرة ومقدماتها ، فكان السجود وتقبيل الأرض بين يدي الخليفة موجود في الدولة العباسية ، فهناك فرق إسلامية وجماعات بالغت في الاحتفاء والتقدير لأبطالها ورموزها ، حتى ألّهوهم ، وجعلوهم أنصاف آلهة يتصرفون في الكون كما كانت آلهة الإغريق والرومان تفعل ! .

وهذا بلا شك جاء عن التأثر بالقدماء ، ومرجع ذلك هو الإعجاب والحب المُفْرِطَيْن .

يقول (كارليل) في كتابه الشهير (الأبطال) : « ألا تفهمون بعد ذلك كله ، كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون ما نسميهم عبّاد الكواكب ؟ هذا

---

(1) المعتقدات الرومانية ص (٣٢٤) .

هو ما أراه سرّ الوثنية ، أعني إفراط العجب والاندهاش من الشيء حتى يصير تقديسًا وعبادة ، وكذلك كان كل شيء في نظر أولئك الأقدمين رمزًا إلى شيء إلهي أو إلى إله » [1] .

هكذا هو الإنسان يحب البطولة ويعشق الأبطال ، ويودّ لو أنه أصبح إنسانًا كاملاً لا نقص فيه .

كما حاول (نيتشه) يوم أن قال بنظرية (السوبرمان) أي الإنسان الكامل الذي لا يحتاج لقوّة أخرى .

ولقد بالغت السير الشعبية عند كل الشعوب في وصف البطل وخوارقه التي لا تخطر على بال ، وما ذاك إلا لأن الإنسان يشعر بعجزه إزاء هذا العالم الكبير ، وهذه الطبيعة المرعبة .

لقد أحسّ الإنسان بضعفه ، فراح يتقوى بالصناعة ، فصنع الآلات البدائية كالفأس والرمح والسيف حتى وصل إلى المدفع والدبابة والصاروخ والطائرة ، وما زال الإنسان يشعر بضعفه ، لهذا يلجأ إلى السحرة والمشعوذين يطلب منهم القوة والأمان للأسف .

واليوم نرى عبادة الأبطال قد جاءت بثوب جديد ألا وهو ثوب الفن والرياضة .

فهناك آلاف الأبطال الذين يُعجب بهم الناس ويقدرونهم ويقدسونهم ، حتى وصل الأمر ببعض المعجبين أن انتحر حين مات البطل الفني أو الرياضي ، فقد جعلوا أنفسهم وأرواحهم قرابين بشرية تقدّم لروح هذا الفنان العظيم ! .

فهم بذلك قد فاقوا الوثنيين القدماء ، فأولئك كانوا يقدمون القرابين من الحيوانات والنبات أو الأعداء من البشر ، وربما قدّموا أبناءهم ، لكن أن يقدّموا أنفسهم هم فهذا شيء لم يخطر ببالهم ! .

لقد أصبح التعبير بـ (معبود الجماهير) يطلق على كثير من الفنانين والرياضيين ،

---

(١) كتاب الأبطال ص (١٨) .

واسمع إلى ما يقوله (كارليل) عن البطل والإعجاب به : « أجل إن البطل ما زال معبودًا منذ (أودين) إلى (جونسون) ومن المسيح إلى أحقر قسيس في كل مكان وزمان ، وسيكون ذلك ما دام الليل والنهار ؛ لأنه ما منا إلا من يعشق الأبطـــال ، يعشقهم ويجلّهم ، وينحني إكبارًا لهم ، وهل ينبغي الانحناء لغيرهم ؟ بل ألا يحـــسّ المرء أن في إجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه ؟ » (١) .



---

(١) كتاب الأبطال ، ترجمة : محمد السباعي ص (٢٥) .

كيف عرفت المفكر (مصطفى محمود) ؟

كنتُ واثنتان من خالاتي صغارًا ، نحرص على مشاهدة التلفزيون ، وكانت الرسوم المتحركة والمسلسلات الكويتية والعربية هي التي تشدّنا آنذاك ، وبعد فترة صرنا نحرص على مشاهدة الأفلام العربية التي كانت تعرض في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات من القرن العشرين ، حتى عرفنا أسماء النجوم الفنية ، وصرنا نحتفظ بصورهم التي كنا نجدهم في (العلك) الذي نشتريه من أحد بيوت الجيران آنذاك ، وكانت أغلب البرامج تعجبنا وتشدّ انتباهنا إلا برنامجين تنويريين ما كنا نحبهما ولا نحرص على مشاهدتهما هما : العلم والإيمان للمفكر الكبير (مصطفى محمود) ، وحلقات التفسير للشيخ محمد متولي الشعراوي ! فقد كنا نغيّر المحطة بمجرد ما نراهما ! وكنا نضحك من أسلوب الشيخ الشعراوي (رحمه الله) ، حين يتمايل ، وكنا نتندّر على مصطفى محمود حين يتحدث عن النمل والنحل وسائر الحشرات ، حتى إذا كبرتُ وصاحبتُ الكتب ، صرتُ أحرص على حلقات الشيخ الشعراوي وأتعجّب وأندهش من سلاسة هذا الأسلوب ومتانة معرفته ، وكيف ينزل الآيات على الواقع ، ويبسط الفهم لمختلف العقول (رحمه الله) .

أما المفكر الكبير (مصطفى محمود) فقد أولعتُ بثقافته ، وصرت أقتني كتبه ومسرحياته ، وأتذكر أنني وخالتاي العزيزتان قد شاهدنا أيام الصبا فيلمًا عربيًا بعنوان (شلة الأنس) بطولة (نور الشريف) و (نيللي) و (عزت العلايلي) ، وما كنا نعلم أنه من تأليف (مصطفى محمود) الذي كنا نتندّر على موضوعاته الفكرية والطبيعية .

بدأت أقرأ لمصطفى محمود وأعجبت بكتابه الجميل (القرآن محاولة لفهم عصري) حيث إن مصطفى محمود له رؤية للدين تتغلغل إلى الأعماق ، فهو فيلسوف ومفكر أكثر منه مفسّرًا ، فهو لا يطرح تفسيرًا ، إنما يطرح فهمًا ، ولذا جاء عنوان الكتاب (محاولة لفهم عصري) ، ومما جاء في مقدمة الكتاب (وقد ظلل علماء

الفلك يتحدثون عن سبعة كواكب تدور حول الشمس حتى نزلت آيات القــرآن تتحدث عن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمـــر في ســـورة يوســـف ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة يوسف] ، ونعلم اليوم أن التلسكوبات الفلكية رصدت بالفعل أحد عشر كوكبًا تدور مع الأرض والقمر علـــى أبعـــاد شاســـعة متفاوتة حول الشمس . . . » [1] .

ثم تحدث في المقدمة عن (الجينـــوم البـــشري) واستـــشهد بقـــول الله تعـــالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القيامـــة] وقال : عشنا وسمعنا الرئيس الأمريكي (كلينتـــون) يعلن عن اكتشاف (الجينوم البشري) عبر الإذاعات للعالم كلّه . . . » [2] .

ومصطفى محمود يدهشك في أغلب كتاباته حيث إنه متابع للتقنية وللعلوم ومفكرٌ في كل ما يستجدّ ، فهو متجدّد دائمًا ، ويغوص في الأعماق ، ويعرف مـــا وراء الأكمه كما تقول العرب .

وهو من المؤلفين القلائل الذين يحترمون أنفسهم ويقدِّرون عقل المتلقـــي ، فهـــو لا يلجأ إلى الهذر والإنشائية ، إنما سطوره تعج بالأفكار والتحليل ، وقـــرأت لـــه كتاب (تأملات في دنيا الله) وهو مجموعة مقالات جميلة وفيها أفكار منثـــورة ، وكتاب (على حافة الانتحار) وهو مقالات عن اليهود ودورهم الخطير في المنطقة العربية ، وكتاب (إبليس) وكتاب (وبدأ العدّ التنازلي) و (الـــسر الأعظـــم) و (الأحلام) وهو كتاب رائع جدًا يحتاج إلى صفحات ، وقرأت له ما لا أحصيه الآن ، لكن ما أريد قوله أنني قرأت مصطفى محمود في شكّه وإلحـــاده ، وقرأتـــه

---

(١) القرآن . . . محاولة لفهم عصري .

(٢) المصدر السابق ص (١١) .

مؤمنًا صوفيًا ، وقرأته مؤمنًا قرآنيًا لا يُصنَّف لا إلى هذه المفرقة ولا إلى تلك .
فمصطفى محمود قد تقلَّب في مراحل كثيرة ، لكنه بحق في كل مرحلة كان عقلاً جبارًا ، يدهشك بتحليلاته ونتائجه التي تتفق معه فيها وتختلف ، ومن أراد أن يعرف عقلية مصطفى محمود وسهولة أسلوبه فليقرأ (المعمار القرآني) في كتاب (القرآن محاولة لفهم عصري) فهذا الفصل من الكتاب فيه من الروحانية الفكرية ما يعجز القلم عن وصفه ! .
ومن الكتب التي أدهشتني وأعجبتني كتاب (الله) ، فقد أبدع فيه مصطفى محمود أيما إبداع ، وكنت قبله قد قرأت كتاب (الله) للكاتب العملاق (عباس محمود العقاد) وكان العقاد يرحمه الله عملاقًا في ذلك الكتاب كما هو في أغلب كتبه .
لكن مصطفى محمود كان رشيقًا في هذا الكتاب رشاقة الرياضي الأثيني حين يمارس رياضته في الماراثون ، ومقدمة الكتاب كانت ابتهالاً رائعًا من قلب وفكر رجل ذاق حلاوة الإيمان ، فقد استغرق هذا الابتهال والثناء على الله تعالى سبعًا وخمسين صفحة ، ثم بدأ يتحدث عن (الله في العبادات منذ فجر التاريخ) .
مصطفى محمود ربّما صدرت منه عبارة جريئة ، أو عبارة تشم منها رائحة زندقة ، لكنه بحق كان مؤمنًا حتى في شكّه ! .
يقول في كتابه (تأملات في دنيا الله) : بل إن المفكر المادي يقول في جرأة عجيبة « في البدء كانت المادة ، ثم تطورت المادة إلى كافة صور الحياة والفكر » .
وكأنه كان موجودًا لحظة بداية الخلق ، متربعًا على كرسي بالكون يتفرج على ميلاد الدنيا .
هو يتكلم عن غيب ، ويبدأ من غيب ، ولا يملك إلا افتراضات واحتمالات ونظريات ، ثم يتهمنا نحن بالغيبية [1] .
هكذا يردّ مصطفى محمود على الماديين في سهولة وإقناع .

---

(١) تأملات في دنيا الله ص (٤١) .

وبكل فخر أقول : إننا نفخر بهذا العقل المسلم الذي استطاع أن يتخطى في ميادين كثيرة ، ويسبر أغوار بحار عميقة ، شك وألحد ، وتيقن وآمن .

وجاء في الأخير بأصداف كثيرة ودُرَرٍ أكثر وأكثر .

يقول مصطفى محمود عن طفولته : « ولدت في ١٩٢١/١٢/٢٧م لا أذكر من طفولتي إلا الأحلام التي كنت أتخيّل فيها أني عالم ومخترع أو رحّال أو بطل من أبطال التاريخ ، كما أذكر حبّي للموسيقى والشعر [١] .

وبالفعل فقد كان حالمًا في طفولته وفي رجولته ، فأغلب كتبه كانت أحلامًا وردية للعقل العربي ، كان بودّ مصطفى محمود لو استطاع القارئ العربي أن يحققها على واقع حياته .

وكما عرف الكاتب الراحل (حسن ظاظا) بكتاباته عن اليهود ، وكذلك المفكر الراحل (عبد الوهاب المسيري) . كذلك كان مصطفى محمود ، فله كتابات وكتب عن اليهود ، غاية في الخطورة والتحليل ، فكتابه (الطريق إلى جهنم) يفضح الكيد الأمريكي الإسرائيلي للعرب والإسلام ، وخاصة حين تحدَّث عن الخريطة السرية التي قدَّمها (برنارلويس) وعرضها (على الكونجرس في جلسة سرية أمام ريجان . . . » [٢] .

وكذلك كتابه (إسرائيل . . البداية والنهاية) وهو كتاب تنبؤي فكري ، يحلّل النصوص والأوضاع الراهنة وقت صدوره ، وهو كتاب خطير ومخيف ! .

وكذلك كتابه الثالث (وبدأ العدّ التنازلي) فقد تحدث فيه عن المكر اليهودي المتمثل في فكر (كارل ماركس) وتحدث عن الخداع الأمريكي الإسرائيلي للدول العربية والإسلامية ونشر الفساد والفوضى ليتم المشروع الصهيوني .

أما كتابه الرابع فهو كتاب (على حافة الانتحار) في هذا الكتاب أيضًا فضح

---

(١) أعلام الأدب المعاصر روبرت كامبل (٤/٢) .

(٢) الطريق إلى جهنم ص (١٣٧) .

لمخططات إسرائيل ورعاية أمريكا لهذا المخطط .

إذًا كانت القضية الفلسطينية من هموم وأوليَّات القضايا التي يناقشها كاتبنا الكبير مصطفى محمود .

تحية لك يا دكتور مصطفى مع تمنياتي لك بالشفاء العاجل [1] .



(١) توفي رحمه الله تعالى في هذا العام (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م) .

هُبَل . . . البداية والنهاية

كانت جزيرة العرب – قبل الإسلام – ترزخ تحت براثن الوثنية التي امتدت من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، حيث كانت الحجارة أصنامًا وآلهة تعبد من دون الله تعالى .

كان العربي – إلا نفرًا يسيرًا من الأحناف وغيرهم – يعلّق آماله وأحلامه على هذه الأصنام ، يستسقي بها المطر ، ويستنصر بها في الحروب ، ويستأنس بحكمها ومشورتها حين يزمع السفر أو يقدم على عملٍ ما .

كانت الأصنام تملأ حياة العربي ، كما تملأ الجهالات عقله ! وكانت الكعبة المشرفة تغصّ بعدد الأصنام التي عُلّقت عليها ، كما علّقت القصائد المعلقة ، فقد كان عليها من الأصنام (٣٦٠) صنمًا بعدد أيام السنة ، فكل يوم شرك ، وفي كل يوم ضلال ! وكان سادات القبائل ، ولا سيما قريش ، ينعمون في هذا المجتمع الوثني ، فهم الذين يحللون ويحرمون ، وهم الذين يحكمون ، وحين يغيبُ العقل تغيب الإنسانية .

كانت الأصنام تُجلب من خارج مكة المكرمة ، فبعضها جاء من اليمن عن طريق السبئيين ، وبعضها جُلب من الشام ، والبعض أُتي به من العراق ، وهكذا كانت جزيرة العرب متأثرة بأديان الدول المجاورة ، فأغلب الأصنام – كما تذكر كتب السيرة النبوية – جاء بها عمرو بن لحي الخزاعي من الشام ، حتى تجمعت الأصنام فصارت ٣٦٠ صنمًا حول الكعبة ، ولا شك أن هذا العدد كثير جدًّا .

وكما يبرز من البشر قليل برز من هذه الأصنام قلّة ، أمثال : اللات والعزى ومناة وهبل وإساف ونائلة ، وكل هذه الأصنام كانت معظمة ، وكان لكل قبيلة صنم تعبده ، لكن هذه الأصنام كانت معبودة من أغلب القبائل ، وانفردت قريش بـ (هبل) حتى وضعته داخل الكعبة ، فما هي بداية هذا الصنم ؟ ومن أين جاء ؟ وما هي وظيفته ؟ وما جنسه ؟ وكيف كانت نهايته ؟ كل هذه الأسئلة

وغيرها سوف نناقشها خلال هذه السطور .

من أين جاء هبل ؟ وأين وضع ؟

قال ابن هشام : حدثني أهل العلم : أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذٍ العماليق – وهم ولد عملاق ويقال : عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح – رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوني منها صنمًا ، فأسير به إلى أرض العرب ليعبدوه ؟ فأعطوه صنمًا يقال له : هبل فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه [1] .

وحين تحدَّث الأزرقي عن البئر التي بناها إبراهيم عليه السلام داخل جوف الكعبة قال : وهو الجبّ الذي نصب عليه عمرو بن لحي هبل الصنم الذي كانت قريش تعبده ، ويستقسم عنده بالأزلام حين جاء به من هيت من أرض الجزيرة [2] .

أما (ابن الكلبي) فيذكر أن الذي نصب هبل داخل الكعبة هو خزيمة بن مدركة (وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة (بن إلياس بن مضر) وكان يقال له هبل خزيمة ، وكان في جوف الكعبة قدّامه سبعة أقدح . . . [3] .

ويذكر العلامة (جورجي زيدان) أن مكان هبل فوق الكعبة ! وهو مخالف لما رواه ابن الكلبي في كتابه الأصنام ، يقول زيدان : « فهبل أكبر أصنام العرب ، وكانوا ينصبونه فوق الكعبة » [4] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٠ – ٦١) .

(٢) أخبار مكة للأزرقي (١/٦٥) .

(٣) الأصنام لابن الكلبي ص (٤٣) .

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي (٣/٢٧٦) .

مادته وجنسه :

ترى ما هي المادة التي صنع منها هبل وما هو جنسه ؟ هل هو ذكر أم أنثى مثل اللات والعزى ومناة ونائلة ؟

يذكر ابن الكلبي أن هبل من عقيق أحمر « وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدًا من ذهب » (١) .

أما العلامة (جورجي زيدان) فيذكر غير ذلك : « . . . وذكروا أنه كان مصنوعًا من نحاس - وقيل من قوارير أي زجاج - على هيئة رجل ضخم ، وكانوا يذبحون له ، ويستخيرونه في أسفارهم وحروبهم وسائر أعمالهم » (٢) .

مناقشة الاسم :

يقول العلامة (جورجي زيدان) : « . . . إن لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه ، فهو غير مشتق من لفظ عربي ، وعندنا أنه عبراني أو فينيقي أصله (هبعل) وهو اسم أكبر أصنام الفينيقيين أو الكنعانيين ومن جاورهم من أمم الشام ، كالموابيين والمديانيين والبابليين والليبيين ، وكان للفينقيين عشرات من الآلهة يميزون منها إلهين ، أحدهما ذكر والآخر أنثى ، ويسمون الذكر (هبعل) والأنثى (عشتروت) ، ومعنى (بعل) في لسانهم : السيد أو الإله ، والهاء في العبرانية أداة التعريف مثل (ال) في العربية . . . » (٣) .

وحين نرجع إلى ابن منظور فإنه يقول : والهِبْلُّ الضخم من الرجال والنعام والإبل ، ثم يقول : والهبلُّ : الرجل العظيم ، وقيل : الطويل والأنثى بالهاء ، إلى أن قال : وهبل : اسم صنم كان في الكعبة لقريش ، وفي حديث أبي سفيان قال يوم أحد :

---

(١) الأصنام ص (٤٣) .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي (٣/٢٧٥) .

(٣) المصدر السابق (٣/٢٧٥ - ٢٧٦) .

اعل هبل هو الصنم الذي كانوا يعبدونه [1] .

فهل أخذ الهبِلُّ من هُبَل ؛ لأنه ضخم الجثّة وطويل أيضًا ؟

وظيفته :

يقول ابن الكلبي عن هبل : وكان في جوف الكعبة قدّامه سبعة أقدح مكتـــوب في أولها صريح والآخر ملصق ، فإذا شكّوا في نسب مولود أهدوا له هدية ثم ضـــربوا بالقداح فإن خرج صريح ألحقوه ، وإن كان ملصقًا دفعوه ، وقدح علـــى الميـــت وقدح على النكاح ، وثلاثة لم تفسر لي على ما كانت ، فإذا اختصموا في أمـــرٍ أو أرادوا سفرًا أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقدح عنده ، فما خرج عملوا به وانتـــهوا إليه .

وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله وهو الذي يقول له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد : (اعل هبل) أي : علا دينك ، فقال رســـول الله ﷺ : « **الله أعلى وأجل** » [2] .

وقد تقدم الحديث عن جلب عمرو بن لحي الخزاعي لهبل من الشام أنهم قالوا لـــه عن تلك الأصنام : هذه الأصنام نعبدها فنـــستمطرها فتمطرنـــا ، ونستنـــصرها فتنصرنا [3] .

إذًا فهبل لإنزال المطر والنصر في الحروب والمشورة في كل شيء ، بدليل أنهم كانوا يأتون إليه يستقسمون في أمورهم بالقداح ، وكانوا يهتفون عنده :

إنا اختلفنا فهب السراحا

ثلاثـــة يـــا هبـــل فـــصاحا الميـــت والعـــذرة والنكاحـــا

---

(١) لسان العرب (١٥/٢١ - ٢٢) .

(٢) الأصنام ص (٤٣ - ٤٤) .

(٣) سيرة ابن هشام (١/٦١) .

والـــبرء في المـــرض والـــصحاحا   إن لم تقلـــه فمـــر القـــداحا [1]

ويقول الأزرقي أيضًا عنه : « وكان هبل من أعظم أصنام قريش عندها ، فنـصبه (عمرو بن لحي الخزاعي) على البئر في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافــه بالبيـــت ، وحلــق رأســه عنده [2] .

والأزرقي هنا يجعل تنصيب هبل من عمل عمرو بن لحي الخزاعي بينما ابن الكلبي قال : إن الذي نصبه هو (خزيمة بن مدركة) ، وفي (هبل) وغيره يقول زيد بن عمرو بن نفيل (القرشي) : وكان قد تأله وترك عبادتها وعبـــادة غيرهـــا مـــن الأصنام :

تركـــتُ الـــلاّت والعـــزى جميعًـــا   كـــذلك يفعـــل الجلـــد الـــصبور

فـــلا العـــزى أديـــن ولا ابنتيهـــا   ولا صـــنمي بـــني غـــنم أزور

ولا هـــبلاً أزور وكـــان ربًـــا   لنا في الدهر إذ حلمـــي صـــغير [3]

إذاً كان هبل ربًّا من بين الآلهة ، فهو المعظّم وهو الذكر بين اللات والعزى ومناة ، فكل هؤلاء آلهة أنثى .

اعتناء قريش به :

مرَّ بنا أن قريشًا اعتنت بهبل اعتناءً كبيرًا ، فهي التي أصلحت يده اليمنى المكسورة بيد من ذهب ، وهي التي نصَّبته في جوف الكعبة - على رأي ابن الكلبي - وهي التي جعلته كبير آلهتهم ، وحين كان يوم أحد نادى أبو سفيان بن حرب (اعـــل هبل) ، وحين كانت قريش تبني البيت الحرام ، اقترعوا عند هبل .

يقول الأزرقي : « وترافدوا في النفقة وربعوا قبائل قريش ، أرباعًا ثم اقترعوا عنـــد

---

(١) الأزرقي أخبار مكة (١١٩/١) .

(٢) المصدر السابق (١١٧/١) .

(٣) كتاب الأصنام ص (٣٨) .

هبل في بطن الكعبة على جوانبها . . . » [1] . هكذا كانت قريش تعظِّم هبلاً .
ولا شك في أن هذا التقدير لهبل من قريش خاصة ، إنما كان من أجل التقرب إليه ، والتبرك به ، ومن أجل التماس الشفاعة والدعاء ، وشكرًا لله على ما أعطوه من دون سائر الناس أجمعين ، وتأكيدًا لهذا المعنى وكما يحكي بهذا الخصوص فإن عبد المطلب جاء هبل ومعه حفيده محمد ﷺ وكان ما يزال رضيعًا فأدخله إليه شاكرًا لله على ما منَّ عليه من نعمة وفضل [2] .

نهاية هبل :

يذكر الأزرقي كيف كان فتح مكة وكيف كانت نهاية هبل فيقول : « . . . ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام ، وجاءه معمر بن عبد الله بن فضالة فأخرج راحلته والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه ، فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال : لولا أن تُغْلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلوًا ، فنزع له العباس بن عبد المطلب دلوًا فشرب وأمر بهبل فكسر وهو واقف عليه فقال الزبير بن العوام لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان قد كسر هبل أما إنك قد كنت منه يوم أُحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم عليك ، فقال أبو سفيان : دع هذا عنك يا ابن العوَّام فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان [3] .

تساؤلات :

بعد هذا الرصد لسيرة هذا الصنم المعبود ، يحق لنا أن نطرح تساؤلات حول هذه السيرة التي اهتمَّ بها المؤرخون القدامى ، وأول ما نتساءل حوله هو مصدر هذا الصنم وموطنه فهو تارة من هيت في العراق وتارة من الشام (البلقاء بالأخصّ) ، لكن لعل هيت العراق هنا وهم من الأزرقي فهناك هيتٌ بالشام أيضًا وذكرها

---

(١) الأزرقي (١٦١/١) .
(٢) يحيى شامي (الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام) ص (١٣٥) .
(٣) الأزرقي (أخبار مكة) ص (١٢٢) .

ياقوت الحموي فقال : وهيتٌ أيضًا من قرى حوران من ناحية اللوى من أعمال دمشق [1] .

ولأن ابن هشام يقول عن عمرو بن لحي الخزاعي أنه « فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق . . . » .

إذًا أغلب الظن أنه جاء من الشام وليس من العراق ، علمًا أن أصل هذا الإله وموطنه الأصلي قبل أن يأتي الشام كان العراق ، لكن ذلك كان منذ آلاف السنين ، وربما كان هو الإله (بعل) كما قال العلامة (جورجي زيدان) فبعل هو السيد كما أن هبل هو كبير الآلهة ، وهو الذكر فيها ، وبعل هو الذي عناه الله تعالى في قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [سورة الصافات] ، وكان ذلك في زمن إلياس ، وبه سميت (بعلبك) المدينة المعروفة ، وعنه يقول ياقوت الحموي : « . . . وأما بعل في قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ فهو صنم كان لقوم إلياس النبي عليه السلام وبه سمي بعلبك ، وهو معظّم عند اليونانيين ، كان بمدينة بعلبك من أعمال دمشق ثم من كورة سنير ، وقد كانت يونان اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض من جبل لبنان ثم في جبل سنير فاتخذته بيتًا للأصنام . . . » [2] .

والذي يؤيد ذلك أن هبل جاء من الشام ، ويده اليمنى مكسورة فوضع القرشيون له يدًا من ذهب ، وهذا دليل على أن اليد اليمنى انكسرت من جرّاء ما كان يفعله عبّاده من مسح يده اليمنى لينزل لهم المطر .

فقد جاء في كتاب (قاموس أساطير العالم) لـ (آرثر كورتل) : « . . . فبعل

---

(١) معجم البلدان (٨/٤٩٠) .

(٢) المصدر السابق (٢/٣٥٩) .

إله المطر والرعد والبرق ، وبلمسة من يده اليمنى تختفي أشجار الأرز » [1] ، وهذا كناية عن تبدُّل الفصول ، إذًا لإنزال المطر كما هو هبل ، لذا وضع على بئر الأخسف في جوف الكعبة ؛ لأن (بعل) في أساطير بلاد ما بين النهرين يحتاج إلى بيت ، تقول آثر كورتل : « . . . وهي نفس الأفكار التي التقت بها أساطير بلاد ما بين النهرين ، إذ تتكرر أصداؤها حول بعل وحاجته إلى بيت » [2] .

وأيضًا بعل إله حرب كما ذكر (مرسيا إلياد) : « إنه مصدر ومبدأ الخصب ولكنه محاربٌ أيضًا » [3] .

وبعل هو الذي حارب الإله (موت) أي الموت وهزمه .

إذًا هناك تشابه بين هبل وبعل إلى درجة كبيرة ، واختارت قريش هبلاً سيدًا لآلهتها ؛ لأنه - كما قلت - ذكر ، والسيادة في الغالب للذكور ، لذا جعلته في الكعبة ووضعت له يدًا من ذهب ، وهذا هو شأن الملوك والقادة ، أعني التميز ، فهم ميزوا هُبلاً عن بقية الأصنام والأنصاب - الحجارة المنصوبة على بعضها البعض - وتميّز هبل على بقية الأصنام ، جاء من تميز قريش على القبائل ؛ لأنه صنمها وإلهًا ، فكل الأصنام معلقة على الكعبة ، إلا هبلاً فإنه في جوف الكعبة ، وتلك ميزة ومزية للصنم وعُبَّاده .

ولو قلنا إن هبلاً جاء من (هيت) العراق [كما قال الأزرقي] فيناسب أن يكون قريبًا من (مردوك) ، فمردوك هو إله الحرب ، وهو المريخ ، وصوّر على صورة تنين ، وقيل كان من طين أحمر ، وهبل - كما جاء عن ابن الكلبي - من عقيق أحمر ، ومردوخ إله حرب أيضًا ويرمز به إلى كوكب المريخ الأحمر ، وهناك من يجعله رمزًا للمشتري ، فهبل على هذه الحالة يشبه (بعل) من جهة ، ويشبه

---

(١) قاموس أساطير العالم ، ترجمة : سهى الطريحي ص (٣١) .

(٢) موسوعة أساطير العالم ص (٣١) .

(٣) تاريخ الدينية (١٩١/١) .

(مردوخ) من جهة أخرى .

وكما هو معلوم أن الإله الوثني تتعدَّد صوره بتعدد البلدان التي يُعبد فيها ، فعشتار هي افرDويت الإغريق وفينوس الرومان .

ونصل في نهاية المطاف إلى أن قريشًا رأت في (هبل) سيدًا ذكـــرًا ، فناســـب أن يكون هو أب الآلهة وسيدها ، كما أن قريشًا هي سيدة قبائل العرب .

ولأن (بعل) ليس له هيكل كباقي الآلة لذا هو يبحث عن بيت أو قصر ، فناسب ذلك وضع قريش لهبل في جوف الكعبة ، وكما أن بعل إله حرب ، فهبل أيـــضًا كان إله حرب ، بدليل أن أبا سفيان قال في معركة (أحد) : اعلُ هبل ، وجـــاء في قول أهل الشام عن الأصنام التي جلبها عمـــرو بـــن لحـــي : (ونستنـــصرها فتنصرنا) .

وإذا قلنا إن الذي جلب هبلاً هو عمرو بن لحي الخزاعي الذي كانت مكة المكرمة تحت زعامته ، فناسب أن يكون إله قريش - زعيمة القبائل - هو هبل ؛ لأن هبلاً هو إله الزعماء وسيد الآلهة الوثنية .



تمرّد المريد ـ واصل بن عطاء نموذجًا ـ
(٨٠ ـ ١٣١هـ)

كانت سنة ٨٠هـــ سنة ليست كالسنوات العادية ، فيها جاء « سيل بمكة ذهب بالحجاج فغرقت بيوت مكة ، فسمى ذلك العام عام الجُحَاف ؛ لأن ذلـــك السيل جحف كل شيء مرَّ به » (١) .

وفي هذه السنة ولد من الأعلام مَنْ أثَّر في أحداث التاريخ الإسلامي أمثال : جعفر الصادق وأبو حنيفة وزيد بن علي بن الحسين وعمرو بن عُبيد ، وكانت هذه السنة العجيبة هي سنة ميلاد رأس المعتزلة واصل بن عطاء الغزَّال ، الذي أسَّس مدرســة خطيرة في الفكر الإسلامي ، ما تزال أصولها الخمسة مدار نقاش بـــين المفكـــرين العرب والعلماء ، فهل واصل بن عطاء سيل فكري جحف كلَّ فكر مرَّ به ؟! .

فمن هو واصل بن عطاء ؟ وما هي ثقافته ؟ ومن هم مشايخه وأساتذته ؟ ومن هم تلاميذه ؟ وكيف كان تمرُّده ؟ وما هو أصله وجنسه ؟ .

أسئلة تطرح نفسها بقوة رجاء أن تتلقفها أجوبةٌ صادقة شافية .

عاش واصل بن عطاء الغزّال (مولى بن ضبة وقيل مولى بني مخزوم) (٢) . وكانت المدينة هي منشأ حياته ، فيها عاش ودرج وتلقى تعليمه على بعــض مـــشايخها ، وكما تحوّل الحسن البصري من المدينـــة إلى البـــصرة ، وصـــار يعـــرف بعـــدها بـــ (البصري) ، حدث ذلك مع صاحبنا أيضًا ، فـــ (عندما أنهى واصل علومه في المدينة تحوّل إلى البصرة قاعدة الآراء المختلفة ، والحضارات المتنافرة ، وهنـــاك صار يتردّد على أكبر مجمع علمي فيها هو مدرسة الحسن البصري ، حيث أخـــذ الفقه ، فاجتمعت لواصل الأصول (الفكر والعقائد) والفروع (الفقه) (٣) .

---

(١) الطبري (٣/٦١٦) .

(٢) وفيات الأعيان (٦/٧) .

(٣) محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، د . داود علي الفاضل ص (١٤٠) .

لُقّب واصل بالغزَّال ؛ « لأنه كان يلزم الغزّالين ليعرف المتعففات من النساء ، فيجعل صدقته لهن » [1] .

وكان فيما ذكروا « طويل العنق ، وكان إحدى الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغ في الراء ، قبيح اللثغة فيها ، فكان يخلّص كلامه من الراء ، ولا يُفْطن لذلك لاقتداره وسهولة ألفاظه ، وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه بإطالة الخطب وتجنبه الراء :

ويجعل البرَّ قمحًا في تصرّفه وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يُطق مطرًا والقول يُعْجله فعاذ بالغيث إشفاقًا من المطر

وكان واصل بن عطاء رغم هذه اللثغة والعنق الطويل ، وأنه من الموالي ، كان عالمًا مجادلاً عليمًا بالمذاهب والأديان ، إلا أنه كان صموتًا في فكر ، وقورًا في هيبة .

وكان يلازم مجلس الحسن ، ويظنون به الخرس من طول صمته ، فمرَّ ذات يوم بعمرو بن عبيد فأقبل عليه بعض مستحبي واصل فقال : هذا الذي تعدونه في الخُرس ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه . قال عمرو : أنّى هذا وله عنق لا يأتى معها بخير [2] .

وكان واصل بن عطاء صديقًا للشاعر الكبير بشَّار بن برد ، لكنه اختلف معه حين عظّم بشار من شأن النار ، وافترقا ، وقد هجاه بشار بأبيات مشهورة بعدما كان يمدحه ، ويشاء الله تعالى ويتزوج واصل بن عطاء من أخت عمرو بن عبيد الذي لم يتوقع لواصل الفلاح أبدًا ، ويصبح عمرو بن عبيد صديقًا لواصل .

« وسئلت أخت عمرو بن عبيد وكانت زوجة واصل : أيهما أفضل ؟ فقالت : بينهما بين السماء الأرض ، فقيل : كيف كان عملهما ؟ قالت : كان واصل إذا

---

(١) طبقات المعتزلة ، ابن المرتضى ص (٢٨) .

(٢) المصدر نفسه ص (٣٠) .

جنّه الليل صفَّ قدميه يصلي ولوحٌ ودواة موضوعان ، فإذا مرَّت به [آية] فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد في صلوته [1] .

عاش واصل في ظل الحكم الأموي ، وكان واصل ناقمًا على بني أمية ، وقد توفي قبل سقوط الدولة الأموية بسنة واحدة ، فقد توفي سنة ١٣١هـ وسقطت الدولة الأموية ١٣٢هـ ، وكان هوى واصل علويًا فقد نشأ واصل في المدينة في بيت محمد بن علي بن أبي طالب – محمد بن الحنفية – وكان مولى لهم ، وتعلّم مع أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية في المكتب وكان خلاً له ورفيقًا ، كما أخذ عنه العلم الذي أخذه أبو هاشم عن أبيه . . . وفي الواحدة والعشرين من عمره ذهب إلى البصرة أي في سنة ١٠١هـ التقى بعمرو بن عبيد وزامله في حلقة الحسن ، وفي دعوة القدر . . . » [2] .

وفي هذه السنة [١٠١هـ] لحق يزيد بن المهلب بالبصرة ، فغلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها عدي بن أرطاة الفزاري فحبسه وخلع يزيد بن عبد الملك [3] ، فهل كان واصل بن عطاء إنما ذهب إلى البصر لهذا الحدث كي يرى يزيد بن الملهب وهو يستولي على البصرة ويخلع الملك الأموي يزيد بن عبد الملك ، وبذلك يكون تحت حكم غير حكم هؤلاء الظلمة بني أمية ، ومنها يكون قريبًا من حلقة قدوته ومثله الأعلى الحسن البصري الذي كان يوافقه في أشياء كثيرة ، « خصوصًا وهما يشتركان في كراهية بني أمية » [4] ، والقول بالقدر الذي رجع عنه الحسن البصري فيما بعد .

وهذا الكره ناشئ من عدّة أُمور منها : طغيان الحكام الأمويين وتنكيلهم

---

(١) هكذا كتبت ، ولعلها (صلاته) . طبقات المعتزلة ص (٣١ – ٣٢) .

(٢) الإسلام وفلسفة الحكم ، د . محمد عمارة ص (١٦١) .

(٣) الطبري (٧٥/٤) .

(٤) نصر حامد أبو زيد الاتجاه العقلي في التفسير ص (٣٥) .

بالعلويين ، واستباحتهم حرم المدينة ثلاثة أيام في زمن يزيد بن معاوية ، رجم الكعبة بالمنجنيق في زمن يزيد وعبد الملك بن مروان ، أيضًا اضطهاد الأمويين للموالي وتأخيرهم عن المكانة الرفيعة ، والنظر إليهم بازدراء ، والاحتفاء بالجنس العربي ، بل والأعرابي منه .

ظل واصل بن عطاء تلميذاً نجيبًا في حلقة الحسن البصري ، يطيل الصمت والفكر وهو تحت عباءة الحسن البصري ، لا يخرج عنها ، وكاد التاريخ ينسى واصل بن عطاء ولا يذكر إلا الحسن البصري ؛ لأن من عادة الأساتذة أنهم يحجبون الضوء والهواء عن عوالم تلاميذهم ! فيموت الأستاذ والتلاميذ ، ولا تذكر الأجيال التالية إلا الأستاذ دون التلميذ ، فنحن إلى الآن نعرف اسم بيديا في كليلة ودمنة ، لكننا لا نعرف اسم تلميذه النجيب الذي ساعد أستاذه سنة كاملة في كتابة الكتاب الرائع (كليلة ودمنة) وقصة زكي نجيب محمود مع أستاذه أحمد أمين تشهد بذلك أيضًا ، وكذلك أبو الحسن الأشعري لولا أنه تمرّد على شيخه زوج أمّه (أبو علي الجبائي) لكان في عداد المنسيين .

وهكذا فعل (واصل بن عطاء) ، فما هي القصة يا ترى ؟ .

وقبل أن أذكر القصة ، بودّي لوا طلعنا على جوّ حلقة الحسن البصري التي عقدها بعدما جاء إلى البصرة وافدًا من المدينة ، ففي (مسجد البصرة كان الحسن البصري يعقد حلقته أو مدرسته ، وكان يلقي إليها بأفانين العلوم الإسلامية ، ويحاول – قدر استطاعته – هو وتلاميذه تجنّب فتن السياسة وفتن الدنيا ، وعن هذه المدرسة ظهرت الفرق المتعارضة الأصول ، فالزهد ومدرسته يُنْسبان إليها ، والقدرية تمت إليها بأكبر الأسباب ، والمعتزلة منها خرجت ، وأهل السنة والجماعة يعتبرون الرجل سلف الأمة الإسلامية ، وقد اتهمته الشيعة بأنه كان لسان بني أُمية بل كانوا يرون بأنه لولا سيف الحجاج ولسان الحسن ما قام لبني مروان أمرٌ في

الدنيا [1] .

في هذا الجو العلمي والثقافي كان (واصل بن عطاء) أحد تلاميذ الحسن البصري ، يستمع إليه ويأخذ عنه ، ولعل واصلاً كان على ثقافة وعلم قبل أن يدرس عند الحسن البصري ، فقد تلقّى العلم على علماء المدينة قبل أن يأتي البصرة ، لكن البصرة موطن الفرق والديانات القديمة ، وفيها الثراء الفكري والمعرفي ، وفيها الخلافات في الأصول قبل الفروع ، فليست كالمدينة التي يغلب على جوّها التسليم بالإسلام واقتفاء سنة رسول الله ﷺ .

وفي يوم من الأيام وبينا واصل بن عطاء يُنْصت لدرس الحسن البصري إذ « دخل واحدٌ على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين ! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر - يخرج به من الملة وهم وعيدية الخوارج - وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا ؟ فتفكّر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد ، يقرِّر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنّا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة [2] .

من هذه القصة نستنتج أن واصل بن عطاء ربما كان على هذه العقيدة قبل أن يدخل عليهم السائل حلقة الحسن البصري ، ويسأل سؤاله ؛ لأن واصل كما سلف آنفًا أنه مطلع على آراء المذاهب والأديان ، والدليل على ذلك أنه لم يترك

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د . سامي النشار (١/٣١١) .

(٢) مذاهب الإسلاميين ، د . عبد الرحمن بدوي ص (٨٥ - ٨٦) .

الحسن يجيب بل سبقه بالجواب حين كان الحسن يفكر في هذه المسألة الطارئة عليه ! .

أيضًا نستدل من مسابقة واصل شيخه بالجواب على السائل أنه كان متمرِّدًا داخل نفسه ، ولما حانت الفرصة أعلن تمرُّده واعتزل حلقة شيخه ، وهذه القصة لا تذكر أن الحسن طرد واصلاً من الحلقة كما يذكر عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق من أنه « لما سمع الحسن البصري من واصل بدعته هذه التي خالف بها أقوال الفرق قبله طرده عن مجلسه ، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وانضم إليه قرينه في الضلالة عمرو بن عبيد بن باب . . . » [1] .

أيضًا تحكي لنا القصة الأولى أن جماعة من تلاميذ الحسن ذهبوا إلى أسطوانة واصل ، وعلى رأسهم عمرو بن عبيد ، فذهابه إلى أسطوانة أخرى في المسجد يعتبر إعلانًا عن تمرده وانشقاقه عن الحسن البصري ومدرسته ، وأنه صار شيخًا لمدرسة أخرى فتيّة ، خرجت من مدرسة الحسن البصري هي (المعتزلة) ، وهذه التسمية جاءت عن الحسن البصري ، وقيل عن قتادة بن دعامة .

المهم أن واصل بن عطاء لم يكتف بهذا الاعتزال الجزئي ، بل « بلغ من بأسه وعلمه أنه أنفد أصحابه إلى الآفاق وبثّ دعاته في البلاد ، قال أبو الهذيل : بعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب فأجابه خلقٌ كثير ، وبعث إلى خراسان حفص بن سالم فدخل ترمذ ولزم المسجد حتى اشتهر ثم ناظر جهمًا فقطعه فرجع إلى قول أهل الحق ، فلما عاد حفص إلى البصرة رجع جهم إلى قولهم الباطل ، وبعث القاسم إلى اليمن ، وبعث أيوب إلى الجزيرة ، وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة وعثمان الطويل إلى أرمينية فقال : يا أبا حذيفة إن رأيت أن ترسل غيري فاشطره جميع ما أملك حتى أعطيه فرد نعلي فقال : يا طويل اخرج فلعلّ الله أن ينفعك ،

---

(١) الفرق بين الفرق ، عبد القاهر البغدادي ص (٨٢) .

فخرج للتجارة فأصاب مائة ألف وأجابه الخلق [1] .

ولعل في القصة مبالغة كبيرة ، لكن ما يهمنا هو أن واصل بن عطاء لم يكتف بالانشقاق عن الحلقة وحسب ، بل كبَّر من دائرة مدرسته حتى تجاوزت الآفاق ، وبلغت من لم يبلغها ، بعكس حلقة الحسن البصري ، فإنها بقيت في مسجد البصرة يأتي إليها الناس .

ولا شك أن شخصية واصل بن عطاء شخصية (كارزمية) مؤثرة ، بدليل أنه كسب عمرو بن عبيد إلى صفّه وصار يقول بمقولته ، وهنا سؤال ضروري الطرح والمناقشة وهو : هل كان واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومن تبعه من تلاميذ الحسن البصري كانوا جماعة واحدة قبل أن ينشقوا بالفعل عن حلقة الحسن ؟ أي كانوا يشكّلون فكرًا وحزبًا واحدًا ، لهم لقاءاتهم السرية خارج الحلقة ، فلما جاء الوقت المناسب أعلنوا تمرّدهم وانحيازهم لواصل بن عطاء ؟ وبهذا يكون واصل هو من صنع هذا الحزب السري من خلال اللقاءات السرية خارج الحلقة ؟ ولماذا لا يكون ذلك وشخصية واصل شخصية راديكالية وحركية ، بدليل بعثه الرُّسل للدعوة إلى الحزب الجديد والمدرسة الفتية في البلدان الأخرى .

وبالفعل امتدت هذه المدرسة بعد ذلك حتى صار من تلاميذها الخلفاء والأشراف ، فالمأمون الخليفة العباسي والواثق والمعتصم نافحوا ذات يوم عن قضية خلق القرآن ، وزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم كان من تلاميذ هذه المدرسة كما تذكر بعض المراجع [2] ، وكذلك كان إدريس بن إدريس حاكم المغرب .

ولا تقرأ كتابًا أو موضوعًا في الفكر الإسلامي القديم أو علم الكلام إلا واسم واصل بن عطاء علمٌ من أعلامه .

---

(١) طبقات المعتزلة للمرتضى ص (٣٢ - ٣٣) .

(٢) انظر : الملل والنحل للشهرستاني (١/١٥٤) طبعة دار الكتب ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ .

ولو لم ينشق واصل بن عطاء عن حلقة الحسن البصري لكان نسيًا منسيًا .



لماذا انتحر (فان غوخ) ؟
١٨٥٣ - ١٨٨٩م

كان الكاتب الكبير (يحيى حقي : ١٩٠٥ - ١٩٩٢م) يقول : « يتعرَّى الكاتب لكي يكتسي القارئ » .

وهكذا أخلص الأدباء والمفكرون والفلاسفة في العرّي لكي يكتسي قرّاؤهم والمتابعون لإبداعاتهم ، فكتبوا سيرهم الذاتية ، وفضحوا ماضيهم وحاضرهم ، وجعلوا من أنفسهم قرابين بشرية تراق دماؤها وأحبارها على عتبات مذابح الكتب رجاء أن ينعم أسيادهم القراء والمتابعون ! .

والفنان الهولندي الكبير (فنسنت فان كوخ) من الذين أخلصوا كثيرًا للمتلقي ، عبر لوحاته العديدة التي عبَّر من خلالها عن حياته وأزماته النفسية التي أوصلته إلى الانتحار ، كان يغني بالألوان ، فهي أنغامه وألحانه ، وكان يتفنّن في خطوطه وألوانه ، وكان يقول : « إنني لو غنيت فهديلي حزمةٌ من الألوان » [١] .

ولد (فان كوخ) في هولندا (عام ١٨٥٣م) لقس بروتستانتي ، وبدأ يرسم حين بلغ التاسعة والعشرين ، ولم تمرّ تسع سنوات على ذلك حتى أطلق على معدته رصاصة من مسدسه ومات في أوفير في مقاطعة بروفانس في آب ١٨٨٩م [٢] .

وكان في بدايات حياته قد « أخذه عمه الذي كان يُدير قاعة لبيع الآثار الفنية في لاهاي - تابعة لمؤسسة جوبيل Goupil في باريس - ليعاونه في عمله . وهكذا توثقت صلة ڤان جوخ لأول مرة بالفن ، وقد كان من حماس الفتى الغر إذاك لبعض لوحات (رمبرانت) الصغرى ولبعض آثار الفنانيين الهولنديين وجماعة باربيزون - التي خيّل إليه أنها تتغنّى جميعًا بحب الإنسانية - أن طفق يبذل قصارى

---

(١) مجلة الثقافة العالمية ، العدد (٨٩) ص (١٦٠) .

(٢) كولن ولسون (اللامنتمي) ص (٩٨) .

جهده لإقناع العملاء بشرائها ، فبلغ من نجاحه في ذلك أن قرَّرت المؤسسة نقله إلى فرعها في لندن » [١] .

وكان للتربية الدينية أثرٌ كبير على شخصية ونفسية ڤان كوخ ، وكان أبوه قسيسًا زرع في أعماق ابنه من خلال الجوّ الديني العارم الذي أحاطه في طفولته وصباه مُثُلاً عليا كانت تصطدم بالواقع في كل لحظة طوال حياته [٢] .

إذًا كان الدين هو المحرّك الأول في حياة (كوخ) لهذا صار عاطفيًا جدًا ، مرهف الحسّ ، مما انعكس ذلك على سذاجة نظرته للآخرين ، فقد كان يقابل الناس بحسن نية ، ويكشف لهم مكنونات نفسه ، مما حدا به في الأخير إلى الضجر منهم ومحاولة تحطيمهم ، وكان حبه لـ (أرسيولا) محطِّمًا لعاطفته ، فقد (ظلّ عدة أشهر يضمر وجده ، مؤلّهًا حبيبته في خياله ، ثم قرَّر في النهاية أن يكاشفها بلواعج قلبه ، طالبًا الزواج منها ، فما كان من الفتاة إلا أن هزئت به ، منبئة إياه – دون اكتراث – أنها مخطوبة لغيره ، فلما ألحف عليها ، صفقت الباب في وجهه [٣] .

وللأسف « لم يكن فان كوخ بالرجل الذي يتقبَّل مشاكل الحياة بهدوء ، وإنما خلقت تلك الخيبة وذلك الشقاء أعمق الجروح في نفسه » [٤] .

وكان (ڤان كوخ) كسولاً في تدبير أمر نفسه ، وكان يعتمد اعتمادًا شبه كلي على أخيه الذي يصغره بأربع سنوات (ثيو) وظل الأخ الأصغر يصرف على أخيه (كوخ) سنين عديدة ولم يهدد ثيو في يوم من الأيام بقطع معونته المالية عن أخيه ، بل إنه في واقع الأمر كان يشتري كلّ أعماله التي لم يستطع أن يبيعها أو يهديها ، وحتى حينما كان (ثيو) يشكو ركود السوق ، كان (فنسنت) يطلب

---

(١) قصة الفن الحديث ، سارة تيومابر ، ترجمة : رمسيس يونان ص (٩٤) .

(٢) هؤلاء الفنانون الرائعون ، صبحي الشاروني ص (١٥٥) .

(٣) قصة الفن الحديث ص (٩٤) .

(٤) اللامنتمي ص (٩٩) .

منه أن يستدين من أجله ، وكان ماهرًا في التلاعب بأحاسيسه واستدرار عطفه :
كم أنا آسف لأنني لم أمرض فتنتهي حياتي حينما كنت في (بوريناخ) بدلاً من
اختياري لمهنة الرسم ، فما أنا إلا حمل ثقيل ينقض ظهرك [1] .
بعد إخفاقات ڤان كوخ في الحب والحياة راح يرسم ويرسم ؛ عله يجد سلوته
في الرسم ، بعد ذلك راح يدرس اللاهوت ويعدّ نفسه (لأن يكون قسًا مثل أبيه ،
ويمرّ عامٌ آخر ونشاهد فنسنت بين عمال المناجم في بوريناج في بلجيكا ، واعظًا
إياهم ، موزّعا روايته عليهم ، معطيًا إياهم ملابسه حتى لقد أصبح أشدّ منهم فقرًا
إلا أنه فشل في ما كان يهدف إليه بهذا أيضًا [2] .
وحين ازدادت حالته سوءً ويئس أخوه ثيو من علاجه ، ولم يستطع أن يحتمل
العيش مع هذا (الرجل المتوحش) وأخيرًا بلغ من تأثير النوبات العصبية المستمرة
عليه أنها دهورت صحته إلى حد كبير ، فترك باريس واتجه نحو الجنوب في عام
١٨٨٨م حيث التقى بـ (جوجان) الذي لم يستطع العيش معه أيضًا ، فافترقا
بعد أن هاجمه فان كوخ بموسى الحلاقة ، وكان أن بتر فان كوخ إحدى أذنيه
بتلك الموسى ووضعها في علبة من علب الثقاب الفارغة وأهداها إلى إحدى فتيات
المبغى العام [3] .
وقد سعى ڤان جوخ جهده - فترة من الزمن - تجنب العواطف المثير ة ، ولكن
ذلك الحادث قد جعل منه محط أنظار أهل البلدة ، ومضغة لأفواه ، فكانوا
يتجمعون حوله في كل مكان ، بينما يصيح به صغارهم هاتفين : هات أُذنك
الأخرى يا مجنون ! ولم يستطع ڤان جوخ تحمّل هذا العنت طويلاً ، فانهارت

---

(١) مجلة الثقافة العالمية ص (١٦٩) .

(٢) اللامنتمي ص (٩٩) .

(٣) المرجع السابق ص (١٠٠) .

أعصابه انهيارًا [1] .

وآخر حياة (كوخ) كان يعيش في مستشفى الأمراض العقلية ببلده (سان ريمي) .

و « في ليلة من ليالي يوليه اتخذ لنفسه قرارًا ، فخرج إلى حقل مجاور ، وقعد تحت شجرة ثم أطلق الرصاص على نفسه ، وكان قد ترك رسالة لأخيه يقول فيها : لقد جازفت بحياتي في سبيل الفن ، ومن أجله أوشكت أن أفقد رشدي » على أنه لم يمت لتوّه ، وقد جاءه (ثيو) مهرولاً فقال له ڤان جوخ : « لقد أخفقتُ مرّة أخرى » ، وبعد يومين قضى نحبه – في ٢٩ يوليه سنة ١٨٩٠م – وهو لما يزل في سن السابعة والثلاثين [2] .

لماذا انتحر ڤان غوخ ؟

من خلال هذه التطوافة السريعة في حياة هذا المبدع البائس ، يتبين لنا أن لانتحاره عدة أسباب ، لكن أبرزها هو الشعور بالإخفاق ، فهو مُبْدع لم ير أثر إبداعه كما كان يظن ، وهذا أقسى ما يواجهه المبدع في الحياة ، وصدق القائل :

غزلت لهم غزلاً رفيعًا فلم أجد لنسجي غزّالاً فكسّرت مغزلي

وتكسير المغزل هو رمز لتكسير الحياة بما فيها تمامًا كما فعل أبو حيان التوحيدي مع كتبه ، وكما فعل (فرنهوفر) في قصة (بلزاك) ، التحفة المجهولة ، فإنه حين صدم برأي أحد أصدقائه (بوسين) في لوحته التي أمضى في رسمها عشر سنوات عمد إلى لوحاته كلها فأحرقها ثم انتحر ! .

وكذلك (ڤان غوخ) فإنه أحسَّ بالإخفاق ؛ لأنه قد رسم « خلال السنوات العشر من حياته الفنية ما يربو على ٧٠٠ لوحة و ١٠٠٠ رسم غير أنه لم يبع منها في أثناء حياته سوى لوحتين ، ونحو عشرين رسمًا ، فكان كل ما جناه من ذلك لا

---

(١) قصة الفن الحديث ص (١٠٢) .

(٢) المرجع السابق ص (١٠٤) .

يزيد على مائة دولا إلا قليلاً (١) .

أمر آخر حدا به إلى الانتحار ، وهو إحساسه المرهف بالإنسانية ، فقد « علمته تجاربه الأولى أن الحياة هي أبدًا مع الإنسان وضده ، إلا أن حسيته المفرطة جعلته شاعرًا بصورة غير اعتيادية بضدية الحياة وحدها ، بشقائه وشقاء العالم ، فانصرف بكل قواه باحثًا عن وفاق أصيل مطلق مع الحياة » (٢) .

وكان ڤان جوخ متعاطفًا مع المسحوقين بشكل ملفت للنظر ، ويكفي دليلاً على ذلك لوحة (آكلو البطاطا) فإنها لوحة تنضح بالبؤس وشظف العيش ، والمأساة البشرية البادية على وجوه الأشخاص الشاحبة ، يقول ڤان كوخ عن هذه اللوحة : وعملي في هذه اللوحة هو بمثابة صراع متصل ، فقد حاولت أن أبيِّن كيف أن هؤلاء الذين يأكلون بطاطسهم تحت ضوء المصباح ، قد حفروا الأرض بهذه الأيدي ذاتها التي يتناولون بها طعامهم ، لقد أردت أن أعرض صورة حياة تختلف في منهجها كل الاختلاف عن حياتنا نحن المتمدنين . . . » (٣) .

ويؤكد الأستاذ رجاء النقاش أن سبب انتحار (كوخ) كان التفكير في مصير الإنسان ، « وذلك لأنه كان دائم التفكير في مصير الإنسان ، وكان شديد الإحساس بآلام الناس من حوله ، ومثل هذه الأسئلة والقضايا الحائرة ، إذا استسلم الإنسان إلى التفكير فيها فلا بدَّ أن تضطرب أعصابه ، ولا بدَّ أن يفقد السيطرة على عقله ؛ لأن في حياة البشر (خطًا أحمر) ، إذا تجاوزه الإنسان انفجرت فيه ألغام الوجود (٤) . ومثل هذا الإحساس يقود صاحبه إلى الاعتراض على كل شيء ، والثورة ضد القدر وهذا الإحساس قاد (فردريك نيتشه) إلى الإلحاد

---

(١) قصة الفن الحديث ص (١٠٤) .

(٢) اللامنتمي ص (١٠٣) .

(٣) قصة الفن الحديث ص (٩٧) .

(٤) رجاء النقاش - مطالعات وتأملات ص (١٦٤ - ١٦٥) .

والقول بموت الإله ؛ لأنه كان يتعاطف مع الإنسان الكامل (السوبرمان) وكـــان (نيتشه) مرهف الحسّ جدًا .

وكان (عبد الله القصيمي) كذلك ، فقد كان متوجعًا على قــضية فلــسطين ، ولبنان وناقمًا على غطرسة اليهود ، وكان يتمنى (ليت القدر كان رحيمًا ، ليتــه كان نبيلاً ، ليته كان مجاملاً أو حييًا ، ليت صفة طيبة فيه قد منعته من أن يصنعك أيتها المواجهة العربية الإسرائيلية ، من أن يهيئك لتفضحي الإنسان العـــربي هـــذا الفضح الذي لم يفضحه أحد في التاريخ في كل التاريخ » [1] .

و (ڤـــان كوخ) كان متدينًا ومتعاطفًا مع الإنسان المسحوق ، ولما رأى نفسه في عداد المسحوقين اختار أن ينهي هذه الحياة التي لم تعد صالحة للحياة ! .

وكأني نطقت بلسان (فان غوخ) حين قلت في قصيدتي (لحظة شك) :

أنقـــذوني فقـــد ســـئمتُ حيـــاتي   لـــيس عنـــدي شـــهيةٌ في الحيـــاة

مـــا أنـــا في الحيـــاة غـــير حيـــاة   مات فيهـــا الـــشعور بالأمنيـــات

مـــا أنـــا في الحيـــاة غـــير ســـجين   أثقلتـــــه سلاســـــل الـــــذكريات

جثةٌ فـــوق شـــاطئ العمـــر أطفـــو   قد تساوت لديَّ كـــلُّ الجهـــاتِ !



(١) لئلا يعود هارون الرشيد ، عبد الله القصيمي ، مشورات الجمل ص (١٥) .

أطلس القلوب الجريحة
(عبد الوهاب مطاوع)

من كلمات الروائي الروسي الكبير (فيودور دوستويفسكي) : « كثيرًا ما نستعين بآخرين أكثر عذابًا منا لنخفف عذابنا » .

هذه الكلمة الرائعة تنطبق تمامًا على حياة الأستاذ الراحل عبد الوهاب مطاوع (رحمه الله تعالى) فقد كان صدرًا حنونًا لقرّائه ، ينفثون من خلاله همومهم وأوجاعهم ، فقد ظل يستمع ويصغي لشكاواهم ومشاكلهم سنين عديدة ، وكان قلبه الرحيم يتلقى كل صدمة تلقتها قلوب أولئك القرّاء .

كان أبًا عطوفًا وأخًا شهمًا ، يضحي بنفسه ووقته ويجود بصحته وفكره في سبيل حل مشاكلهم وإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

كان بحق أطلس قلوب جريحة ، يحمل متاعبها فوق ظهر قلبه الجريح ، وكان القراء يفرحون حين يرون حلول مشاكلهم عبر (بريد الجمعة) في جريدة الأهرام .

كان رحمه الله يتلقى بصدره المنهوك كل ضربة قاضية توجهها الحياة لصدر أحد قرّائه من الذكور والإناث ، من العزّاب والمتزوجين ، وربما وجد سلوةً في ذلك ، حين تمرّ به بعض المشاكل التي تفوق مشاكل حياته هو ؛ لأنه يجد العزاء في ذلك ، وكما قيل : (من رأى مصيبة غيره ، هانت عليه مصيبته) ، لكن مطاوع لم يكتف بالنظر في هذه المشاكل فقط ، إنما كان يعيشها ويفكّر فيها بجدٍّ ثم يسعى في حلها ما أمكن .

وكان يتحمل آلامه وأوجاعه من أجل الكتابة والصحافة وحل مشاكل القراء ، فهو يقول : « . . . فقد صحوتُ من نومي موجوعًا بنفس الألم القاسي المذل الذي يعاودني منذ حوالي عام ، ويهاجمني في بعض الفترات ، فيحيل أيامي إلى جحيم ، ويهدأ في فترات أخرى . . فأنساه وأعدل عن فكرة الجراحة التي لا علاج لمشكلتي معه سواها .

نعم لا مفرَّ من الجراحة . . ولكن متى ؟ وحتام تعطلني عن عمل واجباتي الصحفية ؟ [1] .

وحين التقى بالطبيب الذي سيعمل له الجراحة قال له الطبيب : « . . . وأستطيع أن أجريها لك الآن على الفور ، وتعود إلى بيتك بعد ٦ ساعات ، وتتخلص من كل متاعبك !

– الآن يا دكتور ؟

– نعم الآن وفورًا

لكن اليوم الثلاثاء ، وأنا أكتب بريد الجمعة يوم الأربعاء من كل أسبوع في جلسة متصلة لمدة ١٢ ساعة ، فكيف سأستطيع ذلك إذا أجريت الجراحة اليوم ؟ » [2] .

إذًا هو مهمومٌ بحل هموم الآخرين ، وكان يقسو على نفسه كثيرًا ﷺ ، وكان مثاليًا في نظرته للحياة وللمبدعين الكبار ، سواءً في الشرق أو الغرب ، لذلك كان لا يقترب من بعضهم عن طريق الواقع خشية أن يصدم بنزواتهم البشرية ! .

وكان ولوعًا بذكر أقوالهم وأعمالهم الأدبية والفكرية ، وكان من بينهم (نجيب محفوظ) أديب نوبل وصاحب الثلاثية و (زقاق المدق) وغيرها .

يقول عن نجيب محفوظ : وفي بعض المراحل كان لا بدّ لي من أن اصطحب معي رواية أو مجموعة قصصية لأديبنا العظيم نجيب محفوظ ، مع أني قرأتُ كل أعماله فور صدورها أكثر من مرة ، وأستطيع أن أؤدي امتحانًا فيها جميعًا وأجتازه بغير رسوب [3] .

ويقول أيضًا حين سكن في شقة لابنه في الهرم : وعلّقت عليها صورة زيتية لأديبي المفضَّل نجيب محفوظ .

---

(١) ساعات من العُمْر ص (٩٣) .

(٢) المرجع السابق ص (٩٦) .

(٣) الرسم فوق النجوم ص (١٣٤ – ١٣٥) .

وقال عن محفوظ : وجاء الأستاذ نجيب محفوظ ، ولاحظت أن (معبودي) في الأدب قد وهن النظر والسمع منه [1] .

وكان يعلن صداقته وحبه للأديب الساحر (أحمد بهجت) ويعلن في كتبه أنه تلميذٌ لهذا الأديب الكبير ، فيقول : وأقضي ليلة رأس السنة الميلادية في بيته الحرام (يقصد الحرم المكي) مع صديقي وشيخي الأديب الفنان أحمد بهجت [2] .

ويقول أيضًا حين عمل له عيد ميلاد بمناسبة بلوغه الستين : « وقررت أن يكون الاحتفال بعيد ميلاد أحمد بهجت ذلك العام احتفالاً غير تقليدي في أشخاص المدعوين إليه . . . » [3] .

وكان رحمه الله متدينًا ، متنورًا في تدينه ، تفيض من بين السطور روح شفافة في حبها لدينها ورسولها ﷺ ، وعشقها لجو شهر رمضان وروحانيته ، وإجلال لبيت الله وكعبته المشرّفة فيقول عن أول مرة رأى فيها الكعبة :

« جَدَدْتُ السير وراء شيخي (يقصد أحمد بهجت) متلهفًا على رؤية الكعبة المشرفة ، ونزلت إلى ساحة المسجد الرخامية حاني الرأس ، ثم رفعت رأسي فجأة فوجدت نفسي أمام البيت الحرام لأول مرّة في حياتي ، فلم أدر بما حولي ولا بما تولاّني من مشاعر وأحاسيس طاغية ، وانخرطت في بكاء مرير طويل لم أبكه من قبل إلا حين مات أبي وشقيقان لي رحمهم الله جميعًا عجزت عن السير ، فوقعت حيث أنا . . . » [4] .

ويقول عن تدبّره في القرآن الكريم : « ومن مواضع الحزن في القرآن الكريم التي تمس قلبي دائمًا وأردّدها حين يضيق صدري ببعض الهموم ، ما جاء على لسان

(١) ساعات من العمر ص (١٤٥) .

(٢) قدّمت أعذاري ص (٨٦) .

(٣) ساعات من العمر ص (١٤٢) .

(٤) قدّمت أعذاري ص (٨٩) .

سيدنا يعقوب حزنًا على ولــده يوســف : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [سورة يوسـف : ٨٦] (١) ، وكان يتوق لحفظ القرآن ويتأسف على أنــه لم يدرك عصر الكتاتيب ليحفظ القرآن (٢) .

ويقول عن برنامجه في شهر رمضان : « . . . أفضل وسائلي لــذلك القــراءة في القرآن وكتب السيرة والتاريخ الإسلامي التي أركّز قراءتي خلال شهر رمضان كل سنة فيها ، فأتنقّل بين صفحاتها أرشف رحيقها ، وأتشمَّم من بين سطورها عطــر الأحباء القدامى .

اكتشفت من جديد أني أطرب لكل آيات القرآن ، وأضيف إلى فهمي لها في كــل مرّة أعماقًا جديدة . . ومع ذلك فإن لبعضها في وجداني رنينًا خاصًا لا يتغير مــع مرّ السنين . . . » (٣) .

وكان رحمه الله تعالى ولوعًا بذكر العبارات الخالدة للأدباء العالميين والفلاسفة والقــادة وغيرهم ، ويذكر أيضًا مقاطع من بعض الروايات التي قرأها وأعجب بها ، فمــثلاً يقول : « كنت طوال حياتي شديد الإعجــاب بالعبــارة الــشهيرة للفيلــسوف الإغريقي العظيم أرسطو التي يقول فيها : أفلاطون صديقي وأستاذي لكن الحــق أولى بصداقتي منه » (٤) .

ويورد في كتاب له هذه السطور : « لقد كان الشاعر الشيلي بابلونيرودا واحــدًا من هؤلاء الذين (نظروا) إلى حياتهم فسعدوا بها ، وقال حين أحــسَّ بــاقتراب أجله : أشهد أنني قد عشت . . . » (٥) .

---

(١) وقت للسعادة وقت للبكاء ص (١٠٤) .

(٢) انظر مقالة : (أراك لا تفعل) في كتابه : صديقي ما أعظمك ص (٨٧) .

(٣) صديقي ما أعظمك ص (٦١) .

(٤) قدَّمت أعذاري ص (٥٤) .

(٥) الرسم فوق النجوم ص (١٤١) .

ويقول في آخر : سأظل أُردِّد وراء الشاعر التركي ناظم حكمت ولن أملّ : أجمل الأنهار لم نرها بعد ، أجمل الكتب لم نقرأها بعد ، أجمل أيام حياتنا لم تأتِ بعد ! (١) .

ويقول في معرض حديثه عن طقوس الكتابة عنده : « وتذكرتُ وأنا أفعل ذلك أديبي المفضَّل في الأدب الفرنسي أو نوريه دي بلزاك الذي كان يتهيأ للكتابة بارتداء رداء راهب إشارة لما تتطلبه الكتابة من تجرّد من الدنيا ورهبنة » (٢) .

ويقول عن رواية (أوسكار وايلد) [صورة دوريان جراي] : « سامحه الله أوسكار وايلد ! فمنذ أن قرأت له روايته الشهيرة (صورة دوريان جراي) منذ أكثر من عشرين سنة . . فتح أبواب الجحيم أمامي وعلّمني هواية التفرّس في وجوه الآخرين لاستجلاء حقيقتها . . . » (٣) .

ويقول عن الروائي الكبير (دوستويفسكي) : « إنني مثلاً من عُشّاق أدب الروائي العظيم فيدور دستوفسكي (١٨٢٢ - ١٨٨١م) ومع ذلك فما من مرّة قرأت له رواية من رواياته الشهيرة ، إلا واسترجعت حياته المضطربة بالمرض والنفي والاعتقال » (٤) .

وهو بهذه الاستعراضات الثقافية يبثُّ في روح قارئه الحماس والحب بهذه الروايات والأعمال الأدبية والفكرية ، فيحمله على اقتنائها والإعجاب بها ، لقد كانت قراءاته وثقافته نجومًا يرصّع بها سماء كتاباته وأفكاره ﷺ تعالى .

وكان لا يُخفي إعجابه وعشقه لـ (باريس) فهو متيمّ بها ، وكثير التردد عليها ، فيقول عن عشقه لها :

---

(١) اندهش يا صديقي ص (٨٥) .

(٢) أرحوك أعطني عمرك ص (٧٩) .

(٣) صديقي لا تأكل نفسك ص (٣٠) .

(٤) عاشو في خيالي ص (١٤٠) .

« هاهي باريس تبدو من نافذة الطائرة لوحة سيريالية جميلة ، نابضة بالحياة والحركة ! للمرة العاشرة أو الحادية عشرة . . لم أذكر على وجه التحديد . . . لكني أعرف فقط أنها بالنسبة لي قد أصبحت ضعفي الذي أُغالبه فيغلبني ، وخطيئتي التي أدعو ربي أن يغفرها لي فلا يغفرها ، والمدينة التي أظل معذّبًا بالبعد عنها إذا ابتعدت ، ولا بد أن أبتعد . . . وبالقرب منها إذا اقتربت وقليلاً ما أقترب ! [1] .

ويقول أيضًا : « . . . إلى باريس التي خلبت لبي حين تعرَّفت عليها لأول مرة منذ ٢٠ عامًا . . . » [2] .

ومن كتبه الجميلة التي استمتعت بها (حكايات شارعنا) ، وهو ذكريات حارته القديمة ، التي كان يسكنها في صغره ، تحدث في حكايات شارعهم عن مواقف وعادات وسلوكيات أهل الحارة ، وأحلام الشباب والأطفال ، استمع إليه وهو يتحدث عن (ذات الرداء الأحمر) : « تمرّ بنا ، ونحن منهمكون في اللعب الجماعي ، فترمقنا بفضول طفلة في الثامنة من عمرها ، تتوقف عن اللعب خشية أن تصيبها الكرة التي تتقاذفها أقدامنا . . فتنظر إلينا في امتنان صامت ، ويخيل إليَّ أنها تخصني دون الرفاق بنظرتها المعبِّرة . . . » [3] .

أما عن كتبه التي خصصها لمشاكل وقصص قرَّائه فهي كثيرة جدًا ، وأكتفي بذكر بعضها : أصدقاء على الورق ، نهر الحياة ، هتاف المعذبين ، العصافير الخرساء ، العيون الحمراء ، أزواج وزوجات ، رسائل محترقة ، شركاء في الحياة وغيرها .

وحين تحدّث (رحمه الله تعالى) عن طقوس كتابته الأدبية قال عنها : أما الكتابة الأدبية فلا وسيلة لها عندي سوى هذه الأدوات الحجرية ، وسوى هذه الطقوس (البائدة) ، وهي أن يكون القلم من طراز شيفرز وسنّه متوسط السمك ، ليس

---

(١) سائح في دنيا الله ص (٧٥) .

(٢) الرسم فوق النجوم ص (٦٥) .

(٣) حكايات شارعنا ص (٧٣) .

رفيعًا ولا سميكًا ، ومداده من حبر باركر الأزرق الغامق . . . ولو كان فاتحًا لما استرسلت في الكتابة ، ولو كان أسود قاتمًا لتوقفت عنها بعد بضعة سطور .

أما الورق فلا بدَّ يكون أصفر اللون ناعمًا ، ولا أعرف كيف استقرّيت على هذه الطقوس ولا كيف ترسخت وارتبطت عندي بسهولة الكتابة حتى ليفسد مزاجي إذا افتقدت أحدها [١] .

رحم الله تعالى (أطلس القلوب الجريحة) و (عاشق عبارات العظماء) الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ، فقد كان بحق شخصية مؤثرة وصادقة ومقبلة على الحياة ، كان يحمل حسَّ فيلسوف ، لكنه فيلسوف متفائل يرى الابتسامة بحجم الهرم الأكبر ، ويرى الدمعة بحجم نقطة الحبر الذي يكتب به .

كان مصدرًا للتفاؤل والسعادة ، تشعر حين تقرأ حلوله لمشاكل قرّائه أنه يحمل أكثر من عقل ، وأكثر من قلب ، وأكثر من أذنين وعينين .

قد استفاد وأفاد من قراءته الموسوعية ، ووظّفها في حل مشاكل القرّاء ، وكأنه يقول لكل قارئ وصاحب مشكلة : هذه هي مشاكل العظماء من الأنبياء والفلاسفة والقادة والأُدباء والفنانين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .



(١) سلامتك من الآه ص (١٥٨) .

طاليس أبو الفلسفة

عرف عن (هيرودوتس) أنه أبو التاريخ ، فهل عرف عن (طاليس) أنه أبو الفلسفة ؟

وقبل أن أتحدث عن طاليس وفلسفته ، أود أن أفتح شاشة على تاريخ العقل اليوناني ، لأرى وترى - عزيزي القارئ - كيف كانت تحولات هذا العقل الذي يؤكد أهله ومن ينتسبون إليه أنه هو العقل الذي أسدى الحضارة للبشرية ، فقد ترك أسماء لفلاسفته ومبدعيه لا تزال عالقة بأذهان الناس وذاكرة الزمن أمثال : سقراط ، أفلاطون ، أرسطو ، سفوكليس ، اسخيليوس ، أرسطو فان ، فدياس وغيرهم .

تحولات العقل اليوناني :

يقول عبد العزيز الثعالبي عن العقل اليوناني : « إن مبدأ التاريخ اليوناني غامض كأكثر تواريخ الأمم القديمة ، تغشاه ظلمة شديدة ممزوج بكثير من الخرافات التي لا يركن إليها العقل وإن حفل بها الشعر . . . » [1] .

من خلال كلام الثعالبي يتبين لنا أن العقل اليوناني مرَّ بمرحلة بدائية كانت تسوده الخرافة التي حفل بها الشعر ، ولعلها من مرحلة (هزيود) و (أورفيوس) و (هوميروس) الذي ترك للبشرية (الإلياذة) و (الأوديسة) ، وهذا العصر هو العصر الذي سبق مجيء الفينيقيين إلى اليونان ناقلين معهم حضارتهم الشرقية التي جعلت من اليونان شعبًا متحضرًا ، لا سيما أن الفينيقيين هم الذين علموا البشرية الحروف الأبجدية والملاحة وأساليب التجارة ، والفينيقيون الذين جلبوا حضارة الشرق هم شعب (التيتانيين) .

والمصريون أيضًا كان لهم أثر واضح على حضارة وثقافة اليونان ، فهاهو (ول

---

(١) مقالات في التاريخ القديم ص (١٠٨) .

ديورانت) يقول : « وكان معظم اليونان يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضارتهم قد جاءتهم من مصر ، وتعزو قصصهم نشأة كثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال : كدموس ، ودانوس ، جاءوا من مصر أو نقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينيقية وكريت . . . » .

ثم قال : وزار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين أمثال طاليس وفيثاغورس وصولون وأفلاطون وديمقريطس ، فأعجبوا أشد إعجاب بعظيم حضارتها وقدمها ، ولم يجدوا فيها برابرة وهمجًا كالذين كانوا يجدونهم في الأقطار الأخرى ، بل وجدوا فيها أقوامًا كانت لهم حضارة ناضجة وفنون راقية قبل سقوط طروادة بألفي عام .

إذًا يتبين لنا أن اليونان استمدت حضارتها من حضارتين عظيمتين : حضارة الفينيقيين وحضارة المصريين ، وبعد ذلك أصبحت اليونان حضارة مستقلة حتى فاقت أساتذتها .

يقول غوستاف لوبون عن اليونان : « نعم ، ليس من ينكر أن الأمر انتهى باليونان فتفوقوا على أستاذهم ولكن أبحاث الأثريين في عصرنا هذا دلت دلالة واضحة على شدة قصورهم في مجهوداتهم الأولى ، وأنه مرّت بهم قرون حتى وصلوا إلى إبراز تحف الفنون التي خلّدت ذكرهم إلى الأبد . . . » (1) . وهذا نص يؤيد مسألة التطور في الفكر اليوناني وأنه مرّ بعدة قرون إلى أن وصل إلى عصر التنوير .

جو ملطة ومناخها :

بلا شك أن للمكان الجغرافي أثرًا واضحًا في تقدم الأمم وإخفاقها أو تأخرها ، وملطة (أو ميليتوس كما هو الاسم الحقيقي لكن العرب حرفوها إلى ملطة) هي عاصمة (أيونيا) ، وعن أيونيا يقول هيرودوت : « إن هواءه ومناخه أجمل هواء ومناخ في العالم كله » ، وهذا الجمال المناخي قاد أهلها ومن حلّ بها من الوافدين

---

(1) سر تطور الأمم ص (٧٨) .

أن يعمروها ، لذا تعلم الأيونيون من الفينيقيين إقامة المستعمرات لتكـون مراكـز تجارية ، ثم صارت تستورد الصوف وتنسج منه الملابس وانتعش الاقتصادي الأيوني بشكل ملفت للنظر حتى أنجبت الفلسفة الطبيعية التي هي الطور الأول من الفلسفة اليونانية وعلى رأس الفلاسفة ظهر (طاليس) الملطي ، فمن هو طاليس يا تـرى ؟ وما هي فلسفته ؟ وما موقف الفلاسفة من فلسفته ؟

من هو طاليس ؟

ولد طاليس عام ٦٤٠ ق.م ، وتوفي ٥٤٥ ق.م .

وقصة موته أنه كان شاهد مباراة في الألعاب الرياضية ، وكان الجو حارًا فأصـابته ضربة شمس فمات ، وكان عمره ٧٢ سنة ، ويقول (ماجد فخري) عن أصـل نسب طاليس : « وكان يرقى بنسبه إلى قدموس وأغينور ملك مصر ! » .

ويذكر عمر فروخ أنه اشترك مع قومه في حرب الفرس ، ويقول (ديورانـت) : ولد طاليس حوالي ٦٤٠ ق.م ، وأكبر الظن أنه ولد في ميلتيس وكان الدائر علـى ألسنة الناس أنه من أبوين فينيقيين وتلقى معظم تعليمه في مصر والـشرق الأدنى ، وفيه يتمثل انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب ، ويبدو أنه لم يـشتغل بالأعمـال التجارية والمالية إلا بالقدر الذي أمكنه أن يحصل به على طيبات الحياة العاديـة ، وليس من يجهل قصة مضارباته في مَعَاصر الزيت ثم صرف باقي وقته في الـدرس وانهمك فيه انهماكًا توحي به قصة سـقوطه في حفـرة وهـو يرقـب النجـوم . . . » [١] .

فلسفته :

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : يعد طاليس أول الفلاسـفة اليونـانيين ؛ لأن طاليس – كما يقول نيتشه – قد قال بحقائق ثلاث ، فهو أولاً قد تحدث عن أصل

---

(١) قصة الحضارة (٦/٢٥٠) .

الأشياء أو عن الأصل الذي تصدر عنه الأشياء ، وثانيًا كان كلام طاليس عن هذا الأصل خاليًا من الأساطير ، وثالثًا وإن كان هذا ليس بواضح تمام الوضوح في كلامه قال : إن كل شيء واحد .

ويقول الدكتور ماجد فخري عن فلسفة طاليس نقلاً عن أرسطو : « رواية أرسطو (ما بعد الطبيعة أ ٩٨٣ ب) القائلة إن طاليس مؤسس الفلسفة الطبيعية ، ذهب إلى أن المبدأ الأول للأشياء Arche هو الماء ، وأن الأرض من جراء ذلك تطفو على الماء ، ويعلل أرسطو هذا الاكتشاف بقوله : إن طاليس انتهى إلى هذا الرأي إما من ملاحظته أن جميع الأشياء تتغذى على الرطوبة ، أو أن أصل جميع الأشياء هو الرطوبة ، ويضيف أرسطو استنادًا إلى أفلاطون أن طاليس أخذ هذا الرأي عن القدماء (أي الشعراء الأسطوريين) الذين كانوا يردون أصل الأشياء إلى أوقيانوس وهو النهر المحيط . . . » [١] .

ومن أعماله الفلسفية أنه استطاع قياس الأهرامات عن طريق ظلها ، حين يكون ظل كل شيء مثله ، واستطاع أن يتنبأ بكسوف الشمس عام ٥٨٥ ق.م .

وله في الهندسة نظريات وتطبيقات منها أن القطر ينصف الدائرة ، وأن المثلثين ينطبقان إذا كان أحد الأضلاع والزاويتان المتصلتان بذلك الضلع في المثلث الأول مساوية للضلع وللزاويتين المقابلة لها في المثلث الثاني .

واعتقد طاليس بأن وراء السماء عالمًا من الدهر المحض والدوام تشتاق إليه النفوس ، ولكن المنطق لا يستطيع إدراك حسنه وبهائه وفي ذلك إشارة إلى الخلود .

وكان ولوعًا بالبحث والتفكير حتى إنه كان ذات ليلة ينظر إلى النجوم في السماء يتأملها فسقط في حفرة كانت في طريقه دون أن يشعر ، فما كان من جاريته إلا أن ضحكت منه ساخرة بهذا المعتوه !! .

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ص (١٦) .

الحكماء السبعة :

يقول (ول ديورانت) عن طاليس : « لما بلغ سن الشيخوخة أجمع مواطنوه على تلقيبه بلقب الحكيم ، ولما اعتزمت بلاد اليونان أن تخلد أسماء حكمائها السبعة وضعت اسم طاليس على رأسهم » (١) .

والحكماء السبعة هم :

١- طاليس من ملطية .　　٢- بياس من بريين .　　٣- بنياقوس من ميتلين .

٤- كليبوس من جزيرة رودس . ٥- صولون من أثينا . ٦- بيرياندر .

٧- ميسون من خيناي .

وهناك من يجعل معهم أنا خاريسيس ، ومنهم من وضع عددًا أكثر من سبعة لكن أغلب الظن أن هؤلاء هم السبعة الذين اشتهروا .

وهؤلاء السبعة لكل واحد منهم كلمة قالها فخلدها الناس عنه ، فطاليس قال : أصعب الأشياء أن تعرف نفسك .

أقواله :

ومن الأقوال التي أثرت عنه كما يذكرها (ول ديورانت) في قصة الحضارة :

ولما سئل عن أسهل الأشياء قال : أن تسدي النصح . وسئل : ما هو الله ؟ فأجاب : هو ما ليس له بداية ولا نهاية . وسئل : كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة ؟ فأجاب : ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله (٢) .

طاليس عند فلاسفة المسلمين :

عندما ترجم له الشهرستاني في الملل والنحل قال عنه : وهو أول من تفلسف في الملطية قال : إن للعالم مبدعًا لا تدركه صفته العقول من جهة جوهريته ، إنما يدرك من جهة آثاره .

---

(١) قصة الحضارة (٢٥٢/٦) .

(٢) المصدر السابق (٢٥٣/٦) .

وترجم له القفطي أيضًا ، لكن الدكتور علي سامي النشار يتعجب مـن فلاسـفة المسلمين الذين خلطوا بين طاليس وفيثاغورس تارة وبينه وبين أفلاطون وبينه وبين فلاسفة الهنود ، ولعل هذا الخلط جاء نتيجة رداءة الترجمة آنذاك .

يقول الدكتور النشار : وهكذا انقلـب طـاليس في نظـر مـؤرخي الفلـسفة الإسلاميين ، مسلمًا موحدًا وأرسططاليسيًا أحيانًا وأفلاطونيًـا أحيانًـا أخـرى وأفلاطونيًا محدثًا في نهاية الأمر .

وقد وضح الدكتور النشار أسباب ذلك ، ومنها رداءة الترجمة ومحاولة تصوير آراء الفلاسفة بصورة توحيدية كي تعطي الفلسفة جواز عبور إلى الذهنية المـسلمة ولا تقف منها موقفًا عدائيًا .

موقف الفلاسفة من فلسفته :

كان أفلاطون لا يرى في فلسفة (طاليس) إلا أنها مضيعة للوقت !! .

ففي كتاب موسوعة أعلام الفلسفة يقول الأستاذ روني إيلي ألفا : ولم ينج طاليس من تهكم أفلاطون أيضًا الذي اعتبر أعماله وأبحاثه مضيعة للوقت (١) .

ويقول عنه (برتراند رسل) : ونحن لا نعلم عن طاليس إلا علمًا أضـأل مـن أن يعيننا على تكوين صورة لفلسفته ترضينا ، غير أننا نعلم عن خلفائه في ملطيا أكثر جدًا مما نعرف عنه ، ومن المعقول أن يذهب بنا الظن إلى أن شـيئًا مـن وجهـة نظرهم قد هبط إليهم منه ، نعم ما قرّره من علم ومن فلسفة كان سـاذجًا لكنـه كان قمينًا أن يثير الفكر والملاحظة في سواه .

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي عن فلسفة طاليس الفلكية : أما الأقوال الفلكية التي تنسب إلى طاليس فليست بأسعد حظًا من ناحية اليقين ، وأكثر هذه الأقـوال احتمالاً هو القول بأنه نظر إلى الأرض على أنها قرص علـى سـطح المـاء ، وأن السبب في الزلازل يرجع إلى اهتزاز الماء .

---

(١) موسوعة أعلام الفلسفة (٢/٦٥) .

يتضح لنا من خلال هذه التطوافة المتواضعة حول حياة طاليس أنها مليئة بالاحتمالات في أمور كثيرة ، ويغلب على الظن أن الأسطورة زاحمت الحقيقة في حياة هذا الرجل ، بل حتى قصة بيعه لزيت الزيتون عندما عيره الناس بفقره فأجر معاصر الزيتون ؛ لأنه تنبأ أنه في الموسم القادم سيكثر الزيتون ، فلما جاء الموسم واحتاج الناس إلى المعاصر أجرها عليهم بسعر مضاعف وقال قولته المشهورة : إن الفلاسفة باستطاعتهم أن يصبحوا أغنياء في غير عناء إذا أرادوا ، لولا أن طموحهم يتجه اتجاهًا آخر .

هذه القصة التي رواها أرسطو في كتاب السياسة يراها (برتراند رسل) من الأساطير .



محنة الجسم الغريب
موقف المجتمع الإسلامي من الفلسفة

عندما كنت صغيرًا كنت أسمع بعض الناس يقولون في وصف أي رجل مهذار ثرثار (هذا فيلسوف) أو (جاء الفيلسوف) ، وكنت أسمع هذه الكلمة (بلا فلسفة) من الرجل الذي ملّ الجدال مع خصمه .

فانطبع في ذهني أن الفلسفة ضرب من الهذر والجدال المقيت والاستعراض الكلامي الذي لا طائل منه ، ولما قرأت أكثر عن الفلسفة - فيما بعد - علمت سبب هذه النظرة الشزراء لهذا الجسم الغريب الوافد على ثقافتنا العربية والإسلامية ، لذا سوف أستعرض شيئًا من تاريخ موقف المجتمع الإسلامي من هذا الجسم الغريب (الفلسفة) وكذلك أعرض شيئًا من التاريخ الذي عشت معه سنين تربو على الخمس .

إن الموقف أخذ طابع الصراع والإقصاء من قبل المجتمع الإسلامي - وللإفادة و التركيز فقد قسمت أشكال هذا الصراع كالتالي :

- الصراع مع المنطق .
- الصراع مع الفلسفة .
- الصراع مع كتبهم ومؤلفاتهم .
- الصراع بالشعر لكل متعلقات الفلسفة .
- ثم ختمت بكلمة أخيرة .

وقبل الدخول في صلب الموضوع لا بد أن أقدم جزءًا يسيرًا عن معنى الفلسفة وكيفية دخولها إلى المجتمع الإسلامي .

ما معنى الفلسفة ؟

(رحلة المصطلح) :

لا شك أن مصطلح (الفلسفة) تطور كثيرًا ، ولأن الموضوع يحكي محنة الفلسفة

فلا أريد الإطالة في هذا الموضوع وإنما أقول : إن تعريف الفلسفة هو :
« لفظ مشتق من اليونانية وأصله (فيلا - صوفيا) ، ومعناه محبة الحكمة ، ويطلق على العلم بحقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح » [١] .
ويرى (أرسطو) أن الفلسفة :علم الموجود بما هو موجود .
كما يرى (ديكارت) : أن الفلسفة أشبه شيء بشجرة جذورها علم ما بعد الطبيعة وأغصانها العلوم الأخرى ، كالطب وعلم الميكانيكا وعلم الأخلاق [٢] .
وهناك فلسفات أخرى كالفلسفة الأولى عند أرسطو ، والفلسفة الدائمة كما عند (لافل) ، والفلسفة الشعبية التي قال بها (فولف) وهي المتحررة من الصورة العلمية ومتناسبة مع مستوى الجمهور [٣] ، والفلسفة الطبيعية أو المثالية التي عرف بها (هيجل) وشيلنغ في الفلسفة المادية ، واليوم نرى (جيل دولوز) يرى أن الفلسفة هي إبداع المفاهيم والتركيز على اللغة وجعلها غاية في نفسها لا وسيلة ، حتى خرج علينا جاك دريدا بفلسفة التفكيك أو التقويض التي قعّد فيها على أسبقية الكتابة على الصوت أو اللفظ وأن ما هناك من نص إلا ويحمل متناقضاته في ثناياه وغير ذلك .
أخيرًا هناك الفلسفة العامة التي قال بها (أوجست كونت) وهي المبادئ العامة التي يستند عليها العلم .

كيفية دخول الفلسفة في المجتمع الإسلامي :

ازدهرت الفلسفة الإسلامية في عهد المأمون ابن الرشيد ، حيث كثرت الترجمات ، وتنفس الفلاسفة الصعداء ، وأخذ النسّاخ ينسخون كتب الفلسفة بكل حرية ، بل وكان المأمون يزيد في عطائهم أكثر من النساخ الآخرين .

---

(١) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا (١٦٠/٢) .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ص (١٦٣/٢) .

لكن مؤرخي الفلسفة الإسلامية يجعلون من خالد بن يزيد بن معاوية الأموي هو بداية من ترجموا عن اليونان ، فقد ترجمت له كتب الطب والكيمياء ، فقد فاتته الرئاسة فأراد أن يبلغ بالعلم ما فاته من الإمرة والسلطان ، وقد تعلم الطب والكيمياء على يد مريانوس وهو كاهن مسيحي (١) ، ومعلوم أن الترجمة ما وقفت في عهد المنصور ولا هارون الرشيد لكن - كما أسلفت - أن الفلسفة ازدهرت في عهد المأمون ، ويقال إن المأمون رأى أرسطو في المنام كما يذكر ابن النديم في الفهرست « ظهر - أرسطو - للمأمون في منامه بصورة شيخ أبيض اللون ، حسن الشمائل ، فدخل معه الخليفة في حوار حول طبيعة الخير أو الحسن ، وبدأ أرسطو فعرف الحسن أولاً بأنه ما حسن في العقل ، ثم عرفه ثانيًا بأنه ما حسن في الشرع ، وعرّفه أخيرًا بأنه ما حسن عند الجمهور » . (٢)

أشهر المترجمين :

وأشهر المترجمين على الإطلاق (حنين بن إسحاق) قال عنه ظهير الدين البيهقي في كتابه - تتمة صوان الحكمة : « . . . ولم يوجد في هذه الأزمنة بعد الاسكندر أعلم منه باللغة اليونانية والعربية » (٣) .

ويأتي من بعد حنين ابنه إسحاق بن حنين بن إسحاق ، وقد أسلم ؛ لأن أصله نصراني من نصارى العراق ، وكذلك ابن ناعمة الحمصي ، وأبو بشر متى بن يونس ، ويحيى بن عدي ، وقسطا بن لوقا الذي يعد بحق نظير حنين في سعة علمه ، بل إن « ابن النديم عندما يأخذ في تعداد مؤلفاته الأدبية والعلمية يجد نفسه مضطرًا لأن يعتذر عن ذكر حنين قبله » (٤) .

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفي ، محمد أبو ريان ص (٦٣) .

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ماجد فخري ص (٤٢) .

(٣) تتمة صوان الحكمة ، للبيهقي ص (٣٠) .

(٤) تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ماجد فخري ص (٤٦) .

ولا أنس ثابت بن قرة الفيلسوف الصابئي ، والمنجم الخطير ، كان من جلساء الخليفة المعتضد ، وكان أصله من صابئة حرّان (المندائية) .

يقول البيهقي : وكان المعتضد يكرمه ، ومن إكرامه له أن المعتضد طاف معه في بستان له ويده على يد ثابت فانتزع بغتة يده من يد ثابت ففزع من ذلك ثابت فقال له المعتضد : « يا ثابت أخطأت حين وضعت يدي على يدك وسهوت فإن العلوم تعلو ولا تعلى » (١) .

الفلسفة في المغرب الإسلامي :

أما في المغرب الإسلامي فإن ظهور الفلسفة كان على يد عبد الرحمن الثاني أمير الأندلس كما يؤكد ذلك جورج طرابيشي قائلاً : « . . . وذلك أن الأمير عبد الرحمن الثاني لم يلي الأمر حتى بعث إلى المشرق جماعة من علماء عاصمته ليجلبوا له كتبًا تتصل بما انتهى إليه ميله من العلم كالطب والفلسفة والعلوم الروحانية والتنجيم وتفسير الأحلام » (٢) .

ويؤكد جورج طرابيشي أن أول فيلسوف في الأندلس كان عباس بن فرناس ، كما أن أول فيلسوف في المشرق أبو يعقوب الكندي .

الصراع مع المنطق :

قبل الشروع في الحديث عن صراع المجتمع الإسلامي للمنطق يحسن أن أعرّف المنطق بشكل سريع .

الجورجاني في التعريفات يقول : « آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر فهو علم عملي آلي . . » (٣) .

أما ابن خلدون فيقول : « قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرّفة

---

(١) تتمة صوان الحكمة ، للبيهقي ص (٣٠) .

(٢) نقد العقل العربي وحدة العقل الإسلامي ص (١٦٤) .

(٣) التعريفات للجرجاني ص (٣٠١) .

للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات » .

ويقول جميل صليبا في المعجم الفلسفي :

وأرسطو أول من هذب قواعد المنطق ورتب مسائله وفصوله ، إلا أنه سمّاه بالتحليل لا بالمنطق وأول من أطلق اسم المنطق على هذا العلم شرّاح أرسطو ثم شاع استعماله بعد (الاسكندر الافروديسي) وسماه العرب بعلم المنطق تارة وعلم الميزان أخرى . . » [1] .

وإذا أردنا أن نتحدث عن صراع المجتمع الإسلامي للمنطق فأول ما يقفز إلى أذهاننا فتوى ابن الصلاح الشهيرة في ذم المنطق وتحريمه ، كما أن له فتوى أخرى في تحريم الفلسفة ، لكن الأولى أشهر وأشد وقعًا على فلاسفة عصره ومن جاء بعدهم ، وابن الصلاح توفي في سنة ٦٤٣هـ ، وهذا شيء من نص الفتوى : وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالح وسائر من يقتدى به من أعلام الأمة وسادتها ، وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة ، والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية والحمد لله افتقار إلى المنطق أصلاً ، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم (   ) ، ويخرجهم عن المدارس ، ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من ظهر عنه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام [2] .

وعن أثر هذه الفتوى يقول السيوطي : وقد كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئًا في علم المنطق ثم ألقى الله كراهته في قلبي ، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه

---

(١) المعجم الفلسفي (٤٢٨/٢) .

(٢) مصائر الفلسفة جورج طرابيشي ص (٧٠) .

فتركته لذلك ، فعوضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم [1] .

ابن تيمية والصراع مع المنطق :

ثم جاء بعد ابن الصلاح عالم آخر ضرب المنطق ضربة قاضية ، فإن كان ابن الصلاح جاءت ضربته من الخارج ، فابن تيمية جاءت ضربته من الداخل - على رأي جورج طرابيش - وقد ألف رسالة بعنوان : (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان) ، وهذه الرسالة تولى الترويج لها السيوطي (٩١١هـ) من خلال تلخيصه في كتابه الذي جعل عنوانه : (جهد القريحة في تجريد النصيحة) [2] .

يقول علي الوردي : « وصل نقد المنطق على يد ابن تيمية إلى القمة وهو لم يقتصر في نقده للمنطق على نقض مبدأ العقلانية والسببية كما فعل الغزالي إنما حاول نقض الأصل الذي يقوم عليه الاستنباط المنطقي والقياس وهو في هذا يشبه فرانس بيكون وجون سيوارت » [3] .

الذهبي :

أما الذهبي فقد قال عن المنطق : « . . . فما ظنك بعلم المنطق والجدل وحكمة الأوائل التي تسلب الإيمان ، وتورّث الشكوك والحيرة ، التي لم تكن - أي العلوم - والله من علم الصحابة ، ولا من علم الأوزاعي والثوري والأئمة الأربعة ، ولا عرفها أصحاب الأمهات الستة وأمثالهم » [4] .

وعندما ترجم للقاسم بن أحمد بن موفق اللورقي (٦٦١) وكان ممن تعاطى علوم الأوائل قال عنه : « فيا ليته ترك الاشتغال بعلوم الأوائل - أي اليونان - فما هي

---

(١) حقيقة الفلسفة الإسلامية جلال العشري ص (١٤٣) .

(٢) المرجع السابق ص (١٤٣) .

(٣) منطق ابن حلدون ، علي الوردي ص (٥٧) .

(٤) التاج المكلل للقنوجي ص (٢٧٧) .

إلا مرض في الدين أو هلاك فقلّ من نجا منهم » (١) .

ومن الذين حاربوا المنطق علماء اللغة وعلماء الكلام أيضًا وكذلك الإمام الشاطبي والإمام السبكي (٧٧١) ، وإن كان السبكي يفصل في حكم الاشتغال بالمنطق حين يجيزه لمن رسخت قواعد الشريعة في قلبه أما ما عداه فيحرم عليه .

ونرى أيضًا المتصوف شهاب الدين السهروردي قد تخصص (في التهجم على الفلسفة وفي الرد على الفلاسفة بالقرآن) ، وهذا عنوان كتابه - وله كتاب أهداه للخليفة الناصر اسمه - : كشف القبائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية - .

وقبل أن ننهي الحديث عن صراع المجتمع الإسلامي للمنطق يجمل بنا أن نختمه برأي ابن خلدون في المنطق ، ولأترك الدكتور (علي الوردي) يحدثنا عن رأي ابن خلدون في المنطق ؛ لأن الوردي عالم اجتماع معروف ومتخصص في قراءة ابن خلدون يقول الوردي :« مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن ابن خلدون جرى في عرض آرائه المنطقية على أسلوب لا يخلو من غموض والتواء فهو لم يوضح منهجه المنطقي توضيحًا مركزًا يجعل القارئ يفهم ما يريد من النظرة الأولى ، فقد جاءت نقداته المنطقية متفرقة هنا وهناك في ثنايا المقدمة حتى أصبح من العسير على القارئ أن يتابعها ويربط ما بينها في منظومة واضحة المعالم ، أضف إلى ذلك أن أسلوب ابن خلدون بوجه عام ليس بالأسلوب المتناسق الذي يوضح بعضه بعضًا كثيرًا » (٢) .

ولا أنس أن أذكر محنة المنطق في الأندلس ، فربما فاقت محنته في المشرق .

فقد وقف المشايخ المالكية هناك في وجه المناطقة وضايقوهم ، ومنعوا دخول كتبهم وتداولها ، حتى أوضح القاضي صاعد أن الفلسفة كانت فردية لا جماعية ، وهذا ما كان ينفيه محمد عابد الجابري الذي يدعي صلة الفلسفة المغربية حيث بدأت بابن

---

(١) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص (١٣٣) .

(٢) منطق ابن خلدون ، علي الوردي ص (٦١) .

باجة واكتملت على يد ابن رشد ، لكن جورج طرابيش فنّد أقوال الجابري وأثبت عكس ذلك فها هو يقول : « تاريخ الفلسفة في الأندلس كان إذًا تاريخ انقطاع أكثر منه تاريخ اتصال » [١] .

وفي نهاية المطاف يقول جلال العشري عن سبب عدم قبول علماء الكلام للمنطق :

إن العلة في عدم قبولهم للمنطق الارسطاطاليس أنهم لم يقبلوا الميتافيزيقا [٢] – ما وراء الطبيعة – الارسطاطاليسية ؛ لأنها مخالفة لإلهيات المسلمين ، وهذا المنطق الارسطاطاليسي وثيق الصلة بالميتافيزيقا ، ولا أنس أن أذكر ما تفوه به أبو حيان في الليلة الثامنة من الإمتاع والمؤانسة وذكره للمناظرة التي حدثت بين أبي بشر متى بن يونس الفيلسوف وبين أبي سعيد السيرافي النحوي بحضره الأمير ابن الفرات فإنه قد أعلى من شأن النحو وأسف من شأن المنطق ، فهذا أبو سعيد يهزأ بالفيلسوف عندما قال أبو بشر بين لي ما هذا التهجين فقال أبو سعيد :

إذا حضرت الحلقة استفدت ، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس مع من عادته التمويه و التشبيه . . » [٣] .

فهو يدعوه للحلقة ليبين قلة علمه وحاجته للتعليم وهي زراية أي زراية .

الصراع مع الفلسفة :

علمنا موقف أهل الإسلام من المنطق وهو آلة الفلسفة ومفتاحها وهنا نتوقف على موقف المسلمين وصراعهم للفلسفة ذاتها وبالأخص الفلسفة الإلهية ، فمعلوم أن الفلسفة إلهية وهي الفلسفة الأولى ، وفلسفة طبيعية وفلسفة رياضية .

يقول محمد عابد الجابري بأن الفلسفة ماتت بالضربة القاضية على يد أبي حامد الغزالي يوم ألف كتابه الأشهر (تهافت الفلاسفة) ، لكن جورج طرابيش

---

(١) نقد العقل العربي وحده العقل الإسلامي ص (١٦٣) .

(٢) حقيقة الفلسفة الإسلامية ، العشري ص (١٥١) .

(٣) الإمتاع والمؤانسة (١١٩/١) .

تعقبه – كما هي عادته دائمًا – بقوله : « ونظرية (الضربة القاضية) الغزالية التي يتبناها الجابري نقلاً عن (دي بو) في تاريخ الفلسفة في الإسلام هي إما نظرية ساذجة أو سيئة النية » [١] .

وقصد جورج طرابيش من أنها سيئة النية أن محمد عابد الجابري يريد أن يؤكد عدم صلاحية الفلسفة في المشرق ؛ لأنه ليس أرض عقل وفكر .

أما المغرب فلأنه أرض عقل وفكر ، ازدهرت فيه الفلسفة بعدما ماتت بالضربة القاضية في المشرق ، وجورج طرابيش يؤكد أن الذي أمات الفلسفة في المشرق هو تسنين العقيدة القومية بداية من عند الإمام أحمد رحمه الله ، وانتهاء بابن تيمية مرورًا بأئمة الإسلام الأعلام ومنهم الغزالي الذي ضرب الفلسفة بعدما كانت في الرمق الأخير .

علمنا أن لابن الصلاح فتوى في تحريم المنطق ، وقرأنا شيئًا منها ، وهذه نتف من نص فتواه في الفلسفة حيث يقول : الفلسفة أسّ السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ، ومن تلبس بها تعليمًا وتعلمًا قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان [٢] .

أما ابن خلدون فرأيه واضح في الفلسفة وهو أنها لا فائدة فيها إلا أنها تشحذ الذهن فقط ولا ينصح بتعلمها إلا لمن كملت عنده علوم الشريعة .

وعن صراع أهل المغرب للفلسفة يقول المقري في نفح الطيب : وكل العلوم لها عندهم – أهل المغرب – حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لها حظًا عند خواصهم ولا يتظاهرون بها خوف العامة [٣] .

---

(١) مصائر الفلسفة ، جورج طرابيشي ص (٨٠) .

(٢) حقيقة الفلسفات الإسلامية ، جلال العشري ص (١٤٢) .

(٣) منطق ابن خلدون ، علي الوردي ص (١٨٩) .

الصراع مع الفلاسفة :

لعل الصراع مع الفلاسفة أو بتعبير أدق للفلاسفة كان أكثر إثارة وأثرى مـــادة ، وقد أحسن غولدزيهر المستشرق المعروف يوم قدم بحثًا بعنوان : موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل وأحسن أيضًا الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي يوم أن نقله للعربية في كتابه الرائع : (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ، وهـــو عبارة عن دراسات لكبار المستشرقين من ألمان وإيطاليين ، فأغلب الذين جاءوا من بعده كانوا عيالاً عليه – على رأي الفقهاء – .

الغزالي :

إذا أردنا أن نتحدث عن صراع أهل الإسلام للفلاسفة فأول ما يقفز إلى الأذهـــان كتاب الغزالي : تهافت الفلاسفة (٥٠٥هـــ) حيث إنه لما قرأ الفلسفة في شهرين وهضم الكثير منها تصدى للرد على الفلاسفة في هذا الكتاب ، فقد كفـــرهم في ثلاث مسائل وهي قولهم بأن العالم قديم وليس محدثًا ، وقـــولهم بـــأن الله يعلـــم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، وإنكارهم بعث الأجساد يوم القيامة .

وبدعهم في سبع عشر مسألة وذاع كتابه بشكل عجيب حتى تصدى له ابن رشد في رده عليه في كتابه تهافت التهافت .

لكن الأول أشهر وأبقى لدى المسلمين ، ولم يترك كتاب ابن رشد فقد نقده ابـــن تيمية في رده عليه أيضًا .

ابن تيمية :

علمنا جهد ابن تيمية في الرد على المنطقيين ورسالته المعروفة ، ولأتـــرك جـــورج طرابيش يحدثنا عن حرب ابن تيمية للفلاسفة حيث يقول عنه : الـــذي أفلـــح في إنزال الفلاسفة اليونانيين وغير اليونانيين منزلة الأعداء للإسلام وجعـــل حكمهـــم كحكم الزنادقة والملاحدة والكفار ودمغهم بالشرك بقوله الذي كرره بمعنـــاه في أكثر من موضع : « كان أرسطو وقومه من اليونان مشركين يعبـــدون الأصـــنام

ويعانون السحر » [1] .

ويقول جلود زيهر عن حفيد المتصوف الحنبلي عبد القادر الجيلاني وهو عبد السلام الجيلاني الذي كان لا يضبط لسانه بالحديث عن علوم الأوائل : ولما فتشت داره وجد فيها من كتب الفلاسفة ورسائل إخوان الصفا وكتب في السحر . . . وحكم على عبد السلام بأنه فاسق وجرد من طيلسان العلماء وزجّ به في السجن وأخرجت مدرسة عبد القادر من يده ، وأسندت إلى ابن الجوزي [2] .

وفي تراجم الفلاسفة نرى كيف شن علماء الإسلام حربًا شعواء عليهم حين يترجمون له أو لغيرهم ممن حاربهم وناظرهم .

فهذا الذهبي يترجم لأبي إسماعيل الهروي فيقول : كان مظهرًا للسنة ، داعيًا إليها ، رادًا على أهل الفلسفة والإلحاد ولا يخاف في الحق لومة لائم ، والشوكاني يقول في البدر الطالع عن الإمام الطيب حسين بن محمد : كان حسن المعتقد ، شديد الرد على الفلاسفة المبتدعة ، مظهرًا فضائحهم مع استيلائهم على بلاد المسلمين في عصره .

ويقول جولدزيهر عن محمد بن علي بن الطيب نقلاً عن ياقوت الحموي : « كان إمامًا عالمًا بعلم كلام الأوائل ، إلا أنه خشي أهل زمانه فلم يشأ الظهور صراحة بمظهر الفيلسوف فأخرج مذهبه في صورة المذاهب الكلامية » [3] .

ويقول ابن أصيبعة عن ابن باجة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء : بلي بمحن كثيرة وشناعات من العوام وقصدوا هلاكه مرّات وسلمه الله منهم [4] ا.هـ .

وأكبر وأشهر نكبة لفيلسوف كانت نكبة ابن رشد الفيلسوف الأشهر على

---

(١) مصائر الفلسفة ، جورج طرابيشي ص (٧٦) .

(٢) التراث اليوناني ، جولد زيهر بدوي ص (١٣٦ – ١٣٧) .

(٣) جولد زيهر بدوي ص (١٣٤) .

(٤) جورج طرابيشي ، وحدة العقل العربي الإسلامي ص (١٤٨) .

الإطلاق لكن قبل أن نتكلم عن نكبة ابن رشد نورد هذه الترجمة لابن باجة التي ترجمها الفتح بن خاقان في قلائد العقيان حيث يقول : « هو رمد جفن الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفًا وجنونًا وهجر مغروضًا ومسنونًا . . ناهيك من رجل لم يتطهر من جنابة ولا أظهر مخيلة إنابة . . ولا أقر بربه ومصوره . . قد محي الإيمان من قلبه فما له فيه رسم ، ونسي الرحمن لسانه فما يمر له عليه اسم » [1] .

أما ابن رشد الذي قيل عنه أنه روح أرسطو وعقله فقد حاول التوفيق بين الفلسفة والدين كما فعل الكندي والفارابي ، وكتابه (فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ، يقول عبده الحلو في كتابه الوافي في تاريخ الفلسفة العربية عن سبب تأليف ابن رشد لهذا الكتاب : « وكأنه بدأ يشعر بخطر ما يتهامس به حسّاده من اتهامه بالزندقة لكونه ينصرف إلى الاشتغال بالفلسفة فأراد أن يستبق التهمة ، وأن يثبت بالحجة الدينية ، فضلاً عن المنطق العقلي ، إن الاشتغال بالفلسفة من الأمور المباحة في الشرع ، بل هو واجب شرعي نصت عليه الآيات القرآنية » [2] .

لكن ذلك لم يفد ابن رشد و لم يقصّر خصومه من العلماء عن الوشاية به ، يقول جلال العشري نقلاً عن عبد الواحد المراكشي : فبعثت إليه الأمير – المنصور – يطلبه إلى مجلسه الذي دعا إليه الرؤساء والأعيان من مختلف الطبقات ، وكان ذلك بمدينة قرطبة ، فلما مثل بين يديه سأله : أهذا شيء كتبته بخط يدك ؟ فأنكر أبو الوليد فقال المنصور : لعن الله كاتب هذا الخط ، وأمر الحاضرين بأن يلعنوه أيضًا ، ثم قضى بنفيه هو وجماعة من المشتغلين بالعلم والفلسفة [3] .

---

(١) جورج طرابيشي ، وحدة العقل العربي الإسلامي ص (١٤٨) .

(٢) الوافي في تاريخ الفلسفة العربية ، عبده الحلو ص (٤١٨) .

(٣) جلال العشري حقيقة الفلسفات الإسلامية ص (١٣٧) .

ولم يكتف المنصور بذلك بل أصدر مرسومًا يحرم فيه الاشتغال بالفلسفة ، إليكم نتفًا منه : . . . ونشأ منهم – أي الفلاسفة – في هذه السمحة البيضاء – الشريعة الإسلامية – شياطين إنس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . . فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين ، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين ، نبذناهم نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصي السفهاء من الغواة وأبغضناهم في الله ، كما أننا نحب المؤمنين في الله [1] .

لكن لا ننس أن نثبت أن المنصور عفى عن ابن رشد في النهاية وقربه منه عندما ذهب إلى مراكش ، وابتعد عن قرطبة حتى مات الاثنان سنة (٥٩٥هـ) بفارق أشهر .

الصراع مع كتب الفلاسفة / المحارق :

لم يكتف علماء الإسلام في القديم بنقد المنطق وتحريم الفلسفة ومضايقة الفلاسفة ، بل امتد الصراع حتى شمل الكتب المؤلفة في هذا الفن أو العلم ، فقد أقيمت محارق لهذه الكتب وخدّت لها الأخاديد في الأرض لدفنها بعد حرقها ، كي لا يسري ضررها وفسادها إلى الأجيال تلو الأجيال ، فهذا ابن الأثير يحدثنا عن سنة (٥٥٥هـ) فيقول : « ولما تولى المستنجد الخلافة ورغب في القضاء على ما كان في الإدارة من سوء وفساد ، قبض على أحد القضاة فأمر بأمواله فأخذت ، وبكتبه فأحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة ، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب إخوان الصفاء وما يشاكلها » [2] .

ومرّ بنا الحديث عن حفيد عبد القادر الجيلاني وهو (عبد السلام الجيلاني) وهذا ممن أحرقت كتبهم ، يقول عنه صديق بن حسن البخاري القنوجي في كتابه التاج المكلل : « وقد جرت عليه محنة في أيام الوزير ابن يونس ، وأحرقت كتبه ، وفي

---

(١) جلال العشري ، حقيقة الفلسفات الإسلامية ص (١٣٧) .

(٢) مصائر الفلسفة ، طرابيشي ص (٦٨) .

بعضها مخاطبة زحل : أيها الكوكب المضيء أنت تدير الأفلاك ، وتحيي وتميت ، وأنت إلهنا ، وفي حق المريخ من هذا الجنس ، فقال ابن يونس : هذا خطك ؟ قال : نعم ، قال : لم كتبته ؟ قال : لأرد على قائله ومن يعتقده ، فأمر بإحراق كتبه ، وأودع في الحبس مدة ، ولما أفرج عنه أخذ خطه : بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وأن الإسلام حق ، وما كان فيه باطل ، وأطلق ، توفي سنة ٦١١هـ » [١] .

لكننا إذا قرأنا الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥هـ نجد زيادة أو تكملة لما حدث حيث يقول - ونص القنوجي مأخوذ نصًا من ابن رجب - : فجلس قاضي القضاة والعلماء وابن الجوزي معهم على سطح مسجد مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة ، وأضرموا تحت المسجد نارًا عظيمة ، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم والكتب على سطح المسجد ، وقام أبو بكر بن المرستانية فجعل يقرأ كتابًا كتابًا من مخاطبة الكواكب ونحوها ويقول : العنوا من كتبها ومن يعتقدها وعبد السلام حاضر ، فيضج العوام باللعن فتعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر بل وإلى الإمام أحمد ، وظهرت الأحقاد الصدرية [٢] .

ونرى أبا حيان التوحيدي يروي تبرم أبي الحسن الكاتب من حرق الصاحب بن عباد لكتبه فيقول : « . . ثم وضعني في الحبس سنة وجمع كتبي وأحرقها بالنار وفيها كتب الفرّاء والكسائي ومصاحف القرآن وأصول كثيرة في الفقه والكلام ، فلم يميزها من كتب الأوائل - وهنا الشاهد من إيراد هذه القصة - وأمر بطرح النار فيها من غير تثبت ؛ لفرط جهله وشدة نزقه . . وهلا طرح النار في خزانة كتبه على قياس هذا ؟ فإن فيها كتب ابن الراوندي وكلام ابن أبي العوجاء في معارضة القرآن بزعمه ، وصالح بن عبد القدوس وأبي سعيد الحصيري مع غيره من

---

(١) التاج المكلل ، القنوجي ص (٢٢٢) .

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٤/٥٥ - ٥٦) .

كتب أرسطاطاليس وأشباهه ، ولكن من شاء حمق نفسه [1] . ويخبرنا جولـدزيهر في بحثه القيّم أن النساخ كانوا يحلفون في عدم نسخ كتب الفلسفة فيقول : وكان النساخ المحترفين في بغداد أو سنة ٢٧٧هـ أن يقسموا بأنهم لن يشتغلوا باستنساخ أي كتاب في الفلسفة [2] .

هذا في المشرق ، فماذا عن المغرب الذي عرف أهله بحربهم لعلوم الأوائل ، ونبذها نبذ النواة كما جاء في مرسوم الأمير المنصور ؟! .

يقول القاضي صاعد عن حكم هشام المؤيد بالله الذي ولي الحكم وعمره تسع سنوات : « وولي بعده هشام المؤيد بالله وهو يومئذ غلام لم يحتلم بعد ، فتغلب على تدبير ملكه بالأندلس حاجبه أبو عامر . . وعمد أول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها ، وأبرز ما فيها من ضروب التواليف بمحضر خواصه من أهل الدين ، وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل ، حاشا كتب الطب والحساب ، فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو والأشعار والأخبار والطب والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم المباحة بمذاهب الأندلس إلا ما أفلت منها في أثناء الكتب - وذلك أقلها - فأمر بإحراقها وإفسادها ، فأحرق بعضها في آبار القصر ، وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيّرت بضروب من التغايير وفعل ذلك تحببًا إلى عوام الأندلس . . . » .

وكلنا يعلم نكبة ابن رشد وبعض الفلاسفة الذين معه وإحراق كتبه ، يقول يوحنا قمير : لم يعمل المنصور السيف وإنما اكتفى بالنفي ، فنفى ابن رشد إلى (اليسانة) ونفى رفاقه إلى موقع آخر ، أما الكتب فحرم قراءتها ، وأمر بالبحث عنها وإحراقها ، إلا ما كان منها في الطب والحسابات والمواقيت .

---

(١) أخلاق الوزيرين أبو حيان التوحيدي ص (١٢٨ - ١٨٣) .

(٢) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، بدوي ص (١٣٥) .

الصراع بالشعر :

وما دام أن الشعر ديوان العرب ، وأن العرب لن تترك الشعر حتى تترك النوق حنينها ، وما دام أن الشعر علم قوم لم يكن لهم قبله أو سواه ، فلا بد أن يكون أداة بل سلاحًا في هذا الصراع ، فلم يغفل المسلمون دور الشعر وأثره في هذا الصراع المصيري ، لذا جرد الشعر من قلوب وعقول الشعراء المسلمين في حرب المنطق والفلسفة بل لم يقتصر على الشعر فحسب بل عم الأدب بشكل كبير ، فهذه كتب الأدب تصور لنا هذا الصراع الأزلي بين الشعراء والفلاسفة منذ أن ألقى أفلاطون بالشعراء خلف أسوار مدينته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ لأن الشعر منبعه القلب دائمًا ولأن الفلسفة منبعها وموطنها العقل والفكر ، فكلنا مثلاً يذكر قصة أبي تمام مع الكندي عندما مدح الأول أحمد بن المعتصم فاحتج عليه الكندي كيف يقارن خليفة المسلمين ببعض السوقة عندما قال أبو تمام :

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء إياس

فرد عليه أبو تمام بقوله :

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلاً شرودًا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلاً من المشكاة و النبراس

فقال الكندي بعدما أفحم : لا يعيش والله طويلاً ؛ لأن ذهنه يأخذ من عمره ، يقول محمد محمد حسن شرّاب في كتابه (في أصول تاريخ العرب الإسلامي) عن هذه القصة : « والقصة في رأيي مصنوعة ، وضعها أنصار أبي تمام أو وضعها المعلمون وأصحاب القصة . . . » [1] .

كذلك نجد شاعرًا كالبحتري ينعى على المناطقة منطقهم فيقول :

---

(١) أصول تاريخ العرب الإسلامي ص (٢٤٤) .

كلفتمونـــا حـــدود مـــنطقكم والشعر يغني عمن صـــدقه كـــذب

ولم يكـــن ذو القـــروح يلـــ هج بالمنطق ما نوعـــه ومـــا ســـببه

والـــشعر لمـــح تكفـــي إشـــارته ولـــيس بالهـــذر طولـــت خطبـــه

كما نرى شهاب الدين السهروردي يأتي بأبيات جميلة في نقد كتاب الشفا لابـن سينا ومنهج أرسطو فيقول :

وكـــم قلـــت للقـــوم أنـــتم علـــى شفا حفـــرة مـــن كتـــاب الـــشفا

فلمـــا اســـتهانوا بتوبيخنـــا فزعنـــا إلى الله حـــتى كفـــا

فمـــاتوا علـــى ديـــن رســـطاطا ليس ومتنا علـــى ملـــة المـــصطفى

ويقول كمال الدين بن يونس في هجاء ابن سينا :

رأيت ابن ســـينا يعـــادي الرجـــال وبالحبس مـــات أخـــس الممـــات

فلم يشف ما ناله بـــ (الـــشفا) ولم ينج من موته بـــ (النجـــاة)

وما دمنا ذكرنا ابن سينا فيجمل بنا أن نأتي بأبيات قالها تبين ضجره وتبرمـه مـن إيذاء الناس له ، ولكنها غاية في التشكي والعزة والثقة بالنفس :

عجبًـــا لقـــوم يحـــسدون فـــضائلي مـــا بـــين غيـــابي إلى عُـــذّالي

عتبوا على فضلي وذمـــوا حكمـــتي واستوحشوا من نقـــصهم وكمـــالي

إني وكيـــدهم ومـــا عتبـــوا بـــه كالطود يحقـــو نطحـــه الأوعـــال

وإذا الفتى عرف الرشـــاد لنفـــسه هانـــت عليـــه ملامـــة العـــذال

ويقول أحدهم :

فارقـــت علـــم الـــشافعي ومالـــك وشرعت في الإســـلام رأي دقلـــس

ويقول طاش كبرى زاده :

ومـــا انتـــسبوا إلى الإســـلام إلا لـــصون دمـــائهم مـــن أن تـــسالا

فيـــأتون المنـــاكر في نـــشاط ويـــأتون الـــصلاة وهـــم كـــسالى

ونرى ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية الوفيّ ، يسير على نهج شيخه في نقد المناطقة وذمهم ، فهاهو يقول من نظمه :

وا عجبًا لمنطق اليونان … كم فيه إفك ومن بهتان

مخبط لجيد الأذهان … ومفسد لفطرة الإنسان

مضطرب الأصول والمباني … على شفا هار بناه الباني

هذا في المشرق ، أما في المغرب فيكفي أن نقف مع الرحالة المشهور ابن جبير فقد كفى ووفّى ، يقول عنه جورج طرابيشي : إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن أهجى شعراء العصر وأقدرهم على السخرية الكاريكاتورية وهو الحاج أبو الحسين بن جبير (٦١٤هـ) سلط على ابن رشد وعلى الفلسفة والمتفلسفين عمومًا وابلاً متدافعًا من طلقات لسانه الشديد اللسع .

يقول ابن جبير عن الفلاسفة :

قد ظهرت في عصرنا فرقة … ظهورها شؤم على العصر

لا تقتدي في الدين إلا بما … سن ابن سينا وأبو نصر

وقال عن ابن رشد في نكبته المذكورة :

الآن قد أيقن ابن رشد … أن تواليفه توالف

يا ظالمًا نفسه تأمل … هل تجد اليوم من توالف ؟ (١)

كلمة أخيرة :

بعد هذا الصراع المرير الذي عاناه الفلاسفة يجدر بي أن أنوه على أن الفلسفة لاقت صدى لا بأس به في قلوب كثيرٍ من علماء المسلمين ، وأدبائه وأمرائه منهم من ثبت عليها وجاهر بها كالفلاسفة المشهورين أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن ماجه وابن طفيل وغيرهم ، وتحملوا في سبيلها الأهوال ، ومنهم

---

(١) جورج طرابيشي ، وحدة العقل العربي الإسلامي ص (١٨١) .

من اشتغل بها فترة من الزمن ثم ارتد عنها من هؤلاء حسن بن محمد الإربيلي (ت : ٦٦٠هـ) : وفي داره في دمشق كان يجتمع خلق كثير من المسلمين وأهل الكتاب وأتباع الفلسفة كي يأخذوا عنه ويتعلموا منه ، فيرون أن آخر كلمة قالها ساعة الموت هي : (صدق الله العظيم وكذب ابن سينا) [1] ، ومنهم من تعلم الفلسفة وأخفى ذلك عن الناس خشية الفتك به أو تكفيره ، من هؤلاء محمد بن علي بن الطيب (٤٣٦) : كان إمامًا عالمًا بعلم كلام الأوائل إلا أنه خشي أهل زمانه فلم يشأ الظهور صراحة بمظهر الفيلسوف [2] .

وإن كنت قد أوضحت موقف أهل الإسلام من المنطق من علماء وغيرهم فلا يفوتني أيضًا أن أنوه أن بعض العلماء المعتبرين لم يحرموا المنطق ، بل حثوا على دراسته ؛ لأنه يعصم صاحبه من الخطأ ، ومن هؤلاء أبو حامد الغزالي فقد قال في شأن المنطق : « إنه كالرياضيات سواء بسواء ، لا خطر منه في ذاته على الدين » [3] .

كما نرى ابن حزم رحمه الله يؤلف في المنطق كتابًا اسمه : (التقريب لحدود المنطق) بل نراه يقول في ثقة عجيبة : « الكتب التي جمعها أرسطاطاليس في حدود الكلام كلها كتب سالمة ومفيدة ، دالة على توحيد الله عز وجل وقدرته ، عظيمة المنفعة في انتقاد جميع العلوم » [4] .

وإن كان القاضي صاعد قال عن كتاب ابن حزم المذكور « فكتابه من أجل هذا كثير الغلط بين السقط » [5] .

---

(١) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، عبد الرحمن بدوي ص (١٣٥) .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه

(٤) المرجع نفسه ص (١٣١) .

(٥) المرجع نفسه .

ومن العلماء الذين قالوا بتعلم المنطق الشوكاني رحمه الله في كتابه (أدب الطلب ومنتهى الأرب) .

إلى هنا أصل إلى نهاية هذا الصراع ؛ لأنه ما يزال قائمًا إلى يومنا هذا ، وقد أجرى جهاد فاضل حوارًا مع الفيلسوف المغاربي محمد بن سبيلا في جريدة الرياض الخميس ٥ صفر ١٤٢٣هـ العدد ١٢٣٥١ فكان مما قاله ابن سبيلا : هناك مقاومة ضد الفلسفة ، وهنالك إجراءات قمعية ضد الفلسفة والفلاسفة ، وأنا أتحدث عن بلدي حيث الفلسفة محصورة في كليتين وممنوعة من الكليات الأخرى ، وفي نهاية القرن الماضي (العشرين) كما أعتقد أصدر أحد المسئولين قرارًا بمنع تدريس المنطق في جامعة القرويين ، معللاً ذلك بأن المنطق يفسد العقل ، وبأن من تمنطق فقد تزندق ، إذن المجتمع ما يزال يقاوم هذا النوع من التفكير الحر [1] .

وهكذا لن تقوم للفلسفة قائمة في المجتمع الإسلامي لعدة أسباب :

أولها : ما يحمله كثير من المسلمين في ذهنياتهم من أن الفلسفة هذر وضياع وقت .

ثانيًا : هذا الصراع الذي استعرضت شيئًا منه بين المسلمين والفلاسفة .

ثالثًا : أن الفلسفة مناقضة للدين ، وهذا السبب هو من أهم الأسباب ، لذا نرى فيلسوفًا مثل فؤاد زكريا يحاول أن يوفق (كعادة الفلاسفة من قبله) بين الدين والفلسفة عندما قدم ورقة عمل في المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي نظمته الجامعة الأردنية ، وأصدره مركز دراسات الوحدة العربية تحت عنوان : (الفلسفة والدين في المجتمع العربي المعاصر) جاء في هذا البحث : إن الخلاف بين الفلسفة والدين لم يكن في الأساس خلافًا في المحتوى أو المضمون ، بل كان خلافًا في المنهج ، ويتلخص هذا الخلاف في أن منهج التفكير الفلسفي نقدي في حين أن منهج التفكير الديني إيماني [2] .

---

(١) جريدة الرياض ، ملحق ثقافة اليوم .

(٢) الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، مجموعة كتاب ص (٤٣) .

ونرى مجلة الكويت في عددها ٢٠٩ ذو الحجة ١٤٢١هـ تطرح سؤالاً في ندوة أدراها الدكتور عبد الله الجسمي مفاده : هل نحتاج الفلسفة حقًا ؟

وهذا السؤال يشف عن حيرة لا تزال قائمة عن ضرورة وجود فلسفة تتغلل أنماط حياتنا وتسير حركة فكرنا ، يقول الدكتور الجسمي في مقدمة الندوة :

« بالطبع موضوع هذه الندوة من بين الموضوعات الحساسة جدًا (تأمل) لدى عامة الناس ؛ لأن هؤلاء يجهلون طابع الفلسفة العقيمة التي لا علاقة لها بالحياة أو مجرد لغو مصطلحات عامة مجردة وضعية ولا أهمية لها تذكر بشكل فعلي في حياة الإنسان . وكذلك هناك تصور عام عند كثير من الناس مفاده أن الفلسفة فيها نوع من التعارض مع الدين . . . » (١) .

ويقول الدكتور إبراهيم مدكور (وهو علم من أعلام الفكر الفلسفي عربيًا) عن محنة الفلسفة وغربتها في الوطن العربي : « والفلسفة في بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النصير والأعوان ، لا تكاد تجد من يتحبب إليها ويأخذ بيدها ، ولا من يصورها للناس في شكلها الواضح ومظهرها الصحيح ، فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها ، ولا تقف الناس على حقائقها ، والجمهور يفر منها ، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من أثر في تهذيب الأفراد والجماعات ، ورفع مستواهم العقلي والخلقي ، والخاصة يتبادلون منها أفكارًا بالية ، وآراء عتيقة ، قلّ أن تعرض عرضًا مستقيمًا ، وكأن الفلسفة في نظرهم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والعصور الحديثة أبحاث يعتد بها أو نظريات يقام لها وزن » ا.هـ (٢) .

هذا ما أردت قوله حول هذا الموضوع المشكل الذي ما يزال شائكًا ومحيرًا لكثير من العقليات ، والذي يشكل أكثر هو : هل هناك بالفعل فلسفة إسلامية حقًا ؟

---

(١) مجلة الكويت ص (٢٨) .

(٢) الفلسفة ، لمحمد كامل الخطيب ص (٣٤) .

أم أنها لا تعدو (خربشات على النص الفلسفي وتهميشات عليـــه) كمـــا يـــرى الفيلسوف المغاربي محمد بن سبيلا ، هذا موضوع آخر .



المحتويات

المحتوى	الصفحة



صدر للمؤلف

١. على استحياء (ديوان شعر)

٢. رقصة الفستان (ديوان شعر)

للتواصل مع المؤلف

صلاح عبد الله بن هندي

جوال : ٠٥٠٥٩٦٢٧٣٦

bnhndy@yahoo.com



كنت طفلاً بسيطًا نشأ وترعرع في أسرة أُميّة . ليس في بيتنا الصغير مجلة أدبية كـ (الرسالة) . ولا فنية كـ (الكواكب) . وليس في ركن من أركان بيتنا الصغير مكتبة تزخر بالكتب الكثيرة . كي يتسنى لي بعد ذلك قراءة (توم سوير) و (أوليفرتويست) و (روبنسون كروزو) و (جزيرة الكنز أو (ألف ليلة وليلة) و (كليلة ودمنة) و (سيرة عنترة) .

لقد نشأت في بيتنا الصغير ولم أر والدي يقرأ الجريدة وهو يحتسي قهوة الصباح ؛ لأنه كان رجلاً أميًا لا يقرأ ولا يكتب. ولم أر جدي يقرأ كتابًا في التاريخ كالطبري أو غيره .

لم يكن في بيتنا الصغير نافذة تُطلُّ على عالم الثقافة والفنون سوى جهاز الراديو. وقبله كانت (البشتختة) أو (الجرامفون) . فمن خلالهما استمع أفراد أسرتي إلى أصوات المطربين أمثال : محمد بن فارس . ناظم الغزالي . زهور

الوهاب . أم كلثوم . نجاة الصغير . شريفة فاضل . وحضيري بو

كانت البيئة التي نشأتُ فيها بسيطة في ثقافتها . كانت لق

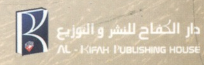
عنها هو الشغل الشاغل . حتى شارعنا الصغير (شارع كرم) لم

الدين) في مصر . أو شارع (الرشيد) في العراق . أو شارع (الحم

بالمقاهي والمحلاّت التجارية . إنما كان شارعًا بسيطًا توجد به بقا

صلاح بن هندي


ISPN 9786030048915
9786030048915


دار الكفاح للنشر و التوزيع
AL-KIFAH PUBLISHING HOUSE